

ذو الكفل

من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ.د. عقيل حسين عقيل

2017م

القاهرة

المحتويات

3	المقدمة
19	ذو الكفل من وحي القرآن
114	من صفات النبي ذو الكفل
114	1 . صابر:
124	2 . مرحوم:
131	3 . صالح:
192	4 . خير:
309	النبي ذو الكفل من السنّة
311	ذو الكفل وإيمان الملك:
314	حديث الشيطان مع ذا الكفل:
316	ولاية ذو الكفل:
382	وكالة ذو الكفل:

المقدمة

ذي الكفل هو نبيا من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلّاة والسّلام، ويقال إن ذو الكفل هو ابن أيّوب عليه السّلام، واسمه الأصلي بشر، وقد بعثه الله بعد النبي أيّوب وسماه ذو الكفل، لأنّه قام بتكفّل بعض الطاعات، وهو عند الجمهور نبي مرسل وكان من شأنه أنّه جابه الظلم وتصدّى لأولئك الفجرة الذين طاردوا عدداً كبيراً من أنبياء بني إسرائيل وتعقبوهم ليقتلوهم؛ فكفّلهم ذو الكفل وآواهم غير مبالٍ بعسف الظالمين وكيدهم، وقيل أنّ ذا الكفل اسمه والأسماء لا تعلق¹.

وقال ابن عبّاس: كانّ ذو الكفل "في بني إسرائيل نبي، وكانّ مع ذلك ملكاً"².

ويقول الشعراوي: الكفّل هو: "الحظ والنصيب، وذو الكفل هو: ابن أيّوب عليه السّلام، ويظهر أنّ أولاد أيّوب كانوا كثيرين، إنّما اختص الله ذا الكفل بالرّسالة، وكان هذا حظّه دون غيره من أبناء أيّوب؛ ولذلك سُمّي ذو الكفل"³.

أمّا ابن كثير فقال: "إنّ النبي ذو الكفل هو من سلالة إسحاق عليهما الصلّاة والسّلام، وزعم قوم أنّه ابن أيّوب. ثم استظهر ابن

¹ التفسير الوسيط، مجمع البحوث، 8، ص 511.

² تفسير السمعاني، 3، ص 401.

³ تفسير الشعراوي، 15، ص 619.

كثير أنّه نبي. وأيوب، وذو الكفل أرسلوا إلى أهل دمشق في الشّام⁴.

كما وقع خلاف في "ذو الكفل" فقيل: إنّما هو رجل صالح، وتوقف في ذلك ابن جرير، وظاهر سياقه مع الأنبياء أنّه منهم⁵

ولأنّ ذا الكفل اسم ومعنى فهو: نبي من بني إسرائيل بعثه الله تعالى إلى ملك يقال له كنعان فدعاه إلى الإيمان وكفل له الجنّة وكتب له معه كتاب ذكر حقّ على الله، وآمن الملك وأوصى بأنّ يدرج ذلك الكتاب معه في طي أكفانه، ففعلوا ودفنوا الملك؛ فرد الكتاب إلى ذي الكفل، وقيل له: إنّ الله يُقرئك السّلام وقد وفي للملك ما كتب في ذمتك⁶.

ذو الكفل نبيا كريما واسع الصدر لا تضيق نفسه إلّا من ظلما وممن يكون وعلى من يقع، وهو الذي تولّى تخليص مجموعة كبيرة من أنبياء بني إسرائيل من القتل، وتكفّل بكلّ ما يمكنه من العمل الصّالح. وقيل: ذو الكفل؛ "لأنّه تكفّل بأمر سبعين نبيا فخلّصهم من القتل. وقيل: تكفّل بعمل صالح فوقى به". ولهذا كان ولي لمن يقع عليه ظلما، حتى اتصف بالعدل، وهذه القيمة هي التي تأسّس ملكه عليها. وهنا؛ فالولاية قيمة حميدة كونها اعتراف بواجب أو حمل مسؤوليّة واجب حمل أعبائها.

⁴ التفسير الوسيط، مجمع البحوث، 8، ص 511. طال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، ص 66.

⁵ منهج الشيخ محمّد رشيد رضا في العقيدة، ص 694.

⁶ درج الدرر في تفسير الآية والسور، 3، ص 123.

ومن ثمّ؛ فالولاية مناصرة للحقّ وأصحابه، وهي قيمة حميدة تتمرّز معاييرها على المودّة والمحبة والإخلاص وإلا ستكون فاقدة لدلالاتها الشرعيّة والقانونيّة، ذلك لأنّ الولاية ذات عُرى لا تنفصم.

وعليه: فإنّ الولاية تستوجب حُسن معاملة وإدارة وتنظيم وحُسن علاقات، ولذا فالولاية تقارب وتلاحم عن إرادة بين الذين لهم من العلاقات ما يستوجب ظهور الولاية شكّلا وموضوعاً، والولاية النّاجحة هي التي تؤسّس على الاحترام المتبادل والاعتراف المتبادل والتقدير المتبادل مع عدم الإغفال عن أهميّة المشاورة في الأمر الذي يتعلّق أمره بالجميع.

والولي المطلق الله ومن يتّبعه إيمانا وطاعة وهداية يكون ولي بالإضافة متخلّقا بأخلاق هذا الاسم العظيم، فيتداخل المعنى الإلهي بوجه الإطلاق مع المعنى الإنساني بوجه الاستحقاق إن أطاع الولي بالإضافة الولي المطلق، ومن هذا التداخل الذي لا يصعب على صاحب الذوق السليم والفكر المستنير أن يعرف الفروق بين المطلق والمضاف.

والولي من العباد: هو المستخلف في الأرض وهو من يحبّ الله عزّ وجلّ ويحبّ أوليائه وينصره وينصر أوليائه ويعادي أعداءه، ويحقّ الحقّ ويعمل على إزهاق الباطل⁷.

إذن الولاية مناصرة والولي هو النصير. وفي القرآن العزيز: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ}

⁷ المقصد الأسنى، ج 1، ص 130.

الْمُؤْمِنِينَ} 8، والولي بالإضافة المطيع، وهو التابع إيماناً لمن أولى أمره إليه.

والولاية هي ما يستوجب الطاعة في غير معصية الله تعالى، والولي بالإطلاق هو الذي يوالي من ينصره، ولا يوجد من يوالي الله مثل الخليفة سيد الخلق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أوقف حياته لنصرة الحقّ ولنصرة الدين الحنيف، لذا فالله ينصر من ينصره، وإن ظن البعض أنّ الله لن ينصر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا الظن وهم محض، يقول الله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} 9.

والولي هو المتولي لأوامر الولي المطلق (الله) سبحانه وتعالى وهو الخليفة الذي أخذ على عاتقه حمل الأمانة؛ فيدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر.

ومعلوم أنّ البشر كثيرون ولكن الذي حمل الأمانة وتولّى مشقّتها وأحد وهو الإنسان الذي يتّسم بصفات الإنسان الأمثل أو النموذج الأصوب وهو بهذا المعنى إنسان وأحد فرد في كلّ زمان يصلح الله به فساد المفسدين من جنسه، ويمكن أن يتبعه آخرون على درجات متفاوتة من صلاحه ورغبته في التعمير بشكل إنساني يؤدّي الأمانة التي استخلفه الله عليها

وعليه:

⁸ آل عمران، 68

⁹ الحج 15

فدو الكفل فاعل الخيرات الحسان وهو الذي أوكل أمره إلى الله الوكيل الدائم، ومن هنا كان ذو الكفيل وكيلا لمن لحقته مظلمة، سواء أكان من الأنبياء الذين تعرّضوا للقتل لولا تدخل ذو الكفل وكفالة حمايتهم وحفظهم، أم أنّهم من غيره، ولهذا فالوكيل هو من يتولى الأمر سواء أكان موكّلا به أم أنّه عند الضرورة وإنقاذ أرواح يتولّى هذا الأمر وكيلا من نفسه، ولهذا فالوكالة في مجملها في طاعة الله هي شرعية. أي أنّ الوكالة ضمان متعارف عليه يمكن أن يوثق عقدا وشهودا، ويمكن أن يكون وفقا لقاعدة التورث في الدين الإسلامي حيث الأخ الأكبر يصبح وكيلا لبقية أخوته الذين لم يبلغوا ويدركون ما يجب ويقفون دونه وما لا يجب وينتهون عنه.

ولذا فالوكالة قيمة حميدة تتكوّن بدايةً بحسن التّوايا، وتنتهي بالتّسامح بين الوكيل ومن كان وكيلا عليهم، حتّى لا يبقى ما يؤثّر سلبا في النّفس، حيث لا كمال إلّا لله تعالى.

فالوكالة تفويض عن إرادة عندما يكون الموكل عاقلا ناضجا عارفا بمبررات التوكيل، ومع ذلك يتحمّل ما قد يحدث من دائرة غير المتوقّع، ولكن يظلّ القانون والشرائع والأعراف مصدر للأحكام التي يمكن أن يحتكم إليها ويحتكم بها، وقد تكون الوكالة ليس عن إرادة ولا حتّى عن دراية، بل لأسباب القصور يجد المكفول مكفولا من قبل من هو حريص عليه وعلى سلامة ما ورثه من والديه أو ممن له الحقّ في أخذ نصيب من ثروتهم وراثته.

وهنا فالوكالة قيمة حميدة وهي ضرورة عند الحاجة لأسباب القصور أو لأسباب ظروف قاهرة؛ فانعدام المقدرة يستوجب وكيلا سواء عند صغر السنّ أو عند فقدان المدركات العقلية التمييزية

بأسباب الشيخوخة أو المرض، ولذا فالوكالة تتطلب ضمنا مكتوب،
وضامنا قادر على سلامة الوكالة وفقا لما كتب.

إذن الوكالة عبء ومسؤولية على عاتق من قَبِل أن يكون وكيلا
على ما وُكِّل عليه، وفَوْضَ بشأنه تفويضا صريحا موثقا؛ فالوكالة
يمكن أن تكون تفويضا بخصوص الحفظ، حفظ ما وُكِّل عليه
الإنسان إلى حين يأتي انتهاء زمن التوكيل في الزمن المستقبل، أو
تفويض تصرف فيما تتم الوكالة بشأنه استثمارا حرا يجعله في دائرة
الممكن معرّضا لما هو متوقع ولما هو غير متوقع.

إذن للوكالة معطيات منها:

. الموكل.

. الوكيل.

. شيء يستوجب الوكالة.

. عقد يوثق به موضوع الوكالة.

وهنا فالوكيل هو "المتولي لتدبير خلقه، بعلمه، وكمال قدرته،
وشمول حكمته. الذي تولى أوليائه، فيسّرهم ليسرى، وجنبهم
العسرى وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلا كفاه"10، فنعم الوكيل
الكفيل بنا وبأرزاقنا؛ فهو الذي تُولى الأمور إليه وهو الولي الكريم،
ولذا فالتاس المؤمنون الكرام إذا مسّهم ضرٌّ من البعض خدعة
وضلالا وتآمرا ليس لهم بداٌ إلا أن يولوا أمرهم إلى الوكيل المطلق؛
فهو نعم الوكيل مصداقا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ
مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ

¹⁰ شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 88.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {11} ؛ فالمتوكِّل على الله هو الذي يعلم أنَّ الله كافِلٌ رزقه وأمَّره فيركن إليه وحده ولا يتوكَّل على غيره.

والوكيل المطلق رحيم بمن وكَّل أمره إليه تعالى؛ فليجمع النَّاس ليرهبوا المتوكِّل على الوكيل، وما على المتوكِّل على الوكيل المطلق إلا أن يقول: "حسي الله ونعم الوكيل" نعم أنا المتوكِّل عليه، الآخذ بأسبابه، المنتصر باعتمادي عليه، لا يخيفني جموع أهل الباطل من مفسدين حاقدين، ولا يرعبني عددهم؛ فعددهم بدد، وجند ربِّي لي مدد {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا} 12.

لقد كان ذو الكفل صلَّى الله عليه وسلَّم نبي صادق وصدِّيق صابر اصطفاه الله للنبا العظيم الذي يهدي قومه للتي هي أحسن مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ} 13؛ فقوله (وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) تدل على أن معاناة كبيرة قد تعرَّض لها ذا الكفل من قومه، ومع ذلك تحمَّل كل ما لحقَّ به منهم وصبر عليهم من أجل أن يكون فيهم نبيا مرشدا للحقِّ بالحقِّ حتى يصح الغافلون من غفلتهم التي أضلَّتْهم عن اتباع السبيل الحقِّ.

فكان ذو الكفل في قومه رحمة، ذلك لأنَّه كان من المدخلين في رحمة الله الواسعة (وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا)، والإدخال في رحمة الله على مفاهيم عظيمة؛ فمن رحمته الواسعة إظهار ذو الكفل على معجزات وآيات من آيات الخالق

¹¹ آل عمران 172، 173.

¹² -الفتح 7.

¹³ الأنبياء 85، 86.

مكنته من علم اليقين من خلال إظهاره على تلك المعجزات والآيات العظيمة.

ومن رحمته الواسعة أنه كان مصطفى اصطفاً مباركاً ليكون رسولا بالحق على الحق الذي لا يدركه إلا المؤمنون المصدقون الذين أظهرهم الله على اليقين العظيم.

ومن رحمته أنه هادي للتي هي أحسن مما جعله خليفة من الوارثين في الدارين.

ولأنّ ذا الكفل نبي كريم وصديق عظيم؛ فهو دون شك أنه من الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (وَذَا الْكِفْلِ كُلُّ مَنْ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

فقوله تعالى: (مِنَ الصَّالِحِينَ)، يدلّ على أن ذا الكفل كان الصلاح في خلقه، ولهذا كان اجتنابه للنبا لأنه صالح له بالتمام، وهذا يدل أيضا على أن الصالح هو من لا نقص ولا عيب فيه، والكمال لله وحده.

وعليه؛ فإنّ الله قد أدخل ذا الكفل في رحمة الواسعة، ولهذا فهو المرحوم بها في الدارين، ذلك لأنّ الرحمة لا تكون إلا من الرحمن الذي قال: (وَذَا الْكِفْلِ كُلُّ مَنْ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا). إنّه الرحمن الذي جعل الرحمة في ذا الكفل عليه السلام، وهو الذي يدعى فيجيب رحمة، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ 14 بما أنكم تدعون الله أيها المؤمنون، فبأي اسم من أسمائه ادعوه، سواء دعوتهم الله تعالى أم دعوتهم الرحمن لا فرق في ذلك، فدعواؤكم لم يخرج عن أسمائه الحسنى.

14. الإسراء، 110.

وفي جميع الحالات أنتم تدعون الله. فلا تدعوا آخر من دونه. وهذا لا يعني وجود ازدواجية، بل يعني أن الله واحد لا يُثنى ولا يُجمع ولا يُعد بأي متوالية حسابية. نزلت هذه الآية الكريمة حسبما رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما بعد ما سمع بعض من المشركين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو رَبَّهُ بقوله (يا الله يا رحمن) فقالوا: "إنه ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إله آخر"15. وكما يبدو أنّ لضعف اللغة أثر سالب على معرفة الدلالة بالدعاء السابق، فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل في دعائه (يا الله ويا رحمن) بل قال (يا الله يا رحمن) فانعدام حرف الواو من دعاء رسول الله تأكيد لا يصاحبه الشكّ في أن المدعو هو واحد لا شريك له، ولأنّ الداعي يتضرع إلى رَبِّهِ بِالرَّحْمَةِ، فلا أفضل له إلا أن يدعوهُ بِالرَّحْمَنِ، ولهذا قال: (يا الله يا رحمن). وفي الدعاء الافتراضي جاء (يا الله ويا رحمن) وفي هذا الدعاء دخل حرف الواو الدال على إثبات وجود الآخر، الذي ورد في عقول أولئك المشركين وهو ما لم يقله الرسول في دعائه المبارك.

قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}16
جاءت (إلهكم إله واحد) مطلقة دالة على من يستحق أن يُعبد، وواحد تعني ليس له ثان، و(لا إله إلا هو) رد على من يظن بوجود آلهة أخرى من دونه، ولأجل التنبيه والتفطين من الغفلة جاء التأكيد بـ(لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ولهذا تدل (هو) على الله الذي (لا

15 . تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل. محمد أحمد كنعان، بيروت: دار لبنان

و دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1984م، ص 379.

16 لبقرة، 163.

إله إلا هو) الذي (هو) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. وبذلك إثباتا لا فرق بين أن يُقال الله أو يُقال الرَّحْمَنُ فكلاهما واحد.

ولذا فالخليفة بدأ عمله في ممارسة شؤونه الحياتية باسم الله مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} 17 فما يود قوله سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: إنَّ ما نود القُدوم عليه معكم فيه الرَّحمة، وبالتالي لا مجال لكم في التَّأخير عمَّا من شأنه أن يجعل بيننا وبينكم رحمة، فاقبلوا ولا تتأخروا عن دخولكم ميادين المحبة والرَّحمة، ولهذا بدأ سليمان بعنونة رسالته باسمه تعالى (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ). فالرَّحْمَنُ اسمه تعالى الذي لا يثنى ولا يجمع وذلك لارتباطه بالوحدانية وعدم المشاركة، ولذا لو لم يكن الله رحمن ما كان رحيم. فالرَّحْمَنُ شاملة جامعة لكل رحمة، ولهذا فالله تعالى هو مصدر الرَّحمة، ومن وجوده استمدت الرَّحمة أو اشتقت، فالله سابق الوجود على كل موجود، ولأنَّ الرَّحمة من الموجودات (المخلوقات) لذا كان الرَّحْمَنُ سابق عليها وكانت هي مترتبة على وجوده.

وعليه لا يمكن أن يشتق الخالق ممَّا خَلَقَ، ولكن كلَّ شيء يشتق من خالقه. ولأنَّ البشر كغيرهم من ورائهم خالق، ولأنَّ المخلوق وفقا للقاعدة يشتق صفته من خالقه، لذا يستخلف البشر خالقهم بالرَّحمة. فالرَّحمة صفة التمام بين المحبين، ولهذا فهي خاصية إنسانية تميِّز بها البشر عن غيره من المخلوقات الأخرى. ومن يكتسي بالرَّحمة يُخلف الرَّحْمَنُ في شيء من خواص الرَّحمة، ومن لا يُخلفه يفقد هذه الخاصية التي بفقدانها لا يتمكن من أن يكون خليفة.

17. النمل، 30، 31.

والفرق كبير بين الخليفة الكم، والخليفة الكيف: الخليفة الكم: كلّ من حُلِق فهو خليفة عددا. وكلّ من آمن بما أنزل الرّحمن فهو الخليفة قيميا. ومن هنا يتضح الفرق في المعنى بين الكافر الذي له الحقّ في الرّحمة في هذه الدار الدنيا، وبين الخليفة الذي له الحقّ في الرّحمة باستخلاف الدارين معا.

ولأنّ ذا الكفل من الصابرين فهو من القادرين، حيث لا صبر إلا لقادر عليه، ولذا كان ذو الكفل صابرا وقادرا على تحمّل الأعباء وما ترتب عليها في سبيل النّبأ العظيم الذي أنبي به من المنبئ الأعظم الله جلّ جلاله.

إذا الصابر هو القادر على حمّل المسؤوليات الجسام دون كلل ولا ملل، وعندما يوفّق في حملها يوصف بأنه قدير وجدير بما حمّل أو حمّل به في سبيل غايات عظام كرسالة أو نبأ عظيم كما هو حال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم.

ولأنّ القدير المطلق هو الله عزّ وجلّ فكل قدرة لا تستمد إلا منه، أي لو لم تكن له هذه الصفة ما كانت لنا القدرة التي نحن عليها.

ولأنّ القدرة على مستوى المخلوق مهما عظمت فهي لا تخرج عن دائرة النسبية، لذا لا يمكن أن يكون الإنسان مهما عظم قديرا بالمطلق وذلك لأنّ القدير قوته تغالب أي قوّة ولو اجتمعت، ولهذا هو القدير جلّ جلاله.

ولأنّ القدير فهو إذا أراد شيئا يقول له (كن) فيكون ولهذا قدرته دائما متحقّقة بالقوّة، أمّا الإنسان فله الأمانى غير المتحقّقة بالقدرة البشرية في بعض الأحيان، ولهذا ليس كل ما يتمناه الإنسان هو

قابل لأن يتحقق خاصة إذا جاء في غير طاعة الله مصداقا لقوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 18.

إذا الخالق تعالى هو القدير الذي يقول للشيء كن فيكون، أمّا قدرة ذو الكفل التي بها كان صابرا لا مُطلقية فيها إلا مطلقه أمر الله الذي هو الحقّ فمن عمل عليه عمل على تحقيق المطلقة وهذا دور الأنبياء والرّسل والصالحين والصدّيقين والمؤمنين حقّا الذي يسعون إلى إحقاق الحقّ كما يشاءه الله ومع ذلك قدراتهم وصبرهم وإن عظم لن يبلغ المطلقة.

ولهذا؛ فأمر المخلوق في دائرة الأمانى بين متوقّع وغير متوقّع ومهما كبر حجم هذه الدائرة فهي دائرة محصورة بداية ونهاية أي أن أمرها لم يكن مطلقا، ولهذا ليس كل شيء سيكون قابلا لأن يتحقّق وإن صبرنا في الزّمن الآن أي انه بالصّبر سيتحقّق، ولكن ليس دائما يتحقّق في الزّمن الآن، لو كان كذلك لتحقّق كل شيء في زمن الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم، ولو كانت الأمانى تحقّق كل شيء لتحققت أمانى أهل الكتاب الذين ودّ كثيرا منهم أن يردوا المسلمين حسدا عن دينهم كُفّارا؛ فهؤلاء ومن هم على أمثالهم في كل عصر إن لم يستغفروا ويتوبوا لله تعالى سينالون أشدّ العذاب ولذا فإن القدير سبحانه وتعالى على كل شيء قديرا، قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ

18 البقرة 109.

أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {19}.

ولأنّ القدير على كل شيء قدير جعل الخيرات محصية بما لا تُحصى به، أي جعل الخيرات على الكثرة التي لا تُحصى من مخلوق مع أنّها المحصية لديه قال تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} {20}، ولأنّ الخيرات متعددة ومتنوعة فعملها ممكنا من العباد طاعة لله تعالى، ولهذا التنوع والتعدد من العلامات الموجبة لترسيخ الفضائل والقيم ولكن علينا بالصبر كما كان ذو الكفل صابرا من اجل أن يُحقّق الحقّ، قال تعالى: {وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {21}، إذا المهم هو عبادة الله واحدا أحدا، والمهم الإكثار من عمل الخيرات ولكن تولية الوجوه ليست هي الغاية بل الغاية لمن تولى الوجوه، فإن كانت مولاة للواحد الأحد فإن توليتها أينما تكون هي على الصواب، وإن كانت مولاة لمن هم دونه كفرا وشركا فهي على الباطل.

ولأنّ الخالق القدير هو الصبور خلق كلّ شيء كما شاءه دون عجلة ولا تسرّع مع أنّه خلق كل شيء بالأمر (كن) لذلك وجبت على كلّ مخلوق طاعته وعبادته والتسبيح بحمده جلّ جلاله، فعلى المستوى البشري من يعمل لك خيرا محدودا تشكره وتراه جميلا رائعا يستوجب منك التقدير والاعتراف فما بالك بالذي خلقك خلقا

¹⁹ البقرة 109.

²⁰ مريم 93 . 95.

²¹ البقرة 148.

آلا يستحقّ الإيمان والطاعة والإتباع في كل أمر ونهي، ثم آلا تعترف للذي خلق الشيء وخلق منه الأشياء وخلقك من أشياءه وهو المسيطر والمهيمن على كل شيء بأنه الملك القدير جلّ جلاله.

وعليه: فالذين يؤمنون بالقدير جلّ جلاله هم الصابرون حقًا وهم الذين لا يقنطون من رحمته الواسعة فهو على كل شيء قدير، ولذا فهم صابرون على الإيمان دون قنوط ولا يأس ولذا فهم سينتصرون بما أنهم على الحقّ وبالحقّ يعملون ومن اجل إحقاقه جادون إلى أن يعم السّلام في الأرض ويكون النّاس كافة أخوة متحابين.

ولأنّ القادر جلّ جلاله فمن جعله القدير القادر عقيما بالمطلق فعليه بأن يقبل ويصبر ويعلم أن الله في أمره شؤون فليتقي الله ربّه ولا يظلم أحدا، وأن يحمّد ربّه على ذلك الذي لو شاء لجعله شيئا آخر أو جعله على حال آخر قد لا يكون على أحسن حال فالحمد لله ربّ العالمين على حُسن خلقه وتقديره لكل شيء تقديرا.

ولأنّ المؤمن لا يقنط من رحمة الله الواسعة فلا يستعجل بإصدار الأحكام فما يقلقك اليوم قد لا يقلقك غدا وقد يسعدك كثير من بعد غدٍ، ولذلك فلا تقنط ولا تستعجل وكن من الصابرين كما كان ذو الكفل من الصابرين.

ولأنّ الصابر هو غير المستعجل وهو من ينظر إلى الأمور من زويا التوافق الزمني مع التوافق المكاني مع مراعاة الظروف الخاصة بالأحوال والآمال فإن الصبور من هو أكثر صبرا والصابر هو من يؤمن بمشيئة الله وقدره ويرضى بها ويعمل كل ما من شأنه أن يحقّق له الرضا في مرضاة الله دون كلل ولا ملل.

وعليه فالبارئ قد براء أنبيائهم من كل ما نعتوا به بغير حق، وهذا النبي ذو الكفل مبرء من الباري الأعظم جلّ جلاله، ولذلك فصفة الباري تحتوي في مضمونها البراءة من الشريك والصاحبة والولد، وهو الخالق الذي لا يُخلق. وهو الذي تعود له أفعال الخلق الكاملة مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } 22.

والبريء من قضي براءته من التهم. والبارئ من لا تلحقه التهم، وليس بناقص. ولذا فإنّ البارئ المطلق هو الذي لا تلحقه التهم بالمطلق وليس بناقص، والبارئ بالإضافة هو أيضا لا تلحقه التهم وإن زُمي بها، ولكن ليس بكامل، فالكمال خاصية الخالق التي لا يصلها المخلوق.

ولأنّ البراءة من الذنوب والآثام طهارة للنفس، فإن من يرمي أحدا بخطيئة لم يرتكبها فقد احتمل بهتاناً مبيناً مصداقا لقوله تعالى { وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا } 23.

ولهذا فإنّ ذو الكفل من الخيرين، والخير من الخلق هو من يرك الناس المحتاجين بما يشبع حاجاتهم أو يسهم في إشباعها، أو بما يرشدهم للتي هي أحسن وأقوم، قال تعالى: { وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ } 24، والأخيار هم المتميزون بما ميّزهم

²² الانفطار، 6. 8.

²³ النساء، 111، 112.

²⁴ ص 48.

الله به عن الغير فأعطاهم ما لم يعط الآخرين نبأ وحكمة وبيّنة
وهداهم إلى هداية الناس.

والخيرّ بالإضافة هو من يوجّه قوّته في خدمة الآخرين حتى
يكونوا على القوّة التي من أجلها خلق في أحسن تقويم وبها يُحقّق
الحقّ ويُدمغ الباطل حتى يزهد.

والخيرّ هو من يكون قادرا على قول الحقّ وفعل الحقّ وغير متردد
في ذلك وفي أي مكان وزمان وجد فيه.

والخير هو من يعلم أنّ ما يملكه من ملك هو من ملكه الواسع
جلّ جلاله؛ فلا يطغى ولا يظلم الناس أشياءهم.

والخيرّ هو من يعلم أنه لا سلطان إلا سلطانه؛ فلا يهيمن على
الناس بما يملكه من سلطان، بل عليه أن يجعلهم على المودة أخوة
متحابين.

والخيرّ هو من يؤمن بأنّه لا مطلّقية للعرش غير عرش الله تعالى
فلا يكفر ولا يشرك ولا يضلّ ويطغى، بل عليه أن يتقي الله فيما
يولى عليه من عرش، وأن يجعل الناس على بساط العدل والمساواة في
مرضاة الله تعالى ذو العرش العظيم.

والخيرّ هو من يستمع للناس ويُسمعهم الحقّ وبيّنه لهم حتى
يهتدوا إلى سواء السبيل. وهذه الصفات الحسان كلّها قد توافرت في
النبي ذا الكفل عليه الصّلاة والسّلام. والحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

ذو الكفل

من وحي القرآن

ذو الكفل نبي كريم من أنبياء الله صلّى الله عليهم وسلّم الذين جعلهم الله رحمة للعباد بما جاءوا به من أنباء عظيمة ورسالات خالدة فتحت آفاق الحقّ لتوحيد الحقّ دون شرك ولا كفر هداية لما يجب أن يُتَّبَع ويَطَاع ويؤخذ بنهيه.

لقد بُعث ذو الكفل نبيا هاديا لقومه إلى الحقّ الذي يُخرج النَّاس من الضلال إلى الهداية، ومن الفساد إلى الإصلاح، ومن الاتكال على أرباب مختلفة إلى الاتكال على ربّ واحد لا شريك له في الملك والأمر، وكل الأمر بيده فإن أراد شيء يقول له (كن) مصداقا لقوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 25.

لقد كان ذو الكفل صلّى الله عليه وسلّم نبي صادق وصديق صابر اصطفاه الله للنبا العظيم الذي يهدي قومه للتي هي أحسن مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ} 26؛ فقوله (وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) تدل على أنّ معاناة كبيرة قد تعرّض لها ذا الكفل من قومه، ومع ذلك تحمّل كل ما لحقّ به منهم وصبر عليهم من أجل أن يكون فيهم نبيا مرشدا للحقّ بالحقّ حتى يصح الغافلون من غفلتهم التي أضلّتهم عن اتباع السبيل الحقّ.

²⁵ البقرة 117.

²⁶ الأنبياء 85، 86.

فكان ذو الكفل في قومه رحمة، ذلك لأنه كان من المدخلين في رحمة الله الواسعة (وَذَا الْكِفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَادْخُلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا)، والإدخال في رحمة الله على مفاهيم عظيمة؛ فمن رحمته الواسعة إظهار ذو الكفل على معجزات وآيات من آيات الخالق مكنته من علم اليقين من خلال إظهاره على تلك المعجزات والآيات العظيمة.

ومن رحمته الواسعة أنه كان مصطفى اصطفاً مباركا ليكون رسولا بالحق على الحق الذي لا يدركه إلا المؤمنون المصدقون الذين أظهرهم الله على اليقين العظيم.

ومن رحمته أنه هادي للتي هي أحسن مما جعله خليفة من الوارثين في الدارين.

ولأنّ ذا الكفل نبي كريم وصديق عظيم؛ فهو دون شك أنه من الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (وَذَا الْكِفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَادْخُلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

فقوله تعالى: (مِنَ الصَّالِحِينَ)، يدلّ على أن ذا الكفل كان الصالح في خلقه، ولهذا كان اجتنابه للنبا لأنه صالح له بالتمام، وهذا يدل أيضا على أن الصالح هو من لا نقص ولا عيب فيه، والكمال لله وحده.

وعليه؛ فإنّ الله قد أدخل ذا الكفل في رحمة الواسعة، ولهذا فهو المرحوم بها في الدارين، ذلك لأنّ الرحمة لا تكون إلا من الرحمن الذي قال: (وَذَا الْكِفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَادْخُلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا). إنه الرحمن الذي جعل الرحمة في ذا الكفل عليه السلام، وهو الذي يدعى فيجيب رحمة، قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ

أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى {27} بما أتاكم تدعون الله أيها المؤمنون، فبأي اسم من أسمائه ادعوه، سواء دعوتهم الله تعالى أم دعوتهم الرحمن لا فرق في ذلك، فدعواؤكم لم يخرج عن أسمائه الحسنى. وفي جميع الحالات أنتم تدعون الله. فلا تدعوا آخر من دونه. وهذا لا يعني وجود ازدواجية، بل يعني أن الله واحد لا يُثنى ولا يُجمع ولا يُعد بأي متوالية حسابية. نزلت هذه الآية الكريمة حسبما رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما بعد ما سمع بعض من المشركين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ربه بقوله (يا الله يا رحمن) فقالوا: "إنه ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إله آخر"28. وكما يبدو أنّ لضعف اللغة أثر سالب على معرفة الدلالة بالدعاء السابق، فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل في دعائه (يا الله ويا الرحمن) بل قال (يا الله يا رحمن) فانعدام حرف الواو من دعاء رسول الله تأكيد لا يصاحبه الشكّ في أن المدعو هو واحد لا شريك له، ولأنّ الداعي يتضرع إلى ربه بالرحمة، فلا أفضل له إلا أن يدعوه بالرحمن، ولهذا قال: (يا الله يا رحمن). وفي الدعاء الافتراضي جاء (يا الله ويا الرحمن) وفي هذا الدعاء دخل حرف الواو الدال على إثبات وجود الآخر، الذي ورد في عقول أولئك المشركين وهو ما لم يقله الرسول في دعائه المبارك.

ولهذا جاء قوله تعالى: {وَالْهَيْكُلُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}29 جاءت (إلهكم إله واحد) مطلقة دالة على من يستحقّ أن يُعبد، وواحد تعني ليس له ثان، و(لا إله إلا هو) رد على من

27. الإسراء، 110.

28. تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل. محمد أحمد كنعان، بيروت: دار لبنان

و دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1984م، ص 379.

29. البقرة، 163.

يظن بوجود آلهة أخرى من دونه، ولأجل التنبيه والتفطين من الغفلة جاء التأكيد بـ(لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ولهذا تدل (هو) على الله الذي (لا إله إلا هو) الذي (هو) الرحمن الرحيم. وبذلك إثباتا لا فرق بين أن يُقال الله أو يُقال الرحمن فكلاهما واحد.

ولذا فالخليفة بدأ عمله في ممارسة شؤونه الحياتية باسم الله مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} 30 فما يود قوله سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: إنَّ ما نود القُدوم عليه معكم فيه الرَّحمة، وبالتالي لا مجال لكم في التأخير عمَّا من شأنه أن يجعل بيننا وبينكم رحمة، فاقبلوا ولا تتأخروا عن دخولكم ميادين المحبة والرَّحمة، ولهذا بدأ سليمان بعنونة رسالته باسمه تعالى (الرحمن الرحيم). فالرحمن اسمه تعالى الذي لا يثنى ولا يجمع وذلك لارتباطه بالوحدانية وعدم المشاركة، ولذا لو لم يكن الله رحمن ما كان رحيم. فالرحمن شاملة جامعة لكل رحمة، ولهذا فالله تعالى هو مصدر الرَّحمة، ومن وجوده استمدت الرَّحمة أو اشتقت، فالله سابق الوجود على كل موجود، ولأن الرَّحمة من الموجودات (المخلوقات) لذا كان الرحمن سابق عليها وكانت هي مترتبة على وجوده.

وعليه لا يمكن أن يشتق الخالق ممَّا خَلَقَ، ولكن كل شيء يشتق من خالقه. ولأنَّ البشر كغيرهم من ورائهم خالق، ولأنَّ المخلوق وفقا للقاعدة يشتق صفته من خالقه، لذا يستخلف البشر خالقهم بالرَّحمة. فالرَّحمة صفة التمام بين المحبين، ولهذا فهي خاصية إنسانية تميِّز بها البشر عن غيره من المخلوقات الأخرى. ومن يكتسي بالرَّحمة يُخلف الرحمن في شيء من خواص الرَّحمة، ومن لا يُخلفه يفقد هذه الخاصية التي بفقدانها لا يتمكن من أن يكون خليفة.

³⁰. النمل، 30، 31.

والفرق كبير بين الخليفة الكم، والخليفة الكيف: الخليفة الكم: كلّ من حُلِقَ فهو خليفة عددا. وكلّ من آمن بما أنزل الرّحمن فهو الخليفة قيميا. ومن هنا يتضح الفرق في المعنى بين الكافر الذي له الحقّ في الرّحمة في هذه الدار الدنيا، وبين الخليفة الذي له الحقّ في الرّحمة باستخلاف الدارين معا.

فالخليفة هو من يستمد صفاته من مستخلفه، ولأن الرّحمن هو الخالق، فالمخلوق ينبغي أن تكون الرّحمة من صفاته وخاصيته فهو في أساسه مخلوق عليها، وهكذا كلما تمسّك الموصوف بصفته ارتبطت صفته به، وكلما تخلّى عنها انسلخت منه.

ولأنّ الرّحمن تعالى خاصيته المطلقة هي الرّحمة المتضمنة في اسمه، وجنس آدم مستخلف ممن له الخاصية المطلقة (الرّحمة) كما يدل على ذلك قوله تعالى: {الرّحمن عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ} 31، تتجلى في هذه الآيات دلائل عظيمة فُصد بها الخليفة ليتأمل ويعرف عن ربّه الذي استخلفه في الأرض فيعمل بما يريد وينتهي عما نهي، ومن هذه الدلائل تقديم اسم الرّحمن في السورة، وعلى الخليفة أن يعي أن الله سبحانه جعل للرحمة مرتبة عظيمة فسمى نفسه باسم الرّحمن وهو الاسم الذي خص به ذاته في استدعاء الدعاء بعد اسمه الأعظم (الله) فقال: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} 32، هذه الآية توضح للخليفة أن كل أمر لله هو رحمة منه بالمخلوقات وبالمطلق، هنا تتجلى الدلالة العظيمة الأخرى فخلق الإنسان وتعليمه أمّا هي من وجوه رحمة الله به وليس لأمر آخر، فليتصور من يشاء لو أن الإنسان لم يُخلق هل ستكون الجنة

³¹ الرّحمن 1-3.

³² الإسراء 110.

مأوى خلود له؟ هذه الرّحمة المطلقة أن يُخلق لتكون له الجنّة مأوى. ثم ليتساءلوا بينهم لو لم يعرف الإنسان هذا القران العظيم فهل له أن يعرف طريقا إلى الجنّة؟ هنا ليفهم الخليفة ويعمل بما فهم فليجعل الرّحمة شعاره ودثاره، والطريق إلى تحقّق الاستخلاف الحقّ متذكرا قول الرّحمن جلّ في علاه لنبينا الأكرم: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 33.

ثمّ من عظيم الدلائل أن نعرف أن الرّحمن اسم الله والرّحمة صفته المتضمنة فيه إلى جانب صفات أخرى، فالرّحمن عليم علّم الإنسان ما لم يعلم، والرّحمن خالق فهو الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وعليه وكما تنص الآية الكريمة فالاسم يتضمن صفة أساسية (رحمن) ويتسع لصفات أخرى (عليم وخالق).

ومن دلائل الآية أنّ الرّحمة صفة مطلقة لأنّها من الرّحمن المطلق واليك بعضا من دلائل هذا الإطلاق:

1- النبوة رحمة، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} 34، فرحمة دلالة عموم وهي مجهولة بالنسبة لمفرد اللفظ لكن سياق الآية يدل عليها إنّها النبوة التي رحم الله بها عباده، فقد كان عليه الصلّاة والسّلام رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلأنه عليه السّلام بعث والنّاس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمّدا صلّى الله عليه وسلّم حين لم يكن لطالب

³³ آل عمران 159.

³⁴ الأنبياء 107.

الحقّ سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحقّ وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام،....، وأما في الدنيا فلاّهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه³⁵.

2- الرزق رحمة، { وَإِذَا أَدُقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضِرَاءِ مَسْتَهُمْ }³⁶، فرحمة هنا تدل على عموم الخير من مال أو ولد أو صحة أو جاه أو غير ذلك من مطلق الخير.

3- التثبيت على الدين رحمة، { وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا }³⁷.

4- الهداية رحمة { رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً }³⁸ "أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء"³⁹.

5- الحفظ رحمة { وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا }⁴⁰.

³⁵ تفسير الرازي ج 11، ص 80.

³⁶ يونس 21.

³⁷ الإسراء 86-87.

³⁸ الكهف 10.

³⁹ تفسير الالوسي ج 10 ص 162.

⁴⁰ الكهف 82.

6- القوّة رحمة، { قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا } 41.

7- قوانين الأرض رحمة، { وَأَيُّهُ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ } 42.

8- النجاة رحمة، { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } 43.

وهذا قليل من مطلق لا يمكن لبشر أن يحصيه ويعطيه حقه وإن أفاض ولكنها بعض مما شاء الله له أن يظهر رحمة منه بمن أراد له أن يعرف فيعلم ثم يعمل، اللهم اجعلنا ممن يعرفون فيعلمون ثم يسر لهم العمل بما تحب وترضى يا رحمن.

لذا فالخليفة يحمل في مكوناته شيء من خصائص من استخلفه. ولأن الرحمة كما بينا خاصية مطلقة وثابتة للرحمن، لذا فهي لن تكون خاصية مطلقة وثابتة للخليفة، ولهذا فهي في حالة اهتزاز بين الثبات النسبي والاهتزاز النسبي. مما يجعل البعض في سلوكهم الرحمة والبعض في سلوكهم يفتقدونها. فالذين لا يحكمون بالعدل، ويأكلون أموال الناس بينهم بالباطل، ولا يتطهرون ولا يتصدقون ويتزكون، ولا يتوادون مع من تربطهم بهم صلة رحم، ولا يناصرون المظلوم ولا يقدمون على أعمال البر والخير والإحسان فهؤلاء يعتبرون منحرفين عن القيم والفضائل التي بها يُستخلفون في

41 الكهف 98.

42 يس 44.

43 هود 58.

الأرض. وهذا الأمر يجعلهم من تعداد الخليفة الكم، وليس من تعداد الخليفة الكيف (القيم والفضائل الإنسانية).

الرَّحْمَةُ لا يمكن أن تتم إلا بوجود طرفين، طرف يمتلك مسببات الرَّحْمَةِ، وطرف في حاجة ماسة لهذه المسببات التي تطعمه من جوع وتأمنه من خوف {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَهُمْ مِنْ حَوْفٍ} 44 الطرفان هما خالق ومخلوق، فالرَّحْمَةُ من الذي يمتلكها؟ (الرَّحْمَن). والذي هو في حاجة إليها (الخليفة). ولأنَّ الخليفة استمد خاصية الرَّحْمَةِ من خالقه الرَّحْمَن، ولأنَّ الخلقَ بينهم فروق فردية من حيث القدرات والاستعدادات والإمكانات والمستوى الإيماني، لذا فهم يتراتبون على السلم القيمي للرَّحْمَةِ من حيث درجات الاقتراب والابتعاد عن (الرَّحْمَن) قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 45 فعمل الخير رحمة مطلقة من الله بين النَّاسِ، وعمل الشر لا مطلقة فيه بينهم. لذا تتوزع الرَّحْمَةُ بين النَّاسِ تناسبيا وبتماثل مع ما يُقدِّم من أفعال الخير كبيرة كانت أم صغيرة، ما يجعل لها أثر موجب على كفة التماثل في ميزان الحسنات. ولهذا بنو الإنسان (الخليفة) في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم لم يكونوا على حالة من المساواة على السلم القيمي للرحمة. ممَّا يجعلهم على درجات من التفاوت من حيث الاقتراب والابتعاد من الرَّحْمَن عَزَّ وَجَلَّ.

ولأنَّ الخليفة يتعرض في حياته لظروف قد تجعله في حاجة لمن يُقدِّم له المساعدة، نتيجة عوزه وفقره وبما هو عليه من ظروف، أو نتيجة لما ألم به من كوارث، حتى يتمكن من النهوض ومن مغالبة

44 قريش، 4.

45. الزلزلة، 7، 8.

الصعاب. وفي المقابل هناك من تهيأت له الظروف حتى أصبح قادر على العيش السعيد وقادر على مد يد العون للمحتاجين بدون منة، ما يجعله على الكفة التي تستطيع أن تُقدِّم المساعدة، في مقابل الطرف الذي يستلمها أو يأخذها. وهذه من دلائل الرَّحمة بين النَّاس.

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) جاءت سابقة على قوله (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وهذا الأمر يدل على أن الله تعالى يهب لنا الرَّحمة قيمة مطلقة في ذاتها، أما الشر فلم يكن كذلك فهو المترتب على ما تقدم أيادينا، ولهذا الرَّحمة المستمدة من اسمه (الرَّحمن) هي الصفة الفعلية السابقة في عمومها، والغضب هو الفعل اللاحق أو المترتب على ما تُقدم أيادينا ممَّا يجعل الغضب عقاب لنا على ما قَدِمنا عليه من أفعال غير مرضية للرحمن.

اسم الرَّحمن عزَّ وجلَّ هو اسم الله، ولذا لا يعد الرَّحمن اسم آخر لله تعالى، بل هو اسم الله في ذاته، ولهذا فهو الاسم الذي لا يُثنى ولا يُجمع، ورحمته شاملة تسع الخلق من انس وجان وملائكة وطائر وحيوان ونبات وجماد وماء وهواء والنَّار التي بواسع رحمته جعلها عزَّ وجلَّ بردا وسلاما على إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام. ولهذا الرَّحمة تعم كل شيء، وإلا لو لم تعم كل شيء ما كانت النَّار رحمة على إبراهيم وعقاب للكافرين، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 46 فكما للجنة أصحاب من المؤمنين، كذلك للنار أصحابها من الكافرين، والذين كفروا هم في أساس خلقهم خليفة ترث الأرض، ولكن انسحابهم عن قيم الخليفة وتخليهم عنها لن يجعل لهم مستقبل لنيل الجزاء الأوفر كما هو حال

46. البقرة، 39.

الذين استجابوا لله وللرسول. ولهذا لا يدخل النار إلا الذي لم يحافظ على فضائل ما استخلف عليه، ومن لا يحافظ عليها سيلاحقه الخزي حتى ينال العقاب بالحق (النار) مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} 47.

ولأنّ الرّحمن هو مصدر الرّحمة، لذا فهو الذي يستحقّ العبادة والشكر والثناء، فمن خلقك وجعلك خليفة على الأرض التي فيها معاشك وجميع النعم التي تُشبع حاجاتك المتعددة والمتطورة ألا يستحقّ العبادة، وإذا كان من يعمل لك خيرا تشكره كثيرا، فما بالك بالذي خلقك وجعل لك الرّحمة (الرزق والنعم)، ألا يكون هو الأولى بالشكر والثناء والعبادة؟ إنّ الشكر والعبادة صلة لا تنقطع بين الرّحمن وخليفته، فمن تمسّك بها تمسّك بالصلة، ومن تخلى عنها وقطعها انقطعت الصلة معه، وعندما تنقطع الصلة بمن يمدك بالخاصية والصفة تنعدم خاصيتك وصيفتك به، ولهذا عندما تنقطع صلة الخليفة بمن استخلفه يفقد صفته التي على أساسها استخلف في الأرض. ولذا لا يخلف الرّحمن إلا من آمن به واستمد منه صفة الرّحمة التي على أساسها خُلق على الأرض، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} 48 جاءت الخلافة على حالة الجمع (خلائف) وهذه تدل على خليفة سابقة وأخرى لاحقة، وهكذا تتوالى، (ورفع بعضهم فوق بعض درجات) فهو لم يخلقكم أيها الخلائف نسخة واحدة، بل خلقكم على حالات من الفروق الفردية، وبطبيعة الحال لو خُلق الرّحمن بني الإنسان نسخة واحدة لكان أمر الخلق أهون مصداقا

47. آل عمران، 192.

48. الأنعام، 165.

لقوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }⁴⁹، ولأنه هو مصدر الخلق والإعجاز، أراد لنا أن نكون غير متناسخين كورق السحب الذي يستخدم في الطباعة، ويريد لنا أن نعرف أنه القادر على كل شيء (الكل والجزء والمتجزئ من الدقيق إلى الأدق منه وإلى ما لا نهاية)، ولهذا لم يخلق الرحمن في خلقنا اثنين متماثلين ومتطابقين بالتمام حتى ولو كانا توأمين، بل جعلنا متكاملين في خلقه، فرفع بعضنا فوق بعض درجات (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) في هذا الأمر يقول الشيخ متولي الشعراوي رحمه الله: "أي أن البعض قد رُفِعَ، والبعض الآخر قد رُفِعَ عليه، فكل واحد مرفوع في جهة مواهبه، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه"50. ولو جعل الله تعالى البشر على نسخة واحدة، في هذه الحالة لا يحتاج أحدنا للآخر، ولو لم يحتج بعضنا لبعض، ما كنا في حاجة للتراحم بيننا، ولهذا من مبررات نزول الرحمة أنّ البعض دائما في حاجة للبعض. ولذا فإنّ الرحمة لا تنزل إلا بين طرفين، مالك ومحتاج، فالمالك هو الذي بيده الخير، والمحتاج هو الذي يفتقد إليه. والمالك المطلق هو الرحمن الرحيم، ومالك الجزء أو المتجزئ، هو الذي يمتلك شيء ويفتقد لأشياء، ولهذا مالك الجزء والمتجزئ مهما امتلك من أشياء فهو في حاجة لأشياء أخرى. كالطبيب يحتاجه المريض، وإذا مرض الطبيب هو الآخر سيكون في حاجة لطبيب غيره سواء في تخصصه أو في تخصص آخر، ولذا فإن المريض الواحد يحتاج إلى عدد كبير من الأطباء حيث تنوع الأمراض وتعددتها، وهكذا لو كان المريض صاحب حرفة فالطبيب هو الآخر في حاجة لخدماته الحرفية، فلو

⁴⁹ الروم 27.

⁵⁰. تفسير الشعراوي. المجلد السابع، القاهرة: أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص 0029.

كان حيّاكا أو بناء أو سائقا أو طبّاحا أو حارسا فالطبيب سيكون في حاجة ماسة لخدماته، وهكذا تتنوع المهن والحرف وتتعدد مثلما تتعدد المهارات والخبرات، ليتمم البعض إشباع حاجات البعض، حيث لا كمال للخليفة، بل الكمال لمن خلق الخليفة.

يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 51. الزَّبُور هو الكتاب الذي أنزل على داود عليه الصّلاة والسّلام، والذكر هو التوراة، (إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون) الصالحون هم الخلفاء دون غيرهم، فغيرهم هم الذين يعيشون عليها مادة، ولا يعيشون عليها قيمة وفضيلة فالخليفة هو الذي استمد الخلافة من الله تعالى. هو الذي يستمد جميع صفاته وخاصياته من القوّة التي تحتويها أسماء خالقه تعالى التي ستضح بعونه بإتمام هذا العمل الذي نأمل أن يكون فيه حجة لنا لا حجة علينا ونأمل أن يكون فيه خيرا.

ومع أنّ الرّحمن عزّ وجلّ خلق الإنسان من صفاته الكاملة، إلا انه لم يخلقه على صفات الكمال، فلو خلقه على حالة الكمال، فلم يعد المخلوق في حاجة لخالقه، وحينها يصبح للخالق شركاء، ولهذا خلّق الإنسان ضعيفا حتى يستمد الرّحمة من القوي تعالى. وباستمداده من الرّحمن رحمة يمتلك مقاليد القوّة التي تجعله على الأرض خليفة.

خلافة الأرض مسؤولية وأمانة، فمن يحافظ عليها حافظ على الأمانة، ومن لم يحافظ عليها يخونها، ولذا فالأمانة قيمة طيّبة، ومن يتصف بها يقال له أمين، ومن لا يتصف بها يقال له خائن، وهكذا

51. الأنبياء، 105.

حال الخلافة: فمن كان مؤتمن عليها وُصِفَ بالخليفة، ومن خانها فلا يعد من الذين يتصفون بها من شيء. يقول الله تعالى: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} 52 أي يجعلكم سادة فيها، ولأجل أن تكونوا سادة فاعملوا على مكانتكم، وإلا ستكونون عليها بدون مكانة، أي بدون قيمة تذكر، فالمكانة درجة من الرقي القيمي تجعل الإنسان في حالة هيبة حتى ينال الاعتراف والتقدير من الآخرين. {وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ} 53 فمكانة الذين لا يؤمنون هي البقاء في حياتهم على الكفر حتى بلوغ العذاب الأليم، ومكانة المؤمنين هي الرفعة في الحياة الدنيا والجنة في الحياة العظمى. ولذا فمن يكن على حالة الرفعة حتى بلوغ الجنة هو الذي يرث الأرض ولم يخن الأمانة (الخلافة) فينل الجزاء الأوفر.

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} 54 الأرض التي استخلفوا عليها يقدرونها كأمانة حق قدرها، فلا يعبثوا فيها فسادا، بل يحافظون عليها محافظة أمانة، ولأجل ذلك يمشون عليها هونا، برقة وأدب مع رفعة وتقدير للفضل الذي استخلفوا به. {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 55 الأمانة هي الخلافة التي ليس بالأمر الهين أن تتم المحافظة عليها، ولهذا لو عرف الإنسان عاقبة تقصيره كيف تكون، ما حمل الأمانة باعتبار أنه لم يخلق على الكمال، فالإنسان فيه من القصور ما يجعله دون المستوى الذي تتم به المحافظة على

52. النمل، 62.

53. هود، 121.

54. الفرقان، 63.

55. الأحزاب، 72.

الأمانة، ولهذا كان ظلوما جهولا. ولكن من يأتي الله بقلب سليم يجعله على حالة استثناء من قاعدة الجهولة مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 56 ولهذا فالأعمال بالنيات، فمن آمن بقلبه اهتدى، ومن لا يؤمن به فقد ضل {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} 57. ولهذا إذا قيل للكافرين {اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} 58 فكانت الإجابة بقوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} 59 في هذه الإجابة، قُدم تعلم القرآن على خلق الإنسان، لأنَّ المخاطب له ملكة التمييز التي بها يتبين الخطأ من الصواب، وبها يتبين ما يجب ويقدم عليه وما لا يجب ويتعد عنه، ولأن من يراد له أن يكون خليفة في الأرض وقع في الخطيئة، نتيجة الإغراءات والإقدام على ما نهى الله عنه، مع أن له عقل يُمكنه من التبيُّن قبل الإقدام على الفعل، ومع أنه حُدِّرَ إلا أنه عَفَلَ حتى غُرر به ووقع في الخطيئة. وحتى لا يتكرر مثل هذا الفعل، قُدم القرآن الذي فيه البيان الكامل والواضح لمن يريد أن يتبين ويميز بين الحلال والحرام والصواب والخطأ (ما يجب الإقدام عليه وما يجب الابتعاد عنه) حتى لا تتكرر الخطيئة. ولذا ينبغي على الخليفة أن يتبين أولا قبل أن يفعل أو يسلك ثانيا، ولهذا جاء (تعلم القرآن) مُقدِّما على (خلق الإنسان) لما يحتويه ويتضمنه من البيان المفصَّل حتى يتيسر للإنسان الذي

56 الشعراء، 89.

57 يونس 108.

58 الفرقان 60.

59 الرحمن 1. 4.

ورد لا حقًا في سورة الرَّحْمَنِ، أن يتعرف على ما يجب قبل أن يقدم على فعله.

بسورة الرَّحْمَنِ تتزین الأنفس وتتطهّر وإذا تبين الخليفة تمكّن من الوقوف على ما ورد فيها من إعجاز، يُطمئن القلوب المؤمنة، وينير البصر كما هو ينير البصيرة، ويرشد الخليفة لدروب الحياة الطاهرة، وإلى خشية الرَّحْمَنِ والخشوع له عزة. ولهذا كانت سورة الرَّحْمَنِ عروس القرآن كما روي عن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرَّحْمَنِ" 60.

قال الله جلّ جلاله: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا } 61 استغفر الله فالرَّحْمَنِ (لم يلد ولم يولد) ولهذا لم يكن له مثل بالمطلق. فلوا كان له ولد صدق من قال: { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } 62 بمعنى قل يا محمد صلى الله عليه وسلم، بدون تردد إن كان للرحمن ولد لكنت أنا أول العابدين لله على أنه لا ولد له، قلها لأنك تعرفني وتؤمن بما أنزلت، ولا تشرك بي، وقل بدون تردد: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } 63 ولذلك فمن أراد أن يؤمن فليؤمن ومن أراد أن يكفر فليكفر. { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 64. إذن لسان حال الخليفة في خلقه لسان توحيد، وما الخروج عنه إلا ابتعاد عن قول الحقّ وفعل الحقّ.

⁶⁰ القرطبي الجامع لأحكام القرآن. المجلد 17 دار الكتاب العربي ص 151.

⁶¹ مريم 88.

⁶² الزخرف 81، 82.

⁶³ الرعد 16.

⁶⁴ المائدة 73.

فلو كان لله ولد، لكان له بالضرورة والد، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 65. وعليه أتساءل: كيف يؤمن الكفرة بأن الله ليس له والد، ويؤمنون في الوقت ذاته بأن له ولد؟ فبطبيعة الحال بما أنه لا والد له. إذن لا يمكن أن يكون له ولد. وهذا الأمر يجعله يختلف عن أمر الخليفة الذي حُلق ليتكاثر حتى النهاية، على قاعدة والد وولد.

{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهِنَّ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ} 66 الأمة التي أنت فيها رسول هي خالفة لأمم سابقة عليها، وجاءت كلمة (كذلك) لتدل على أحوال الأمم السابقة التي هي الأخرى بعث الله فيها رسلاً وكفر البعض من كل أمة بهم، ولذا لا استغراب إن كفر بعض من قومك بالرحمن، لكن عليك أن تقول الرحمن ربّي لا إله إلا هو، وبلغ به وتوكل على ربك الذي هو مرجعك في كل حين. فإنّ تمسكك بالرحمن ربّاً واحداً يجعلك القدوة الحسنة لمن آمن بك رسول ورحمة، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} 67 أيها النبي الكريم في رسالتك البيان، والحنان فيك قدوة، يا محمد أنت رحمة، وبشائر للعباد، خاتم الأنبياء أنت، واحد ربّ العباد، في الشهادة، والصلاة لا إله إلا هو، والخليفة في ازدياد، جئنا بالحقّ رحمة والسلام، فصحونا بعد غفلة، وصدقناك الكلام، لا إله إلا أنت يا رحيمًا في البداية والختام. ورسولا يا محمد أنت رحمة للأنام.

65 الإخلاص 1. 4.

66 الرعد 30.

67. الأنبياء 107.

ولأنَّ مُحَمَّدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ مصداقا لقوله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} 68 لا استثناء لأحد من رحمة الله، إلا الذي يستثني نفسه منها بمعصية أمر الطاعة، فرحمته الواسعة في عمومها كرسالة مُحَمَّدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عمومها، ولذا كانت رسالته رحمة للعالمين. تستهدف النَّاسَ كافة بالرحمة، ولا تخص قوم أو مجتمع بذاته. فخليفة الله وحدة واحدة، ولهذا يستهدفها الله برحمته دون استثناء، {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} 69 النفخة هي الرحمة التي بها يخلف المخلوق مستخلفه، وهذه هي الرحمة، التي جعلت من بني آدم خلفاء على الأرض، فالنفخة هي انبعاث الحياة في النفس الإنسانية من الرحمن الرحيم. ولذا فمن استمد روحه من روح الله، يخلفه بالثبات والبقاء على روح الله، وروح الله ليس هي الأنفاس التي فيها حركة الأوكسجين شهيقا وزفيرا، بل هي الانطباع بروح الله في صلة الرحم، لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإلتباع ما أمر به وللاتتهاء عما نهي عنه. ولعمارة الأرض.

فالإضافة في روحي للتشريف والتكريم، والروح جسم لطيف روحاني والدليل على ذلك قول الله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 70 في الآية أخبار بثلاثة أمور:

1- أخبار بتوفيتها.

68. الأعراف 156.

69. الحجر 29.

70 الزمر 42.

2- وإسّاكها.

3- وإرساها.

{ قَالَ اللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }⁷¹ بما أنّ الله تعالى هو خير حافظًا. إذن هناك حافظين غيره، إلا أنّهم قُصِّرَ عن التساوي معه في مستويات الحفظ ودرجاته. ولأنّه هو الرّحمن، والبشر الذين نفخ فيهم من روحه هم خلفاؤه في الأرض، فهم بطبيعة الحال في أساس خلقهم الرّحمة، ولكن لا يمكن أن يتساووا معه، بناء على القاعدة التي تقول (لا يمكن أن يستوي المخلوق مع خالقه) ولهذا قال تعالى: (ونفخت فيه من روحي) ولم يقل (نفخت فيه روحي) فلو قالها لكان الخليفة متماثل بالتمام مع مستخلفه وهذه تعترض مع قاعدة المخلوق والخالق من حيث انعدام التساوي أو حتى الاقتراب منه. فالرّحمن هو اسم الله العظيم، ولم يكن صفة له، بل الرّحمة صفة استمدت من اسم الرّحمن، والفرق كبير بين أن تكون الرّحمة صفة وبين أن تكون مستمدة من الأصل ومرتبطة عليه. فاسم الرّحمن مصدر لكل رحمة، ولو لم يكن للرحمة مكوّن ما كانت، أي لو لم يكن الرّحمن ما كانت الرّحمة صفة مفضلة بيننا. ولذا فالرّحمن هو بيت الرّحمة، وليس هو الرّحمة، ولهذا بعث الرّحمن لنا نحن بني الإنسان الأنبياء والرّسل رحمة. وجعل لنا الليل لنسكن فيه رحمة، وجعل لنا النهار معاشُ رحمة، وجعل لنا المحبّة والأرزاق والكثير من النعم التي لا تحصى رحمة. قال تعالى: {الرّحمن على العرشِ استوى}⁷² استوى على العرش بوسع رحمته، وتحكّم بسيطرة تامة على كل شيء خلقه، والحمد لله الذي استوى على العرش بالرّحمة

⁷¹. يوسف 64.

⁷². الرّحمن 5.

حتى عمّت كل شيء، ولأنها عمّت كل شيء، فكل شيء يُسبّح للرحمن. { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }⁷³ كل المخلوقات تسبح لله تعالى باللغة التي هي عليها، عرفانا بوسع رحمته التي عمّت كل شيء، ولهذا سبقت النعم وواسع الرعاية خلق الكائنات الحية، وإلا هل هناك من يعتقد أنّ خلق الكائنات كان سابقا على ما يُشبع حاجاتها المتعددة والمتنوعة؟ المأكّل والمشربّ والمأمن كانت وفرة تامة (الجنة) في الحياة الأولى بالنسبة للجنس البشري، ثم الأرض (الكنز المكوّر) الممتلئة في باطنها وعلى ظاهرها بمسببات الإشباع، وهذه جميعها رحمة. ولولا ذلك ما كُتبت الحياة للكائنات الحية، وإلى يومنا هذا ويوم غدٍ فمعظم الكائنات ما دون الإنسان ترتع فتشربّ وتأكّل وتنام تحت واسع رحمته بدون أن تُسهّم في إنتاج ما يُشبع حاجاتها، فلو لم يكن الماء سابق الوجود على من هو في حالة ظمئٍ ما شربّ وارتوى، وهكذا لو لم يكن الكأُ سابق على من به جوع ما أكل وشبع وكلها تُسبّح بحمد الرحمن الذي على العرش استوى، وفي ذلك يقول تعالى: { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا }⁷⁴ فمن رحمته تعالى تجدده لأحياء الأرض بما ينمو عليها من خيرات وممّا تفيض به من باطنها من ماء، فكلما جذبت انبتت عشب وكأُ جديدا وهكذا رحمة الرحمن تتجدد، والتسبيح باسمه وحمده وشكره على رحمته ومن حول العرش لا ينقطع.

⁷³. الإسراء .44.

⁷⁴. الروم .50.

{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} 75
التسبيح شكر وعرفان بمن عمّت رحمته كل شيء، ولأنّ العرش
محمول من قبل المكلفين به من الملائكة العظام، قال تعالى:
{وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} 76.

ومن يستخلفه الرحمن ينبغي أن يكون أوّل المسبّحين (الحامدين
الشاكرين) له، ولذا فمن يخلقه الرحمن ينبغي أن يكون رحيمًا بنفسه
وبزوجه وأبنائه، ووالديه وعلى جميع من يُسبح للرحمن تعالى. ولأنّ
الرحمن استوى على العرش بالرحمة، وبعث الأنبياء والرسل رحمة
للعباد، ولم يرسلهم لغير ذلك، لذا فإنّ الخليفة هو أوّل المستهدفين
بالرحمة، ولهذا {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} 77
فالإكراه هو ما يناقض الرحمة، حيث احتوائه على المظالم والاستعباد،
وعدم احترام من يراد له أن يكون خليفة للرحمن الرحيم. ولهذا فرُسل
الله رحمة يُبلغون الناس بما يُرضي الرحمن تعالى، ويحرضوهم على فعل
الخيرات، وينذروهم من الوقوع فيما يؤدي إلى الشرور. ويحرضوهم
على إتباع الحلال والابتعاد عن الحرام. ولذا فهم رحمة، لإبلاغ العباد
بما لا يعلمون، حتى لا يكونوا في غفلة من أمرهم وما يُحيط بهم وبما
ينتظرهم.

رحمن على وزن فعلان، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة،
والزيادة في الصفة، فكلمًا زادت الصفة الرحمة للخليفة كان خير
خليفة، وكلمًا قلت قل خيره. وفي هذا الأمر يقول الله تعالى: {وَإِذَا

75. غافر 7.

76. الحاقة 17.

77. البقرة 256.

قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {78 قراءة القرآن عن تدبر بدون شكّ زيادة رحمة، لمن يقرأه ولمن يستمع له وينصت، ولأن في الإنصات تتبع وانتباه عن وعي، لذا فهو يُمكن من الوقوف على الحِكَم التي يتضمنها في الكلمات والجمل المقروءة في زمن الإنصات. ولأنها حكم من الله تعالى، فهي ذات أثر موجب، تؤدي إلى الصحوة، بعد غفلة من الأمر، وهذه الصحوة فطنة إدراكية تجعل المستمع والمنصت لكلام الله عزّ وجلّ على حالة من التبيّن، وهذه رحمة من الرحمن الرحيم. حيث ظهور الفعل المترتب على الاستماع والإنصات للقرآن الكريم وهو الإيمان (الانتقال من حالة الخليفة الكم إلى حالة الخليفة القيم والفضائل).

إنّ الاستماع للقرآن والإنصات له ليس غاية في ذاته، بل الغاية هي بلوغ المترتب على قراءته، والاستماع له، والإنصات إليه، والمترتب على كل ذلك هو (الرحمة) التي تتحقّق بالهداية، أو الوقوف على إعجازه وإظهار كنوزه من مكانها، والانتقال من حالة الغفلة إلى حالات اليقظة، فالظالم إذا اهتدى يصبح عادلاً، والكافر يصبح مؤمناً، والكاذب والمنافق وشاهد الزور يصبحوا صادقين، فالمؤمن لا يأكل إلا حلالاً، ولا يسرق ولا يزني، يقول الحقّ ويقدم على فعله، ولا يسلك إلا خيراً. وفي ذلك يقول الرحمن تعالى: {الم تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ} {79 تشير (تلك) إلى (الم) التي في ظاهرها تقرأ أحرف، وفي مضمونها تُدرك آيات إعجازية من الكتاب الحكيم تهدي للتي هي أحسن، وهي رحمة لمن هم يُحسنون القول والفعل، وخاصة في أدائهم للصلاة وإيتائهم للزكاة وإيقانهم

78. الأعراف 204.

79. لقمان 1 - 3.

بالآخرة. ومع أنّ الرّحمة مطلقة المفهوم والدلالة، إلا أنّها في هذه الآيات جاءت للخاصة (للمحسنين) فإذا أعجبك فاعل خير (مُحسن)، فعليك أن تعرف أن للإحسان معايير قيمية ودرجات قياسية، تتفاوت من عملٍ صالحٍ إلى عملٍ أكثر إصلاحاً منه، وهكذا بما أن بين الناس محسنين، فبالطبيعة هم يتفاوتون في درجات إحسانهم عند الله، فكلما ازدادت عطاء في الأوجه الخيرة ازدادت إحساناً وبركة، ولهذا إذا رأيت محسناً تأكد بأن هناك من هو أكثر إحساناً منه، ولذا فإن الرّحمة تعم المؤمن وغير المؤمن وتخص بأعلى درجاتها المحسنين الذين يقدّمون على فعل الخيرات.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁸⁰ لعلكم تُرحمون ترتبط بما هو سابق وهو الإصلاح بين الأخوة، وبما هو آتي وهو الرّحمة، حيث لا يتحقّق اللاحق إلا بنوعية الفعل السابق، فإن كان خيراً تكون الرّحمة هي الفعل المترتب عليه، وأن كان شراً يكون العقاب هو المترتب عليه، ولأن أفعال التفضيل إصلاحية، لذا تُقدّم أفعال الرّحمة على أفعال العقاب.

الرّحمة صفة تُغرس من الذات الإلهية في الذات الإنسانية، التي هي في أساس خلقها نفخة من روح الرّحمن. ولهذا فالقاعدة هي: (خُلقت الأرض رحمة بالإنسان، وخُلِق الإنسان رحمة عليها)، والاستثناء هو: (أن يُفسد البعض من بني الإنسان الأرض التي خُلقت رحمة به وبجأله). ولذا فالخليفة هو الذي يستخلف في الأرض لإصلاحها لا أن يُفسد فيها. ولذلك يُعد إصلاحها رحمة.

⁸⁰. الحجرات 10.

ولذا فإن الرّحمة تعم المؤمن وغير المؤمن وتخص بأعلى درجاتها المحسنين الذين يقدمون على فعل الخيرات: فالرّحمة الخاصة وأقصد بها أن يتجلى الله على قلبك، فتمر عليك ساعة لا تعدلها الدنيا وما فيها والعبد الصالح يسعى للوصول للرّحمة الخاصة، فهناك تقريب وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر وهناك نور يقذفه الله في قلبك، فترى به الخير خيرا والشر شرا وهناك شعور بأنّ الله يحبّك، وهناك مشاعر لو وزعت على أهل بلد لأسعدتهم وهذه الرّحمة الخاصة تحتاج لأن يكون للعبد مع الله مودة، سهر الليالي في ذكره، غض البصر عما نهى عنه، إنفاق الأموال في الوجه الحقّ، احترام العلماء وحضور مجالسهم، تفقد اليتامى والفقراء والمساكين وتقديم العون لهم، فحينما تشمر للعمل الصالح وحينما تقدم شيئا ثميناً لأخيك المسلم. هذه الجهود المتتابعة المتراكمة الكثيرة المديدة تتوج بما يسميه العارفون بالله بتجليات الله على قلبك فتشعر بالسعادة التي لا يعادلها الدنيا وما فيها وهي من رحمة الله الخاصة وجنته في أرضه والرّحمة الخاصة مشروطة بالطاعة والمجاهدة وبذل المال وعدم تذييره، ومعاونة الضعيف ومعاونة الأرملة وتفقد الجيران وتلاوة القرآن هذه من القنوات التي تصلك من خلالها الرّحمة الخاصة.

وبناء على قاعدة الأرض رحمة للإنسان، والإنسان رحمة عليها، يستخلف البشر بعضهم بعضاً أمماً وشعوباً، على قاعدة عبادة الله والإحسان بالوالدين مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾⁸¹ في هذه الآية الكريمة أمر ربك وحكم عبادته دون غيره، وهذه رحمة لا تجعلك تفكر في معبود آخر من دونه، وأمر بالإحسان للوالدين، حتى يتم نيل رضاها،

81 . الإسراء .23.

وهذه رحمة. وبما أنّ نيل رضاء الوالدين رحمة على الأبناء. إذن الأبناء رحمة على الوالدين، ولهذا يُستخلف البشر على أساس قاعدة الرحمة المستمدة من (الرحمن). ولذا فإنّ نيل رضاء الوالدين رحمة، ونيل غضبهما عذاب، فالرحمة مفاتيح خير، والغضب شواظ من نار ونحاس. قال أبو داود والترمذي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الراحمون يرحمهم الله تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"82.

بناء على ما تقدم لا يسع الخليفة إلا أن يقول ما قاله الله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}83. وقال تعالى: {رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}84.

الرحمن من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته الكريمة، واسم الرحمن لا يطلق إلا على الله تعالى من حيث أن معناه لا يصح إلا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، أما الرحيم فانه يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}85 وقال في صفة النبي عليه الصلاة والسلام: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}86 والرحمن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين وعلى هذا قال: {وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا

82 المعجم الكبير للطبراني، ج 20، ص 108.

83 المؤمنون 118.

84 المؤمنون 109.

85 النور 5

86 التوبة 128

إِلَيْكَ قَالَ عَدَايَ أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشْأَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا
يُؤْمِنُونَ {87، وفي ذلك تدل الآيات الكريمة على رحمة الله الواسعة
في الدارين، إلا أن رحمته في الدنيا عامة (المسلم والكافر)، ورحمته في
الآخرة خاصة بالمستخلفين الوارثين.

الرَّحْمَنُ اسم عظيم لله الأعظم على صيغة فعلان الدالة على
المبالغة، وهناك علاقة قوية وتداخل في الدلالة مع الاسم الودود في
قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} 88
وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} 89.

وحظ الخليفة من اسم الله الرَّحْمَنُ أن يتخلق بشيء مما يدلّ عليه
قدر الاستطاعة البشرية، فيكون رحيمًا بخلق الله، مؤيدا لأرباب
الحق، ناصرا لأولياء الله، لطيفا في معاملاته لخلق الله، رفيقا بهم،
مملوء القلب بالرفقة والرحمة، محبا لله ومحبا لكل من يحبهم الله، ولكل
ما يحبه الله.

أكثر ما ورد اسم (الرَّحْمَنُ) في سورة الرَّحْمَةِ الكريمة، وهي سورة
مريم، إذ تتبدئ هذه السورة بذكر الرَّحْمَةِ، يقول تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ
رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيًا} 90 ثم يبدأ تردد اسم الرَّحْمَنُ في هذه السورة
خصوصا في قصة مريم وإبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام، حين قالت
مريم: {فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي

87 الأعراف 156

88 - هود 90

89 - البروج 13 - 14

90 - مريم 2

إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} 91 كما ورد اسم الرحمن ضمن سياق قصة إبراهيم عليه الصلوة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلهِيتي يَا إِبْرَاهِيمُ لَعْنٌ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} 92 وقصة إبراهيم عليه الصلوة والسلام تشكل أسلوبها وفق معيار الخير الذي يريده الله تبارك وتعالى للخلق أجمعين، فإبراهيم عليه الصلوة والسلام صاحب شخصية اتسمت بالرضا والحلم والود حاول أن يهدي أباه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه، فكان أسلوب الحوار في هذه القصة مبني على الاحترام واللطف، وبهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه؛ وهو يتحجب إليه فيخطابه: (يا أبت) فقد كرر (يا أبت) أربع مرات، ففيها من التحجب ما ليس في (أبي) وفي ذلك دليل على سماحة نفس إبراهيم عليه الصلوة والسلام من ناحية وتلطفه في إيصال دعوته من ناحية أخرى. ويستمر إبراهيم عليه الصلوة والسلام في خطابه مع أبيه ويسأله: {لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا؟} والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى. وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان، فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان. بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة

91 - مريم 26

92 مريم 41 - 46

الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرا ولا نفعاً. إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام. وفي حوار سيدنا إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام مع أبيه الذي ينسب في كل ثنياته على جو الرّحمة والاحترام من إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام لأبيه الكافر، وهنا يخطر لنا سؤال ما دلالة استخدام الرّحمة في هذا المقطع بالذات، إذ تردد مرتين متتاليتين، في قوله تعالى: { يَا أَبَتِ لَا تُعْبِدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } 93 والملاحظ أن الآيتين تتحدثان عن المعصية والعذاب فلماذا أتى اسم (الرّحمن) فيهما مع أنّ من الأولى أن يأتي باسم فيه دلالة على العذاب أو العقوبة، إلا أن التحليل لسياق الخطاب يبين أن العذاب كان مفترضا من إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام وليس متحققا، ولهذا قال: (أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ) على الظن وليس على اليقين، وغلب الظن على اليقين في هذا العذاب باستعمال لفظ (الرّحمن) رأفة بأبيه وعطفا عليه، وكأنه يريد أن يقول أنه في داخله لا يتمنى أن يحدث هذا العذاب لأبيه مستعملا صيغة الرّحمة للدلالة على هذه الأمانة، ذلك أن العذاب في حالة تحقّقه هو حرمان من رحمة الله تعالى، فضلا عن ذلك أن الجرم الكبير يحرم صاحبه من رحمة الرحمان ممّا يترتب عليه الوصول إلى نقطة النهاية التي يكون عندها تحقّق العذاب المقدر. فكان اسم (الرّحمن) إشارة دائما إلى التفكير والتروي من اجل نيل الرّحمة وبخاصّة في الأمور المهمة التي يكون في ارتكابها فقدان الرّحمة وتحقّق العذاب، أما وروده في قوله تعالى: { يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ

صَوَابًا {94} فان المقام هنا يقتضي الرّحمة ولا يقتضي أي شيء غيرها، فقد تحققت كل علامات القدرة وأصبح الجميع في موقف اليقين المتحقق من قدرة وعظمة وجلال الله تبارك وتعالى، فالموقف شديد وحاسم والكل يساقون إلى ربّ العزّة، إذ يقول تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} {95} فحين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، (فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) أي: إلا ما يدل على الاحترام والأدب والذوق الرفيع والطاعة المتطلعة إلى نيل الرّحمة، وبذلك تكون المخافتة همسا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظارا لحكم الرّحمن فيهم، والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، فتكون الدعوة لجميع الخلائق دون استثناء، والكل ينتظر حكم ارحم الراحمين جلّ جلاله، والأمل بالرّبّ الكريم، الرّحمن الرّحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه، فالأمل قائم لديهم، لأنّ مرجعياتهم عن هذا اليوم تعود إلى سياقات تتشكّل جميعها من رحمة ربّ العالمين، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} {96} وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} {97} وقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ

94 - النبأ 38

95 - طه 108

96 - طه 108

97 - طه 109

بِالْعَمَامِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا {98} فالسياقات هنا كلها جاءت واسم (الرحمن) متشكّل فيها ممّا يعطي انطباعا عن الرحمة الواسعة التي تنتظر الخلق جميعا، ومن المرجعيات التي تنم عن رحمة الله الواسعة ما ورد عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" 99.

ثم يتكرر اسم (الرحمن) مرات أخرى في سياقات أخرى في هذه السورة وأغلبها سياقات يتضح فيها أسلوب التوعد والعقاب، يقول تعالى: {ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا} 100 وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا} 101 وقوله تعالى: {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} 102 كما يتكرر بآيات أخرى بسياقات فيها شكّل من أشكال الرحمة، يقول تعالى: {يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} 103 وقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} 104 وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} 105 فما دلالة

98 - الفرقان 25 - 26

99 - صحيح البخاري ج 22 ص 432

100 - مريم 69

101 - مريم 75

102 - مريم 78

103 - مريم 85

104 - مريم 93

105 - مريم 96

استخدام هذا التضاد الظاهر لاسم الله تعالى (الرحمن جلّ جلاله) بسياقات عذاب مرة وبسياقات رحمة مرة أخرى، والتأمل الدقيق للسياقات جميعا يوصل إلى نتيجة أن سياقات العذاب تنتهي في الأخير إلى شكل من أشكال الرحمة، فهو عذاب ظاهري على شكل توعّد وليس عذاب متحقّق، ولهذا اتبع الله تعالى كل سياق من سياقات العذاب سياقاً من سياقات الرحمة أو سبقه به، إذ يقول تعالى: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا} 106.

ينقدح في الذهن سؤال جوهري عن علاقة اسم (الرحمن) بسورة الرحمن، ولماذا سميت هذه السورة (عروس القرآن) ولا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بتفحص السياقات التي شكّلت مفاهيم السورة وهي مفاهيم تنتمي بمجملها إلى شمولية اسم (الرحمن)، بمعنى أن سورة الرحمن هي شرح قرآني لاسم الله تعالى وصفته العظيمة (الرحمن)، فكل آية وكل سياق في السورة يشكّل مظهراً من مظاهر قدرة الرحمن، ولهذا ابتدأت السورة بلفظ (الرحمن) واستمرت من بدايتها إلى نهايتها بتعداد مظاهر (الرحمن) سواء على المستوى الدنيوي أم على المستوى الأخروي إذ في كليهما تتجلى عظمة (الرحمن)، ولهذا قيل عن الرحمن أنه رحمن الدنيا والآخرة، قال تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّحْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ
تُكَذِّبَانِ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ
تُكَذِّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ
تُكَذِّبَانِ {107} السورة تؤكد هذه الثنائية الرحمانية لاسم (الرحمن)
فهي لا تعدد أشكال أو مظاهر الرحمة الدنيوية فقط بل أنها تتجاوز
هذه المظاهر إلى مظاهر الرحمة الأخروية التي شكلتها على مستويين
دلاليين، مستوى عالٍ ومستوى أعلى، أما الأول فيمثله وصف الجنة
الأول الذي هو للمرتبة العليا، يقول تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ
تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ
فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا
مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ
قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ
تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهِنَّ الْيَأْقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ هَلْ
جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} {108} بينما المرتبة الأعلى التي هي
تخص الأنبياء والشهداء والصديقين فلهم جنة مختلفة، يقول تعالى:
{وَمَنْ دُوْنَهُمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ مُدْهَمَمَتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ
فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ
حِسَانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْحِيَامِ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ

107 - الرحمن 5 - 25

108 - الرحمن 46 - 60

رَبُّكُمْ تُكذِّبَانِ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رُفْرُفِ حُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ {109}.

تتشكل رحمة الله تبارك وتعالى ضمن ثنائية الدنيا والآخرة مما يرتسم لها أطر تحددها وتكسيبها مساحات تتوزع بحسب الإرادة الإلهية المتحققة فيها الرحمة المطلقة، وهذا يجعلنا إلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ليرسم لنا الرحمة التي أرادها الله تبارك وتعالى لعبده وفق ترتيب أرادته الله تعالى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَأَخَّرَ اللَّهُ تَسْعًا وَتَسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ 110 هنا تتجلى رحمة الله تبارك وتعالى من خلال تقسيمها وفق معطيات أرادها سبحانه، بدأ من الدنيا التي تحضن مختلف المخلوقات فبالرحمة تعيش المخلوقات وتتوافق وتستمر حياتها وهذه المعيشة في الحياة صورة للرحمة التي رسمها شطر الحديث النبوي وهي متحققة وبتحققها نجد أن رحمة الله تعالى عظيمة جدا فصورها متكررة يوميا نراها ونتعجب ونسأل أنفسنا دائما ونحن نرى الأسد يلعب مع ابنه والنسر يقطع المسافات الطويلة لكي يجلب لأفراخه الطعام ويقوم هو بإطعامهم بنفسه صور تبهر العيون وتسحر العقول لماذا لا يأكل الأسد ابنه؟ لماذا لا يأكل النسر صغاره؟ هذه الأسئلة وغيرها تخرج من بوتقة واحدة مُشكَّلة حزما تبحث في اتجاهات مختلفة للحصول على إجابة لهذا النظام العجيب لكنها في نهاية المطاف تجد الإجابة، وهي أن نظام هذا الكون كله يسير وفق رحمة

109 - الرحمن 62 - 77

110 - صحيح مسلم ج 13 ص 311

الرَّحْمَنُ، وَلَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرَ عَلَى الْحَيَوَانَاتِ بَلْ أَنْ لِلْإِنْسَانِ نَصِيبَهُ الْأَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَتَشْكَالَاتِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَدَايَةِ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا تُوْحِي بِالرَّحْمَةِ الَّتِي أَسْبَغَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ الْمَتْحَقَّةُ لِلْجَمِيعِ لَا تَنْقَطِعُ بَعْدَ زَوَالِ الدُّنْيَا إِنَّمَا تَدْخُلُ مَنْعَطًا جَدِيدًا، إِذْ تَتَوَسَّعُ أَفَاقُهَا وَتَتَفَوَّقُ عَلَى الصُّورَةِ الْمَتْخِيلَةِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَرْسُومَةِ مِنْ قَبْلِ عِبَادِهِ فَمَهْمَا كَانَتِ الصُّورَةُ الْمَتْخِيلَةُ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَصِلُ إِلَى أَيِّ نِسْبَةٍ لِلصُّورَةِ الَّتِي سَوْفَ يَجِدُهَا عِبَادُ اللَّهِ أَمَامَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى: {وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} 111 أما قوله تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} 112 فهو يعرض الرحمة لصنفيين من الخلق، كانت لهم اليد الطويلة في تكذيب الدعوة الإسلامية والوقوف بوجهها، وفي ذلك ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله تعالى، وإتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، فإن أصروا على عنادهم وكفرهم فحذرهم من نقمة الله تعالى وعذابه فإن بأس الله تعالى شديد، ولا يرده شيء عن القوم المجرمين، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ

111 - الأعراف 156

112 - الأنعام 147

تَمَلِّكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {113}.

والرَّحْمَةُ تتجلى بين العباد ضمن العلاقات القائمة التي رسمها الله تبارك وتعالى بين الخلق جميعا من آدم عليه الصَّلَاة والسَّلَام إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، إذ يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } {114} سياق الآية هنا رسم بداية الخلق وفق تشكيل تقاربي يلملم الأجزاء المنتثرة، ويجمعها بقصد التعارف ضمن الوعي المتحقق بين الجميع، مما يؤدي إلى خلق نماذج مختلفة يتحقق من خلالها التعارف، وهي الشعوب والقبائل، وهذا التشكُّل للخلق يمنحهم صفات منها التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ومن هذا التقسيم الكبير للخلق يتبلور تقسيم صغير إلا أنه يمثل القاعدة الأساسية لهذا الخلق وهو الأسرة المتكونة من الزوجين، إذ يقول تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {115}. هنا صورة من صور الرَّحْمَةِ التي بينها الله تبارك وتعالى للخلق أجمعين، فالجمع بين الرجل والمرأة آية من آيات الله تعالى الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط، فهذا الارتباط بين الزوجين يحيل إلى رحمة الله تعالى التي تكون هي الأساس في بناء الأسرة، فبها يكون التعاطف والتراحم والسبب في مواصلة الحياة، وان استمرار الأسرة

113 - المائة 41

114 - الحجرات 13

115 - الروم 21

وبقاءها يمثل جانباً من جوانب رحمة الله تبارك وتعالى، وتتجلى صورة الرحمة في الأسرة بصورة الأمومة التي تمثل تشكلاً من تشكيلات الرحمة الإلهية بدأ من الحمل، إذ يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} 116 وقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} 117 هنا صورة الأمومة في كل تجليتها تطرح عدة تساؤلات مبعثها أنها رحمة من رحمت الله تبارك وتعالى، فلولا رحمة الله تعالى لما تحقق بناء الأسرة وفق هذه الصعاب التي تمر بها الأم.

ومن رحمة الله تعالى إرسال الرسل، وهذا الأمر المتحقق نتج عنه أنّ الخلق أجمع غيروا مسار حياتهم من الكفر إلى الإيمان وبتحقق هذا التغيير، تتغير نهاية الخلق من النار إلى الجنة، وهنا تكون الرحمة الواسعة من الرحمن الرحيم، إذ يقول تعالى: {مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} 118. وإرسال الرسل يستند إلى أمر مهم جداً وهو العذاب المتحقق في حالة عدم تلبية دعوة رسل الله تبارك وتعالى، يقول تعالى: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بُرْهَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا

116 - لقمان 14

117 - الأحقاف 15

118 - الإسراء 15

يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {119} وقوله تعالى:
{وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ {120} وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَاحْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ {121} هنا نجد أن السياقات كلها
تحمل الخطاب إلى نهاية متوقعة وهي العذاب، ومفردة العذاب ترسم
معلمًا دلاليًا مرتبطًا باليوم الآخر، وهذا اليوم تتحقق فيه كل
خطابات الدنيا المختلفة من عذاب ورحمة، وقد عبر القرآن الكريم
عن هذا التحقق من خلال لفظة (سيق) التي بني فيها الخطاب
للكافرين والمؤمنين، يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا
حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ
مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا
بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ {122} فهنا زمر
الكافرين تساق زمرة بعد زمرة إلى نار جهنم، فيستوضح الخطاب
هنا رحمة الله تعالى السابقة عليهم، التي كانت أمام أعينهم وحواربها
بكل الوسائل، ووقفوا منها موقف الجبار المتغترس، والتذكير جاء
على لسان خزنة نار جهنم {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} هذا هو مقصد الرُّسُلِ،

119 - يونس 15

120 - هود 84

121 - الزخرف 64 - 65

122 - الزمر 71 - 72

اليوم تستوضح دلالاته، وترى صورته المتحققة التي رسمت في الدنيا، والتذكير بالرسل ورد مرارا في القرآن الكريم، يقول تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّهْمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } {123، وفي هذا السياق يستوضح شأن عظيم من شؤون الله تعالى، وهو شأن عدله ورحمته، ورضاه لعباده الخير والصلاح، وكرهيته سوء أعمالهم، وإظهاره أثر ربوبيته إياهم بهدایتهم إلى سبل الخير، وعدم مباحثتهم بالهلاك قبل التقدم إليهم بالإندار والتنبيه.

أما الصورة الثانية وهي صورة الرحمة المتحققة، يقول تعالى: { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } {124، وصورة الرحمة هنا نراها من بداية دخول الجنة إلى الحمد الذي ورد على لسان أهلها، فالخزنة خطابهم هنا اتسم بالطيبة والرحمة وبما يليق بالمخاطبين، فالصورتان المتحققتان في الجنة والنار، أي صورة النعيم وصورة العذاب، كان تحققهما مرتبط بارسال الرسل والتصديق بالرسل، فصورة العذاب المتحققة استندت إلى عدم التصديق، قال تعالى: { أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ

123 - الأنعام 130 - 131

124 - الزمر 73 - 74

خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ { أما صورة النعيم المتحققة فقد استندت إلى التصديق برسول الله تعالى: { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَنْبَوًّا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ }، فأرسال الرسل يمثل جانبا مهما من جوانب رحمة الله تعالى للخلق، فهو باب للتنبيه وللتوجيه وللإرشاد، ورحمة الله تعالى شاملة مطلقة لا تتقيد بأي قيد بل هي مفتوحة لكل ينالها الجميع فمن صورها الرزق في الدنيا، فهو مطلق لكل لا يقتصر على المؤمن دون الكافر، إذ يقول تعالى: { كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَؤَآءًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآ خِزْيَآءٌ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } 125 ترتسم الرحمة هنا وفق معيار واحد يتشكل الجميع منه وهو أنهم جميعا خلق الله تعالى، والعطاء في الدنيا لكل دون قيد أو شرط في الحصول عليه من الله تعالى لأنه منحة لكل وهنا تتهافت الأسئلة التي تراود الخلق من آدم عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، كيف يتساوى الكفرة مع المؤمنين في الرزق بل ربما أن الكفرة أكثر رزقا من ذلك قوله تعالى: { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ } 126 هذه الآية تحيل إلى صور ماضية تتكرر بين حين وآخر لتمثل رزق الله تعالى المتحقق بين خلقه، وهذا الرزق مثل رحمة الله تعالى من جانب أما الجانب الآخر فكان سببا في هلاك كثير من الأقسام، فقد مكَّن الله تعالى لهم الأرض وأمدهم بأموال وبنين وجعلهم أكثر قوَّة وعمارة في الأرض وجعل السماء تمطر عليهم بصورة متتالية، مطرا

125 - الإسراء 20، 21

126 - الأنعام 6

غزيرا وفجر لهم من الأرض ينابيع وأنهارا، استدراجا لهم وإملاء، ثم أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وخطاياهم وجعل من بعد هؤلاء الهالكين أجيالا أخرى ليختبرهم، فعملوا مثل أعمال من كانوا قبلهم، وهنا الصورة تتكرر أي أن الرزق مستمر والهلاك مستمر، مما يدل على رحمة الله تعالى مستمرة لا تنقطع رغم الهلاك المستمر الدال على الكفر والعصيان.

وتمثل الرياح صورة من صور رحمة الله تعالى، على الرغم أنها تمثل صورة من صور العذاب المتحققة في الأرض، إذ يقول تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ أَهْلِتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} 127. وصورة العذاب المتحققة بالريح ليست دائمة بل هي وقتية تنتهي بتحقق الهلاك المقدر، أما الجانب الآخر الذي تمثله الرياح وهو جانب الرحمة، فهو صورة دائمة من صور رحمة الله تعالى في الأرض، فهي سبب من أسباب الرزق الدائم على الأرض، والذي بسببه تستمر حياة المخلوقات جميعا، إذ يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْقُلُوبِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 128 وقوله

127 - الأحقاف 22 - 25

128 - البقرة 164

تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } 129 والرياح بكل تجلياتها تمثل مظهرا من مظاهر رحمة الله تعالى بما تقوم به في هذا الكون الواسع، فحركتها في جميع الاتجاهات ترسم رحمة الله تعالى على جميع أصقاع الأرض، فضلا عن ذلك أنها تمثل رمزا من رموز رحمة الله تعالى، إذ يقول تعالى: { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا } 130 والجانب النفعي الذي تمثله الرياح مع السفن التي تجوب البحار، يمثل جانبا مهما في خدمة الخلق في مكان يعد الأصعب وهو البحر، يقول تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } 131.

خلق الله تعالى الخلق وفق حكمته وإرادته، فهم مختلفون في كل شيء بدءا من لون البشرة إلى أصغر دقائق الحلقة التي هم عليها، وأهم نقطة خلاف بينهم هو العقل، وهو أهم جهاز يتمتع به الإنسان، فبه يميز الأمور كلها بكل تفاصيلها ودقائقها، فيختار لنفسه الطريق الأسلم والأصوب بحسب ما يعتقد ويؤمن به، والاعتقاد إيمان لا بد أن يكون عن قناعة دون إكراه، وتجلي ذلك في قوله تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا

129 - الأعراف 57

130 - الفرقان 48 - 49

131 - الروم 46

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {132} فدلائل الوجدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أَيْتَرَكُونَ عَلَيْهِ أَمْ يُكْرَهُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ 133. يتزامن هنا مع سؤال النفس أسلوب الدعوة المتبع الذي يشغل حيزا كبيرا في عملية الإقناع، إذ يترتب عليه قبول الدعوة أو الصد عنها، وأسلوب الدعوة يجب أن يكون كما خطه الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام بقوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 134 تجلت هنا صورة من صور الدعوة إلى الله تعالى، فالأخلاق الحسنة، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله 135.

والدعوة إلى الله تعالى بطريقة لينة سمت من سمات الخليفة، وهذه الطريق لا تقتصر على الدعوة إلى الله تعالى فقط بل تكون منهجا له

132 - البقرة 256

133 - التحرير والتنوير ج 2 ص 434

134 - آل عمران 159

135 - السعدي ج 1 ص 154

في الحياة، في كل تصرفاته مع جميع الخلق القاصي والداني، فهي ترسم شكلاً وصورة للإسلام العظيم الذي غير مسار الحياة ونقل الخلق إلى حياة جديدة تقوم على أطر معرفية تحدد العلاقة الصحيحة بين الخلق أجمعين، فضلاً عن ذلك اختيار شخصية تكون هي المرجعية لهذه المعرفة متمثلة بشخصية الرسول محمد عليه الصلوة والسلام، بقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} 136 وقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 137.

ومع أنّ للأنبياء صفات كثيرة وميز عظيمة إلا أننا لا نستطيع حصرها بالتمام، ولهذا اعتمدنا على الآيات الصريحة في اتخاذ الأدلة الموضوعية والعلمية لتكون لنا حجة ولا تكون علينا حجة، قال تعالى: {وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً لَهُمْ الْأَبْوَابُ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} 138.

من الآيات الكريمة السابقة ومما قرأنا من الكتاب الحكيم أن كلّ الأنبياء هم عظام وهم في واسع الرحمة وفي الوقت ذاته هم رحمة على العباد وللعباد، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون للطاعة، طاعة الواحد القهار، ويدعون للإحسان والمجاهدة في سبيل إحقاق

136 - الأحزاب 21

137 - التوبة 128

138 ص 48 . 54

الحق وإزهاق الباطل، ولذلك فهم الأخيار الذين كان من بينهم ذو الكفل خَيْرٍ { وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ } والخَيْرُ هو من يتصف بصفات أفعال وأعمال الخيرات الحسان كما سيتم تبيانه لاحقاً.

وعليه جاء قوله تعالى: (وَادْكُرْ إسماعيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً هُمْ فِيهَا مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ) جاءت هذه الآية الكريمة دليل على أن الله الفتح قد فتح على الأنبياء ومن بينهم ذا الكفل أبواب الرحمة الواسعة فكانوا من الوارثين في الدارين؛ فهم:

في الدار الدنيا أنبياء عظماء.

وفي الآخرة أهل جنّة، ولهذا فمن يفتح الله عليه نبوة وحظاً عظيماً؛ فهو في غير حاجة لدليل، وبخاصّة الذي استمدّ صفة الفتح من الفتح المطلق جلّ جلاله.

قال الإمام الغزالي: "الفتح هو الذي بعنايته يفتح كلّ مغلق وبهدايته ينكشف كل مشكّل، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه، ويخرجها من أيدي أعدائه، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه"139.

وقال ابن القيم في نونيته:

وكذلك الفتح من أسمائه والفتح في أوصافه أمران

فتح بحكم وهو شرع إلهنا والفتح بالأقدار فتح ثاني

139 أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى ي شرح أسماء الله الحسنى. بيروت. دار الكتاب

العلمية، ص 61.

والرَّبِّ فَتَّاحٍ بَدِينٍ كَلِيهِمَا عَدَلًا وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ 140

الفتَّاحُ أَسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِي وَصِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي خَصَّ بِهَا ذَاتَهُ الْعَلِيَّةَ، مُصَدِّقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} 141. لَا فَتْحَ إِلَّا بِوُجُودِ طَرَفَيْنِ يَكُونُ أَحَدُهُمَا أَقْوَى حِجَّةً مِنَ الْآخَرِ حَتَّى يُذْعَنَ مِنْ لَا حِجَّةَ لَهُ لِلَّذِي يَمْتَلِكُ الْحِجَّةَ الْحَقَّ، وَبِالتَّقَاءِ الطَّرَفَيْنِ أَوْ اجْتِمَاعِهِمَا ثُبُتَ الْمَعْلُومَةُ الْحِجَّةَ لِدَحْضِ الْمَعْلُومَةِ الْخَاطِئَةِ، وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ مَوْضُوعِيًا سَتَكُونُ الْمُنَاصِرَةُ مِنْ قَبْلِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمَعْلُومَةِ الصَّائِبَةِ وَيَكُونُ التَّضَادُّ مِنَ الْقُوَّةِ الْمُنَاصِرَةِ لِلْمَعْلُومَةِ الْخَاطِئَةِ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُونَ عَلَى إِحْقَاقِهِ يُسَمَّوْنَ الْفَاتِحِينَ أَيْ الَّذِينَ يَزِيلُونَ الصَّعَابَ مِنَ الطَّرِيقِ حَتَّى يَتِمَّ عُبُورُ الْمُنَاصِرِينَ وَالْمُؤَيِّدِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْحَقِّ.

وقوله (ثم يفتح بيننا بالحق) أي أن يُمكن الله بعضنا من بعض بالحجة حيث لا إكراه في الدين، وبالقوة حيث كسر الاعتداء ومغالبة المعتدين. وفي كل الحالات هو فتح.

في الحالة الأولى: تتم مغالبة الحجة بالحجة، حتى يؤمن النَّاسُ. وإن أمنوا فقد اهتدوا.

وفي الحالة الثانية: إن لم يؤمنوا بالحجة ولم يناصبوا المؤمنين العداً فهم أخوة في ظل نظام الدولة المسلمة ولا عدوان عليهم.

وفي الحالة الثالثة: إن أشركوا وأعلنوا العداً لمن أسلم واهتدى للحق فقتلهم حق حتى يستسلموا للقوة ويعم السلام بدين السلام.

140 النونية، 2، ص 234.

141 سبأ، 26.

وقوله: (وهو الفَتَّاحُ العليم) تعني: أنّ الله تعالى هو الفَتَّاحُ الذي لا يصعب عليه شيء فهو الفَعَّالُ لما يُريد.

والفتاح العليم: تدل على أنّ خالق كل شيء قادر على أن يفتح كلّ ما ينبغي أن يُفتح ممّا خلق، فهو عليم بأمره وهو يمتلك مفاتيحه ولذا سيكون الفتح دون معاناة فهو القادر لأن يفعل.

وعليه فالفتّاح هو:

. الذي يمتلك القدرة على الفعل متى شاء دون أن تواجهه مغالبة.

. الفَتَّاحُ هو الغلّابُ الذي لا يغلبه غالب.

. هو مدلل الصعاب وقاهرها بالقوّة.

. هو فاتح أبواب الرّحمة على عباده.

. هو حاق الحقّ وزاهق الباطل.

. هو القادر بدون تردد على أن يفعل فيفعل.

. هو من يمتلك مفاتيح العلم ومفاتيح الغيب معا.

. هو الله عزّ وجلّ الذي بيده مفاتيح الجنّة فيعطيها لمن آمن وتاب، ومفاتيح النّار فيعطيها لمن كفر وأشرك.

والفتح: فعل خير، والفتح فاعل الخيرات الكثيرة والحسان. ولذا فإنّ الفتح تيسير وتذليل للصعاب والعوائق التي تعترض سبيل الخيّرين من عباده، والفتح هو الميسّر للأمر في حالة استعصائه.

والفاتح: هو القائم بالفعل مباشرة دون إنابة عن أحد، وهو أيضا الذي تصدّر له الأوامر فيقوم بفعل الفتح تنفيذا للأمر الذي يُطاع. ولهذا فالفتح جهد يُبذل من أجل غاية.

أمّا الفتوح: فهو ذاتي، وهو الذي يهب هبة، دون وسائط أو معاناة أو جهد يُبذل، وهو القابل لأن يتجسد في الأعمال والأفعال حتى يُحدث النقلة إلى ما هو أفضل وأنفع وأجود.

والفاتحة: هي الوسيلة المستخدمة والمدخلة في أبواب الخير والرحمة، ولهذا فإن البسملة هي فاتحة الفاتحة، والفاتحة هي فاتحة الكتاب وهي المدخلة الرئيسية الممكنة من دخول الآيات العظام. وهي أيضا المدخلة بأدبها ورقبها الذوقي لمخاطبة الله تعالى مباشرة في أي دعاء كريم. وهكذا شهادة أن لا إله إلا الله هي الفاتحة لدخول الإسلام، وهكذا أيضا يُذكر اسم الله على الذبيحة ليدخل لحمها حلالا على من أسلم فالحمد لله رب العالمين الذي بيده مفاتيح الحياة والممات فلا يظلم ربنا أحدا.

ولأنّ الفتح تمهيد لعمل عظيم. فإن الفتح هو الفاعل للعمل العظيم، ولذلك كانت الفتوحات الإسلامية تمهيدا لنشر الإسلام الذي به يُحقّق الحقّ ويُزهق الباطل.

وعليه أن أردت أن تكون الخليفة فعليك بفعل الآتي:

. أغلق أبواب الشرك تُفتح لك أبواب التوحيد.

. أغلق أبواب الكذب تُفتح لك أبواب الصدق.

. أغلق أبواب العبودية لغير الله تُفتح لك أبواب الحرية.

. أغلق أبواب الظلم تفتح لك أبواب التسامح.

- . أغلق أبواب الحرام تُفتح لك أبواب الحلال.
- . أغلق أبواب الاتكال على غير الله تُفتح لك أبواب التوكل عليه.
- . أغلق أبواب الحسد تُفتح لك أبواب المحبة.
- . أغلق أبواب الظن تُفتح لك أبواب اليقين.
- . أغلق أبواب الجحود تُفتح لك أبواب الاعتراف والتقدير.
- . أغلق أبواب التكبر تُفتح لك أبواب التواضع.
- . أغلق أبواب الذل تُفتح لك أبواب العزة.
- . أغلق أبواب الخيانة تُفتح لك أبواب الثقة.
- . أغلق أبواب الخوف تُفتح لك أبواب الطمأنينة.
- . أغلق أبواب المعصية تُفتح لك أبواب الطاعة.
- . أغلق أبواب الشقاء تُفتح لك أبواب السعادة.
- . أغلق أبواب الشح تُفتح لك أبواب المكارم.
- . أغلق أبواب الشر تُفتح لك أبواب الخير.
- . أغلق أبواب الرذيلة تُفتح لك أبواب الطهارة.
- . أغلق أبواب الحقد تُفتح لك أبواب الرحمة.
- . افتح أبواب الرحمة تُفتح لك أبواب الجنة.

قال تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا

وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا} 142. قال الشعبي: المقصود بالفتح هو الحديبية حيث أصاب بها ما لم يُصب في غزوة. ووردت في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي وفي تفسير الجلالين: أنها تدل على أن مكة فُتحت عنوة بدون قتال وهذه الآية وعد بفتحها 143. والذي يهمننا من قوله (إنّا فتحنا لك فتحا مبينا) هو ما تحويه هذه الآية من تيسير وتمهيد لانتشار الإسلام، ويقصد بفتح مبين: فتحا لا شكّ فيه في الزمنين الحاضر بفتح الحديبية، والمستقبل بفتح مكة وغيرها من المدن والأمصار في المعمورة. ولذلك فمن ينظر إلى ما نحن عليه في زماننا، يتيقن بأنه قول الحقّ فقد كان فتحا مبينا على العالمين.

وقوله: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) في اعتقادنا أن الذنب الذي تقدم هو الذنب الذي تأخر، حيث لا ذنب للرسول عليه الصلّاة والسّلام بعد الاصطفاء والتكليف بالرسالة، والذنب الذي تقدم هو ما كان عليه قبل الرسالة، وما تأخر هو ذلك الذنب الذي لم يبق بعد الرسالة، وفي هذا القول تماثل مع ما ينطبق على قوله هو (الأوّل والآخِر)، أي هو الله لا شريك له فهو هو واحد أحد لا ثاني معه (الأوّل والآخِر) هكذا يكون الحال مع قوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر). أي لا ذنب لمحمّد عليه الصلّاة والسّلام بعد الرسالة فأول الذنب هو آخره.

وقوله (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) تدلّ على أن بالإسلام تتم النعمة حيث لا ذنب لك يا محمّد من بعده وهذه نعمة وهداية حقّ على الصراط المستقيم الذي

142 الفتح، 1. 3.

143 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السادس عشر، ص 260.

بالسير على نهجه يتحقق لك النصر المعزز بقوة العزيز الحكيم جلّ جلاله.

وعليه فكان الفتح على محمد بالرسالة والفتح على الرسالة بالفتح المبين الذي هو دليل إثبات تشهد عليه الحديبية ومكة وكل مصر من الأمصار التي فتحت والتي ستُفتح لا محالة.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّوهَا نَصَرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ } 144. ما يقصده بالتجارة هو الآتي:

. الإيمان بالله تعالى.

. الإيمان برسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

. الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله عزّ وجلّ.

. أن يكون الجهاد بالأموال ثم بالأنفس. والمترب على هذه

التجارة هو:

. مغفرة الذنوب.

. دخول الجنة التي تجري الأنهار المتنوعة والمتعددة بخيرات كثار

من تحتها، والتي فيها مساكن طيبة في جنات عدن. وهذه الخيرات

والجنان هي نتاج الفوز العظيم الذي تحقّق للرسول صلّى الله عليه وسلّم والذين آمنوا معه بما التزموا به من إيمان وطاعة لله وللرسول.

أمّا قوله (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) تدلّ على أن الذين لا يزالون على قيد الحياة سينالون من تجارهم وهي الإيمان والطاعة مكاسب ومغانم كثيرة في حياتهم الدنيا وسيعيشون انتصارات متعددة وكثيرة وفتوحات، تعود عليهم بالفوائد والمنافع الكثيرة، وبهذا فهم كمن يعيش جنتين الأولى في الحياة الأولى، والثانية في الحياة الآخرة.

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} 145. الإيمان ليس سهلاً كما يظن البعض أنه يتعلق باليقين، ورؤية اليقين ليست سهلة فهي تحتاج للمعلومة الصائبة والدليل والبرهان الثابتين والحجّة المطلقة التي تتوحد في الزمن حيث الصلاحية الدائمة، فالعدل على سبيل المثال هو العدل، والظلم هو الظلم سواء في الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولذا فمن يؤمن بالعدل حقّ والظلم باطل ستكون حجّته باقية عبر الزمن وهذا هو الدليل الإيماني المتضمن للثبات والاستمرارية على الحقّ الدائم. وعليه لو آمن أهل القرى بالحقّ الدائم عبر الزمن لكانوا القوّة التي لا تُقهر ولا تظلم أحداً ممّا يجعل قلوب الناس تتطلع وتنفتح للحقّ الذي يمتد بالإيمان قوّة.

وقوله (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) هذه الآية مثوبة ورحمة تعود على الذين آمنوا، وهم الذين ينالون الأجر في

الدارين: رضاء الله عليهم بتيسير معاشهم وأرزاقهم في حياتهم، ورضاهم عن أنفسهم المطمئنة في الدار الدنيا، ولأجل ذلك فهم يكافؤون بالجنة في الدار الآخرة. ولكن لو راجعنا ما تدل عليه كلمة (لفتحنا) للاحظنا المعنى الاشتراطي الذي تتضمنه والذي يعود على قوله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) وذلك لأن كلمة (لو) كلمة احتمالية المعنى وليس يقينية المعنى فهي لا تثبت إلا بالجواب أو الفعل المترتب عليها. ولقد تبين الأمر بالجواب (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أي أن أهل القرى لم يُصدقوا الحق الذي جاء به رسل الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، فظلموا أنفسهم، فأخذهم الله تعالى بما كانوا يكسبون.

وكانت نتيجة الأخذ بإزالة المعوقين الذين بإزالتهم ذلت الصعاب أمام الفاتحين بالحق بالدعاية والتبشير والهداية للتي هي خير. ولهذا فمن يتمسك بالحق يفتح الله عليه خيراً ومن يتمسك بالباطل ليس له إلا أن يرهق. مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ} 146، وقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} 147.

قال تعالى: {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} 148 هذه الآية جاءت على لسان شعيب عليه الصلاة والسلام، وهو يدعو ربه بأن يفتح بينه ومن آمن معه وبين قومهم الذين هم منهم، ويقال حسب ما ورد في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي "أن شعيب عليه الصلاة

146 التوبة، 55.

147 الأنبياء، 18.

148 الأعراف، 89.

والسّلام بعثه الله إلى أمتين: أهل مدين وأصحاب الأيكة"149. والأمتان الاثنتان هما قومه أي من بني دمه وأصله. ولذلك فللفتح أبعاد محلية وقومية وله أبعاد إنسانية:

البعء المحلي والقومي: أن يُبعث الرّسل والأنبياء إلى قراهم ومدنهم وشعوبهم وأهلهم فكانت جميع الرسائل السماوية لا تخرج عن هذا البعد المحلي إلا رسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام قد جاءت بقضايا جامعة لا مانعة. أما الرسائل التي سبقتها فجميع قضاياها جامعة مانعة، جامعة للقوم أو أهل القرية أو القرى ذات العلاقة، وذلك لأنها تخصهم ولا تعم الآخرين، فهي جاءت لمعالجة قضية معينة أو بعض من القضايا المحلية أو الخاصة. فنوح عليه الصّلاة والسّلام بُعث ليُنذر قومه مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}150، قال: (قومك) ولم يقل (الناس كافة) وقومك هم الذين تربطك بهم علاقة. ويونس عليه الصّلاة والسّلام بُعث لمائة ألف أو يزيدون هذه قضية جامعة مانعة تجمع القوم الذين بُعث إليهم عددا فقط مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}151. ومثل لوط عليه الصّلاة والسّلام الذي بعث لقومه

149 القرطبي، الجزء العاشر، ص 250.

150 نوح، 1.

151 الصافات، 139. 148.

ولقضية الفساد الأخلاقي التي تفشت بينهم. وكذلك شعيب عليه الصلاة والسلام الذي بُعث لمعالجة قضية الفساد الاقتصادي التي تفشت بين قومه. وقضية موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون وملئه الذي طغى في أرض مصر وأكثر فيها الفساد قال تعالى: {أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} 152.

أمّا البعد الإنساني: أن تكون الرسالة غير مقتصرة أو خاصة بقوم واحد أو قرية أو مصر من الأمصار بذاته. وهذا الاشتراط جاءت به رسالة الإسلام الخاتمة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 153 تحتوي هذه الآية الكريمة القضية الجامعة لا المانعة التي ذكرناها في الأسطر السابقة، فهذه القضية لم تكن مقتصرة على قوم أو شعب بعينه ولا تقفل أبوابها في وجه الآخر من يكون فهي المستوعبة للجميع وذلك بفتحها أبوابها أمامهم بدون استثناء. وسميت بالجامعة لا المانعة ذلك لانعدام التخصيص فيها ولا تمنع أحدا من الدخول فيها من يكون ذكرا أو أنثى يهوديا أو مسيحيا أو منتميا لأي دين من الأديان غير السماوية فهي للجميع دون ممانعة.

ولهذا أرسل الله تعالى رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى الناس كافة. (بشيرا ونذيرا) تعني التبشير بالقول الحق ونشره بين الناس حتى يُدركوا الجنة التي جاء الرسول ليبشر بها كافة الناس إن آمنوا. والنذير: هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بدين الحق ليُنذر بالقرآن عن ارتكاب المظالم والشرك بالله تعالى حيث من أشرك وكفر واقتترف ذنبا ولم يتب فستكون النار هي مثواه

152 طه، 24.

153 سبأ، 28.

في الآخرة إن لم يؤمن. ولهذا جاء قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} 154.

وعليه كل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا فاتحين لا لقضايا سياسية بل لقضايا أخلاقية واجتماعية واقتصادية وروحية حيث لا طمع لهم في مصلحة أو منفعة خاصة سواء الذين بعثوا إلى الخاصة أو الذي بُعث للكافة. وهؤلاء هم الأئمة الأمثل للخليفة في الأرض، لذا فمن يُرد أن يكون خليفة في الأرض فعليه بالاعتناء بما قالوا وبما فعلوا وسلوكوا وعليه بالهداية التي هي أحسن وأقوم. أمّا أولئك الذين لا علاقة لهم بذلك فهم المعرضون للمساءلة والعقاب.

والفتاح بالإضافة هو الخليفة في الأرض الذي اتخذ رسول الله الكريم صلوات الله وسلامه عليه الأسوة فيما يقول وفيما يعمل ويفعل ويسلك. ولذا فلم ينته التبشير والإنذار بانتهاء الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم بل المعمورة لم تهتد بعد ممّا يستوجب على المؤمنين التبشير بالحق قولاً وعملاً وفعلاً وسلوكاً لا سياسة ومخادعة وطمعاً شخصانياً في غير مرضاة الله تعالى.

فالفتاح بالإضافة هو المؤمن الذي مثلما يعمل من أجل نفسه يعمل من أجل الآخرين الذين في حاجة للعلم والهداية من أجل القضاء على الجهل، والذين في حاجة للدواء من أجل المعافاة والشفاء، والذين في حاجة للماء من أجل الارتواء، ومن أجل المحرومين من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم. وأن يعمل ذلك لا لبلوغ غاية خاصة في نفسه كأن يفوز بمكانة

اجتماعية أو سلطة أو ثروة، بل من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل حتى تعم العدالة والتسامح والإخاء بالحق في الدار الدنيا، وينجو من النار ويفوز بالجنة في الدار الآخرة. ولذلك فبطبيعة الحال من ينجو ويفوز في الدار الدنيا يفوز بالجنة في الدار الآخرة، وهذه لا يُلقَّأها إلا خليفة في الأرض.

وعليه فمن أراد أن يفوز بالجنة فعليه بالخليفة ولكي يكون خليفة عليه بالحق واتباع القدوة الحسنة حتى تكون القدوة في نفسه وفي روحه إيمانا راسخا وفي قوله عملا وفعلا وسلوكا نافعا. وبهذه يصبح الخليفة الذي لا يقول إلا الحق صادقا، ولا يعمل إلا مفيدا نافعا، فلا يشرب مُحرَّما، ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يقتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، ولا يزي، ولا يوقد نار الفتنة، ولا يُجَلِّل ما حَرَّمَ الله، ولا يعتدي ظلما وبهتاناً، ولا يركع أو يسجد إلا لله تعالى. يتطهر بالصدقة والزكاة وبالعمل الصالح يؤدي جميع الفرائض إيمانا تاما بالله تعالى، يتقدم لأعمال الإحسان وإذا ما أخطأ يُكفِّر عن سيئاته، ويتوب إلى الله ربّه ولا يشرك به شيئا.

ولأنّ الفتح يُستمد من الفتح الأعظم، فعلى العباد أن لا يتأخروا عن استمداد هذه الصفة الحسنة منه تعالى، وهذه ليست بمستحيلة فيما أنها صفة فهي قابلة لأن تستمدّ حتى تتجسد في السلوك والفعل، ولأنّها كذلك فالذي خلقه الله عزّ وجلّ في أحسن تقويم هو القادر على استمدادها من مصادرها المكتوبة في الكتاب (اللوح المحفوظ) ومن السنة العملية التي تجسدت في أعمال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأفعاله الحسان.

وحتى لا يعم اللبس والغموض بعض معاني الكلمات وما تدل عليه من مفاهيم، علينا أن نميز بين الفتح وبين الحرب.

. فالفتح يؤسس على معطيات إنسانية من أجل الهداية والمساواة
لا من أجل المغالبة، وهذه المعطيات هي:

. التبشير بالحقّ الذي يقضي على الفساد في الأرض وذلك
لأجل البقاء والاستخلاف فيها حتى النهاية. قال تعالى: { فَخَلَفَ
مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ } 155.

. التبشير بالجنة للذين رضوا بأن يكونوا خلفاء في الأرض ولم
يرضوا أن يكونوا مع الخوالم عندما تدق ساعات الفتح المبين. قال
تعالى: { رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَفْقَهُونَ لَكِنِ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 156. وقال جلّ
جلاله: { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا
مِنْ قَبْلُ وَأَنْتُمْ بِه مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ } 157.

. الإنذار بالعيوب والتحريض والعمل على إصلاحها بالتي هي
أحسن. قال تعالى: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي
الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } 158.

. الإنذار بالنار في الحياة الآخرة لكل من كذب وتولى أو أقترف
ذنبا أو سفك دما أو أكل مالا حراما أو شهد شهادة زور بهتان

155 الأعراف، 169.

156 التوبة، 87، 88.

157 البقرة، 25.

158 القصص، 77.

بغير حقّ. قال تعالى: {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ فَأَنْذَرْتُمْكُمْ نَارًا تَلْظَىٰ} 159. وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} 161.

. إعلان المحبة في الله تعالى والعمل بها لأجل تقوية اللحمة والقضاء على التفرقة. قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 162.

وفي حالة ما إذا أحسَّ المسلمون بخطر على دينهم من أي مصر من الأمصار المحيطة بهم كانوا لا يعلنون الحرب ولا يدخلونها إلا إذا كتبت عليهم، ولذا فالإحساس بالخطر هو الذي كان يُجِّزهم للفتح الذي من معطياته الآتي:

. القضاء على الكفر والشرك بالله تعالى. قال عزّ وجلّ: {فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} 163.

159 الليل، 12 . 13.

160 المائة، 8.

161 المائة، 33.

162 آل عمران، 103.

163 التوبة، 12.

. إنذار المستهدفين بالفتح وإبلاغهم بموضوعه. قال تعالى: {قُلْ
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} 164.

. تبشيرهم بالرسالة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 165.

. تقديم الحجّة التي دعتهم إلى التداعي لمستوجبات الفتح. قال
تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً} 166. وقوله
تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ
بِالطَّاعُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 167.

. التأكيد على الغاية وهي تحقيق السلام بين الناس ليعيشوا إخوة
متحابين في الله تعالى. قال عزّ وجلّ: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ
السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} 168

. استيعاب الأقوام المفتوحة قراهم وأمصارهم دون إكراه في الدين.
قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ

164 آل عمران، 63.

165 آل عمران، 84.

166 البقرة، 208.

167 البقرة، 256، 257.

168 النساء، 94.

مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} 169. يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا غَايَةَ شَخْصَانِيَّةَ أَوْ طَمَعًا فِي سُلْطَةٍ أَوْ ثَرَوَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْفَتْحِ، بَلِ الْغَايَةُ مِنْ وَرَائِهِ هِيَ الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ تَعَالَى.

. إِعْدَادُ الْقُوَّةِ وَإِظْهَارُهَا مَعَ الْمِيلِ إِلَى التَّفَاوُضِ الَّذِي يُمَكِّنُ مِنْ دُخُولِ الْأَمْصَارِ بِدُونِ قِتَالٍ. قَالَ تَعَالَى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 170.

. عِنْدَمَا تَكُونُ الشُّعُوبُ تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ شُرَكَاءَ بِاللَّهِ تَعَالَى يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ قِرَارَ الْفَتْحِ وَيُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ فِعْلًا وَسُلُوكًا. قَالَ تَعَالَى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ نُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} 171.

أَمَّا الْحَرْبُ فَتَوْسَسُ عَلَى مَعْطِيَاتِ الْمَغَالِبَةِ، وَالْمَخَادَعَةِ وَالِدِهَاءِ وَتَقْلِيْبِ الْأُمُورِ فَتَعْلَنُ الْحُرُوبُ وَتَشْبُ نِيرَانُهَا مِمَّا يَجْعَلُهَا تَوْسَسَ عَلَى الْآتِي:

. السَّيْطَرَةُ عَلَى مَقَالِيدِ الْقُوَّةِ مِنْ ثَرَوَةٍ وَمَنْجَزَاتٍ مَادِيَّةٍ.

. التَّوَسُّعُ الْجُغْرَافِيُّ مِنْ أَجْلِ مَسْتَقْبَلٍ بَعِيدٍ.

. الْقَضَاءُ عَلَى مَا يُخَيِّفُ أَوْ يُنْذِرُ بِخَطَرٍ.

169 الأعراف، 96.

170 الأنفال، 60، 61.

171 الأنفال، 19.

. اختلافات فكرية أو ثقافية أو عرقية أو دينية.

. بسط سيادة القوي على الضعيف وجعله في حالة تبعية وقهره

بالمغالبة.

. الخوف من التحكم في مصادر الحياة كمنابع المياه ومنابع

النفط.

. الحيلولة بين أصحاب القضايا وامتلاكهم لمقاييد القوة.

وعليه فالفرق كبير بين الفتح الذي تكمن غايات السلم فيه وبين الحرب الذي تظهر غايات الاضطهاد والاستعباد والاستعمار فيه، ولذا فإن الفتح وضوح بالمصادق والحرب غموض بلا حجة، والفتح لا تترتب الأضرار عليه، والحرب والاقتتال نيرانها لا تقف إلا بمغالبة وضرر شديد وخسائر مؤلمة وموجعة، وخير مثال على ذلك للمقارنة فتح مكة الذي ثم بسلم دونما أضرار أو خسائر حيث لم توجه ضربة واحدة لإنسان فالضربات التي وجهت يوم فتح مكة هي تلك التي بها هُدمت الأصنام وجعلتها دكا تتهاوى بين أيدي الفاتحين وهم يعلنون أنّ الله واحد أحد لا شريك له وأن المسلمين أخوة وأنه لا إكراه في الدين. أما الحرب فنيرانها تأكل الأخضر واليابس تضر ولا تبقي كما هو الحال في العراق وفلسطين والحرب في جنوب لبنان وفي أفغانستان. أناس يقتلون وتدمر مساكنهم وتهتك أعراضهم، وتسفك دماءهم بغير حق ويهجرون كرها حتى أنهم فقدوا كل شيء فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 172. تُثبت هذه

172 فاطر، 2.

الآية بأن فاتح الرّحمة هو الذي بيده مفاتيحها وهو الله عزّ وجلّ، وهو الذي إن فتح رحمته (أي رحمة منه) فلا أحد قادر على منع وصولها لمن يُراد لها أن تصله بإرادته تعالى. وإن أراد أن يحجب رحمته عن أحد فلا راحم له غيره، ولذا فهو العزيز الذي إن فتح رحمته على من يشاء يعزه بها كيف يشاء وإن أراد إذلاله فيمسك رحمته عنه فيظل في فاقة إلى أن يرحمه الله العزيز الحكيم، والحكيم: هو الذي يعلم الأسرار من وراء عطائه بفتح أبواب رحمته على من يشاء، وإغلاقها عن من يشاء. فهذه أسرار والأسرار هي التي تكمن فيها الحكمة والعلل المفسرة لأسباب العطاء والرّحمة ولأسباب الإمساك والمنع.

وفي الحديث الذي أسنده الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر بن العاص، قال: "خرج علينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً كالمودّع فقال: (أنا محمّد النبي الأمي ثلاثة مرات، ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النّار وحملة العرش، وتُجوّز بي، وعُوفيت، وعُوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلّوا حلاله وحرّموا حرامه" 173.

قال تعالى: {عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} 174.

علم الغيب سر نحن لا نعلمه، أبوابه مقفلة ومفاتيحه بيد من يعلم أسرار سبحانه لا إله إلا هو جلّ جلاله، يعلم ما في البر

173 مسند أحمد، ج 15، ص 198.

174 الأنعام، 59.

والبحر، ويعلم متى تسقط الورقة من نبتتها قبل أن تسقط ويعلم الحبة في مكنها كيف تنمو وكيف تمتص غذائها، ومتى تنضج ومتى تجف ومتى تؤكل، ومن الذي سيأكلها بالتحديد، ومتى سيأكلها بالتحديد وأين يأكلها؟ ولذلك فهو علام الغيوب فكل شيء أحصاه وعده عدا، رطب أو يابس أو غيره مما خلق هو الذي يعلمه ويعلم مواقيت نهاياتها مثلما يعلم مواقيت بداياته وإلى ما يصير إليه قبل أن يصير على ما سيصير عليه.

فالغيب أسرار من ورائها حكم، ومع أننا لا نعلم الغيب إلا أننا نعلم به ونؤمن، وللغيب ثلاث معطيات:

الأولى المعطية المطلقة: وهي لا يعلم الغيب بالمطلق إلا الله جلّ جلاله، ولذلك كل شيء أحصاه وعده عدا وكل آتية يوم القيامة فردا. قال تعالى: {إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} 175. ومن علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا هو:

. قيام الساعة: قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ ثُقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا نَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 176.

. علم الموت: الموت نهاية مجهولة لبداية معلومة، ومع أنّ كل العباد يؤمنون بالموت نهاية لبداية، إلا أنهم جميعا لا يعلمون متى يموتون بالتحديد الدقيق، ولا يعلمون أين سيموتون بالتحديد، ولا

175 مريم، 93 . 95.

176 الأعراف، 187.

يعلمون كيف سيموتون بالتحديد، ولذا فالجميع ترك هذا الأمر لمن يعلمه ولن ينشغل به إلا إذا ضاقت الدنيا به واشتد عليه الألم قد نجده في حالة انتظار متى؟ وأين؟ وكيف؟ قال تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 177.

. العلم الخَلْقِي: فالله وحده يعلم متى تحمل الأنثى، وممن ستحمل، وبما تحمل، وهل ما ستحمله سيكون ذكرا أم أنثى؟ أمّا نحن بني الإنسان فلا نعلم إلا بالحمل إذا ما تم بإذن من الله تعالى، فبعدها تكون المتابعة والرعاية والعناية. قال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} 178 وقال عزّ وجلّ: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} 179.

. أمر الروح: الروح التي تنبعث في جسم الكائن الحي أمرها مجهول بالنسبة للبشر الذين خلقهم الله في أحسن تقويم، أما بالنسبة له فأمرها معلوم قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 180.

. أمر الرّحمة: فمع أننا نعلم أن الرّحمة توهب هبة، إلا أننا لا نعلم على من ستكون الرّحمة؟ ومتى ستكون؟ وأين تكون؟ فهذه جميعها تقع في دائرة علم الغيب الذي لا يعلم أمره إلا الله تعالى. ولذا فأمر الغيب يُبشّر بها الله عزّ وجلّ عباده المؤمنين تبشيرا قال تعالى: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ

177 لقمان، 34.

178 الرعد، 8.

179 الحج، 5.

180 الإسراء، 85.

مُقِيمٍ} 181. وقال تعالى: { كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِيهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } 182. وقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } 183.

. أمر العقاب: مع أنّ أمر العقاب أمر معلوم وأنه حدث ويحدث وسيحدث، إلا أننا لا نعلم كيفيته حتى وإن وقع مصداقا لقوله تعالى: { فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ } 184 هذا الأمر هو حال قوم عاد وثمود، وكذلك أصحاب الأيكة من بعدهم الذين كذبوا شعيب فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ وهكذا فالعقاب الذي لم يحدث بعد فإننا لن نعلمه ولا نعلم على من سيكون حتى وإن ظننا فإن بعض الظن إثم. ولذلك قال تعالى: { يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ } 185.

. أمر التواب: بما أنّ من الناس من يعمل شرا فيعاقب عليه فكذلك من الناس من يعمل خيرا فيثاب عليه بالجزاء الأوفى، قال تعالى: { إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } 186. وقال عزّ وجلّ: { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ } 187 وقال جلّ جلاله:

181 التوبة، 21.

182 الأنعام، 12.

183 الأنبياء، 107.

184 النحل، 36.

185 الرعد، 42.

186 الأعراف، 128.

187 النساء، 17.

{هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا
إِلَيْهِ} 188.

. أمر السماء: المؤمنون يعلمون بأن السماء سيأتي عليها يوم
تكون فيه وردة كالدهان، وردة لم تكن حمراء ولا صفراء ولا خضراء
بل ستكون بلون الدهان في جماله وروعته. قال تعالى: {فَإِذَا
انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ} 189. ولأنّ المؤمنين يعلمون من علم الغيب يقينا بأن
السماء ستنشق وتصبح وردة كالدهان إلا أنهم لا يعلمون ساعته ولا
كيفية ولا روعته وحسنه.

. الأمر الآتي: كل مفكر عاقل يعلم علم المستقبل وفقا لانتظامه
في الزمان والحركة، ولكن لا أحد يعلم أن ما يتوقعه للمستقبل قد
يقع، فبدون شك إن لم يحدث أمر الغيب سيكون غدا الجمعة بما أن
اليوم هو الخميس، وسيسقط المطر غدا بما أن للسحب تكاثف
وتلبد بالماء، ولأننا نعلم علم المستقبل فإننا نعلم أننا سنتعلم ونعمل
ونتزوج فنبنى مسكنا ونسعى دون كلل ولا ملل للحصول على
العيش الرغيد ومع ذلك نعلم إننا سنموت يقينا وأننا سنجازى على
أعمالنا ثوابا أو عقابا ونعلم أن الله غفور رحيم ودود، ولكننا لا
نملك مقاليد الأمور ومفاتيح الغيب حتى نضمن بأننا سنتعلم ونعمل
ونبنى مساكننا لأسرنا المتوقعة وأن الخميس سيأتي غدا ممطرا، وأننا
سنجازى كما نحن نتمنى.

. أمر البعث: المؤمنون يعلمون بالبعث كما هم يؤمنون به، ولذا
فلو لم يعلموا بأمره ما كانوا مؤمنين به. أمّا المنكرون فلا يعلمون بأمره

188 هود، 61.

189 الرحمن، 37.

حتى يفاجؤا به مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 190.

الثانية المعطية الخاصة: إنها معطية الرسل والأنبياء الذين يُوحى لهم ويُنبؤون بما لم يُنبأ الآخرون به، قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَاٰمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} 191. وقال تعالى: {ذَلِكَ مِن أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} 192. أي ما أطلعتك عليه بالوحي يا محمد هو من أنباء الغيب، وإلا هل كنت تعلم بأمر زكريا ومريم لو لم أوحى إليك أمر كل منهما؟ ولذا فقوله (نوحيه إليك) تعني نُطْلِعُكَ عليه مسلمات وبراہین وُحُجج مثبتة ذات دلالة حتى لا يأتيك الظن ولتكون على اليقين بالبينة. ولأن الوحي هو إظهار على علم من علم الغيب فأوحى الله إلى نوح عليه الصلوة والسلام أن يصنع الفلك فصنع، وهكذا أوحى إلى يوسف وهود عليهما الصلوة والسلام، وأوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسله فآمنوا، كما أوحى ربك للنحل أن يتخذ من الجبال بيوتا.

قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} 193

190 الروم، 55، 56.

191 آل عمران 179.

192 آل عمران، 44.

193 الجن، 26، 27.

هكذا في حدود التخصيص أوحى الله عزّ وجلّ لمن شاء من خلقه ما شاء.

الثالثة المعطية النسبية: الساعة معطية ومسلمة لا شكّ في وقوعها بالنسبة للمؤمنين وهؤلاء هم القلة الذين يعلمون بأمرها أمّا الكفرة والمشركون فلا علم لهم بها، فهم يعلمون بالموت الذي يشاهدونه ولا يؤمنون بالبعث من بعده هؤلاء هم الكثرة، {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 194 تدل هذه الآية على أن بعض الناس وهم ليسوا بأكثرية يعلمون بالساعة مع أنّهم لا يعلمون العلم المطلق الذي يُمكنهم من معرفة الزّمان الذي ستقوم فيه. قال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 195 ترشد هذه الآية إلى أن أمر الإحاطة بعلم الله المطلق مقصور عليه جلّ جلاله، أما ما هو نسبي منه فمنقوص وهو بيد عباده مع درجات التفاوت النسبي بين من أوحى إليهم ومن وهب لهم رحمة العلم وأنبأهم بما لا يعلم البعض وبين علم المؤمنين وغير المؤمنين، فقد مكّن الله من يشاء من عباده ممّا يشاء علما ولم يُمكن الجميع من علمه ولهذا قال تعالى: {نَزَعْنَا دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} 196. وعلى سبيل المثال: أمر انشقاق القمر الذي أنبأنا به الله تعالى في مُنزل كتابه الحكيم فأما به بالمطلق قد شهدته غزاة الفضاء بأمهات عيونهم ولذا فهو علم غيب بالنسبة لغير

194 الأعراف، 187.

195 البقرة، 255.

196 يوسف، 76.

المؤمنين إلى أن تم اكتشافه حقيقة بين أيدي العلماء والباحثين في علوم الفضاء.

وهناك أمر آخر لم يقع بعد والمؤمنون يعلمونه ويؤمنون به يقينا وسيأتي لا محالة إنه اليوم الذي ستكون فيه السماء وردة كالدهان، ومع أننا نعلم هذا اليوم سيأتي يقينا إلا أننا لا نعلم متى سيأتي فهذا الأمر من علم ربّي ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلا. فزدنا من علمك علما يا الله حتى نعلم ونحن مؤمنون من علمك الواسع.

وحظ العبد من اسمه الفتح أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقا لما رواه أنس ابن مالك أنه قال: "إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن كانت مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل مفاتيح الشر على يديه"197.

ولأنّ الله يريد للإنسان أن يكون خليفة له في إحقاق الحق وإزهاق الباطل فلذا ينبغي على العباد أن يفتحوا أبواب العلم للجميع حتى يُسهموا في نقل الناس من الظلمة إلى النور، ونقلهم من الفقر إلى الغنى وذلك بغنى النفس حتى تطمئن بعد خوف من فاقة وحاجة، وأن يعملوا على تمكين الفرد والجماعة والمجتمع بكامله من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم، والسعي إلى تحويل الأفراد إلى الإنتاج الذي به يُحقّق لهم الوفرة الحلال، وليفتحوا أبواب الزكاة وأبواب الصدقات، وأن يفتحوا أبواب الصحة والمعافاة، وأن يفتحوا أبواب الدين وتيسيره للعباد برأفة ومحبة ومؤاخاة وبأسلوب يشوّق المتعطشين إليه وبمحنة تلجم أفواه المزايدين

197 شعب الأيمان للبيهقي، ج 2، ص 260.

والمشركين والجهلة دون إكراه، وأن يفتحوا أبواب الاستغفار والتوبة والرحمة والهداية على العباد حتى تنعم البشرية بقيم السماء وفضائله وتزداد الرحمة على المستخلفين في الأرض من أبواب الله الواسعة جلّ جلاله.

الفتّاح هو مالك القدرة والقوّة المطلقة الممكنة للفتح متى شاء وكيف شاء، وأينما شاء، فالقادر المطلق هو الذي يفتح ويغلق ما يشاء من أبواب الخير والشر، فلا يمكن أن يتدخل أيّ كان من الخلق مهما وصلت درجة قربّه من الله سبحانه وتعالى في أن يغيّر ما أراد الخالق تعالى، فإذا أراد أن يفتح باب العذاب أو العقاب على قوم وفي وقتٍ معين لا يمكن أن يقدر أحد على غلق هذا الباب، قال تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} 198، وإذا أراد القادر على أن يفتح باب الرحمة على قوم ما فلن يستطيع أي مخلوق أن يغلقه، قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 199، فالعقاب والرحمة يتطلبان قدرة مطلقة لكي تسع كل الخلق وكل زمان ومكان، لذلك فالفتّاح لا بدّ أن يكون قادرا مقتدرا.

وهو القادر أيضا على فتح أبواب العلم لمن يطلبه ويسعى إليه، هذا العلم النافع المفيد الذي يصل بصاحبه إلى أرقى الدرجات، فلا يمكن أن يصل أي إنسان إلى درجة معينة من العلم والمعرفة دون أن يفتح الله له هذا الباب، لأن العلم بجد ذاته نعمة عظيمة من نعم الله

198 الأنعام 65.

199 فاطر 2.

علينا ولا يملك النعم إلا خالقها عز وجلّ، فلا يأخذ الإنسان الغرور والكبرياء إذا وصل إلى درجات رفيعة من العلم، بل يجب أن يتذكر أن الذي فتح عليه هذه النعمة هو نفسه القادر على إمساكها ومنعها عنه، والعلم الحقيقي هو الذي يصل بصاحبه إلى أقصى درجات التواضع والعطاء.

فعلى الخليفة أن يكون فاتحا لأبواب العلم والخير أمام الآخرين على قدر استطاعته وإمكانياته، فلا يبخل بعلمه وعمله على مسلم بل يجب أن يجعل من علمه وعمله رادعا لكل جاهل في أمور دينه ودينياه، فيغلق بذلك أبوابا التخلف والجهل المؤديان لفتح أبواب الكفر والعصيان واتباع العادات التي من شأنها إبعاد الإنسان عن خالقه بالخرافات والأباطيل والمزاعم الكاذبة، وأن يعمل صالحا يرضاه الفتح جلّ جلاله ليكون خليفة مصلحا وفاعلا للخيرات الحسان.

فخليفة الله في الأرض لا بدّ أن يملك القدرة على فتح كل منافذ الخير والرّحمة والعلم في الأرض، وأن يسعى فيها مصلحا بين النّاس، فلا يجعل الجهل والكفر يسودان الأمة وتتفشى الأمراض النفسية والاجتماعية بين المسلمين بذلك، من هنا نستطيع أن ندرك أهمية القدرة على نشر الفضائل وفتح أبواب الخير بكل أنواعه، هذه هي الأمة التي أرادها الله للمؤمنين أن تكون، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} {200}، فلا يمكن أن نكون فتّاحين للخير مبشرين به إلا إذا كان المعروف هو السائد بيننا، ولا يمكن أن نكون مغلقين لكل أبواب الفساد والشر إلا إذا انتهينا عن المنكرات والشرور، لتخرج

200 آل عمران 110.

الأمة سليمة ومعافاة من كل مرض فاسدٍ، وتكون بمثابة درع أمام الكفر والجحود.

الفتّاح ودود، والود من المشاعر التي قد تكون خافية على البعض منا فلا نشعر به إلا متأخرا، وقد لا نستطيع أن نتفهّمه بسهولة ونصل إلى عمقه وخفاياه، فالود من الأحاسيس الراقية التي تتطلب ردا راقيا وساميا عليه، فمن الصعب أن نقابل الود بالجفاء والقسوة والنفور، ولكن للأسف فإننا نجد أن الكثير من الخلق يقابل ود الخالق المطلق بالجفاء والعصيان، مع أنّه الغني عن ودهم لكنه يطلبه منهم، قال تعالى: {وَرَبِّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ} 201، من الآية الكريمة السابقة ندرك أن الخالق فتّاحا لباب الود الذي يأتي على هيئة رحمة بالعباد، فالله تعالى يفيض على عباده بالود المتمثل برحمته بهم أجمعين، سواء كان هذا العبد مؤمنا أو عاصيا أو مذنبا، فإذا أراد الودود أن يفتح باب رحمته في وجه أي عبد فلا يملك أحد أن يعلق هذا الباب، لأن الفتّاح بعلمه المطلق يدرك متى وأين وكيف ينزل رحمته بخلقه، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 202، وقال تعالى أيضا: {وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} 203، فالفتّاح المطلق هو الودود المطلق الذي يوزّع وده ورحمته وحبه كيفما يشاء عزّ وجلّ.

201 الأنعام 133.

202 البقرة 160.

203 البروج 14 . 16.

والخليفة من صفاته أن يكون ودودا بل أن يكون مفتاحا للود والمحبة بين نفسه وخالقها وبين نفسه وبين الناس، فلا يغلق باب الحوار والتسامح مع غيره ممن أخطأ في حقه، بل هو من ترك بابه مشرعا أمام غيره ليدخلوا عن طريقه إلى ربوع الخير والمحبة والأخوة.

ولابد لكي ينجح بكسب محبة من حوله أن يكسب محبة وود نفسه أولا، وهذا لا يستطيع الخليفة الحصول عليه والشعور به إلا إذا وجد طريقه إلى الله تعالى بحبه ووده وطاعته وخضوعه له عز وجل، فيصل بذلك لأن يجعل من قلبه مفتاحا للخير والإيثار والتضحية، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 204.

وللخليفة العليم بالإضافة دور كبير يستوجب القيام به قولاً وعملاً وفعلاً وفي كل ذلك عليه مسؤوليات من شأنها أن ترفع درجاته عاليا عند خالقه جل جلاله، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} 205، فما خصص الله تعالى هذه المكانة للعلماء إلا لأهمية دورهم في فتح أبواب الهداية والدعوة للحق بين الناس، فما من خير أو معروف يسود بين الناس إلا ويكون العلم دافعا له ومحرضا عليه، وما من طريقة لنشر فضيلة إلا وكان العلم أساسه، ولكن العلم ليس سواً في الخير والشر، لأن العقل البشري مثلما يكون مفتاحاً للعلم أحيانا يكون بعلمه مفتاحاً للشر والجحود، يقود فيه العلماء الناس إلى الباطل والضلال، كالذين

204 الحشر 9.

205 فاطر 28.

قال فيهم الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ {206، فهؤلاء علماء بني إسرائيل جلبوا بعلمهم الهلاك والكفر لشعبهم بالرغم من علمهم بالحق والهدى، فالعلم بدون الإيمان والخشوع لا يمكن أن يكون مفتاحا للتقدم والرقى بل يكون قفلا على كل حضارة وفوزا وانتصارا.

فطوبى لمن كان علمه فاتحا للخير والحق في وجوه العباد، مغلقا أبواب الضلال والفساد والهلاك، هذا العلم الذي أمرنا بالسعي عليه الفتح جلّ جلاله.

وعليه على الخليفة أن يكون قلبه فتّاحا للآتي:

أولا: للأمل:

الأمل بذرة إذا عُرست في الأرض الصالحة أنبتت نفسا صلبة وقوية لا تنحني مع الهموم والأحزان، لأنه بوجود الأمل بقدرة الله ورحمته ووده وحلمه لا يمكن أن تنغلق أمامنا أبواب الفرج والفرح بنصر الله لنا على أنفسنا وعلى من كاد لنا وظلمنا، فالأمل يجعل من القلب مفتاحا للقوة والصبر اللذان يرفعان من درجة المؤمن عند الله تعالى.

206 الشعراء 192 . 206.

فإذا تغلغل الأمل في النفس نزع اليأس من هذه النفس، لأنه لا يمكن أن يجتمع الأمل واليأس في نفس واحدة، وهناك الكثير من الأمور لا تأتي إلا بوجود القوّة التي تنبعث في النفس المملوءة بالأمل، فمثلا النصر لا يمكن أن يأتي إلا بفتح باب الأمل في الله وفي نصره وتأنيده عزّ وجلّ في القلب، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾{207}، فالآيات الكريمة السابقة تدعونا بشكل مضمون إلى إحياء الثقة بالله والأمل بنصره، الذي من شأنه أن يلغي الفرق في القوّة والعدد بين الفئتين، ولكي نكون على هذا النحو لا بدّ من فتح باب حب الله ورسوله الكريم عليه الصلّاة والسّلام في قلوبنا، هذا الحبّ الذي هو أساس فتح الله لنا باب النصر والفوز على من يعاديننا، والذي نراه اليوم من هزيمة للمسلمين وتصنيفهم من العالم الثالث فمرجعه كله لعدم فتح باب المحبة والثقة بالله عزّ وجلّ، لذلك فعلى خليفة الله في الأرض أن يكون مليئا بالأمل بقدرة الله ونصره للحقّ دائما عندها فلن تُعلّق في وجهه أبواب النجاح والنصر والرقى، فمن فتح بابا مع الله فتح الله أبوابا من الخير عليه.

ثانيا: فتّاحا للحب:

لا يمكن للمؤمن أن يصل إلى درجة رفيعة عند الله تعالى بدون أن يكون داعيا وفتّاحا لكل باب يأتي منه الحبّ والود، وهذا الحبّ إذا أردناه أن يكون في الطريق الحقّ لا بدّ أن يكون منبعه هو حب الله عزّ وجلّ ورسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم قبل أي حبّ آخر،

²⁰⁷ آل عمران 13.

لأن من شأن هذا الحب أن يفتح بابا من أبواب الجنة له، فيكون بذلك الحب من الفائزين، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَعَدَدْتَ لَهَا قَالَ قَالَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ" 208.

وبالتالي فإن فتح المؤمن الحقيقي باب الحب الصادق لله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام يجعله محبا لنفسه ولمن حوله، فينغلق قلبه بهذا الحب عن أي شعور بالعدوانية والبغض والحسد لمن حوله، فينأى بذلك عن أي مرض اجتماعي من الممكن أن يصيب الإنسان الفاقد للحب والمودة.

وبالحب الصادق للحياة والخير والأرض والسماء يكون القلب البشري مفتاحا لكثير من المشاعر النبيلة مثل:

الرَّحْمَةُ: التي طالما كانت مطلب الإسلام والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وكانت الرَّحْمَةُ بمثابة دعوة للمشاركة في الإحساس والتعاطف فيما بي: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى" 209.

التواضع: من المستحيل أن يسكن الكبر قلبا يفيض بحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وجميع المسلمين، فالكبر علامة جحود ومرض يجعل من الإنسان مغلقا على حب ذاته لا يعترف بالحقيقة ويرفض التعايش مع غيره ممن هم أقل منه في المستوى طبعا كما

208 صحيح مسلم، ج 13، ص 91.

209 صحيح مسلم، ج 12، ص 468.

يراهم بغروره، وهذا ما نُهانا الله تعالى عن التخلق به لما فيه من خلقٍ ذميم، قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} 210، وقال تعالى أيضا: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} 211، من الآيتين السابقتين نستنبط مبدا رائعا إذا سار عليه المسلمون فلن نجد معه أي مسلم ذليل مهان ضعيف وهذا المبدأ هو الاعتدال الذي يتمثل في التواضع في الحياة فلا يكون الإنسان ذليلا ولا يكون مغرورا بل واثقا قويا بالحق، لأنّ من مضار الغرور هو فتح باب الجحود ونكران النعم وغلق العقل عن تقبل الحقيقة.

أما التواضع فيجعل من الإنسان مرآة للحقّ تنعكس فيها الصورة الحقيقية دون تشويه أو تزوير فيها، فيكون بذلك قريبا من خالقه عزّ وجلّ ومن نفسه ومع من حوله.

ثالثا: فتّاحا لسبل التضحية الحقة:

من أروع صور الإنسانية التي يتجسد فيها الحبّ الصادق هي التضحية والإيثار، وهي من الأمور التي لا تسهل على أي إنسان، من السهل الدعوة والمناداة بالتضحية كشعور فاضل ونبيل ويجب على المسلم التحلي به، إلا أن تنفيذه يبقى أمر صعب على الكثيرين ممن يواجهون مواقف تتطلب التضحية في سبيل الأحبة، ولكنها تسهل إذا كان القلب فتّاحا لحب الله جلّ جلاله وحب رسوله الكريم وحب الصالحين، فمن كان حب الخالق مهيمنا على فؤاده كان حب الخالق له مفتاحا للسعادة والنجاح في الدنيا والآخرة،

²¹⁰ الإسراء 37.

²¹¹ لقمان 18.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {212}، والتاريخ الإسلامي مليء بالقصص والمواقف التي تتجسد فيها أروع وأنبل صور الإيثار والتضحية، لذلك فقد فتح المستخلفون فيها مشارق الأرض ومغاربها بهذه الأخلاق النبيلة التي تمكنوا بها من فتح القلوب قبل المدن والحصون، فكانوا فاتحين الأبواب الحصينة وفتّاحين للقلوب العاصية والعقول الجاحدة بإذنه تعالى.

وإذا أراد الخليفة أن يكون مستحقاً للتحلي بصفات الخالق عزّ وجلّ فلا بدّ أن يكون أولاً فاتحاً لباب الحوار مع الخالق ومع نفسه ومع من حوله:

أولاً: مع الخالق:

من المعروف أن الحوار يكون بين اثنين يتشاركان الحديث والسؤال والإجابة، وتبادل الآراء بينهما، وهذا من الممكن حدوثه من الفتّاح جلّ جلاله إذ يخلو الخليفة بنفسه ويتكلم إلى الله يشكو همه ويشكر نعمته ويطلب فرجه وستره ويسأله الحل والجواب الشافي من كل تعب وحيرة وبالتأكيد فإن الله عزّ وجلّ سيفتح قلبه وعقله وسيهديه لما فيه خير، فالخالق قريب من الإنسان يسمعه ويعلم ما به، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} {213}، وقال تعالى أيضاً: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ

212 الحشر 9.

213 البقرة 186.

اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ {214، فاليقين بقرب الله منا هو بحد ذاته من شأنه أن يفتح باب الحوار واللجوء إليه لقربه منا.

وقد قال تعالى: {دَعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} {215 أنّ لقربه علامات تفتح باب الحوار معه ومن هذه العلامات نزول رحمته بالمستغيث به، فتكون بمثابة ردا شافيا ومرضيا للمؤمن الذي لا يمكن أن يطلبها من غيره، إذن فرحمة الله تعالى بعبده تكون مفتاحا لأن يتابع المؤمن حوارهِ ومناجاتهِ مع الرَّحِيمِ المطلق.

وكذلك فإنه جلّ جلاله يحاور المؤمن التائب بقبول توبته، فيفتح له باب الاستغفار والعودة عما كان فيه، بذلك يمكن أن يستشعر المؤمن برد الخالق على خوفه من عقابه وطلب السماح والمغفرة منه عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} {216.

وكذلك أيضا الدعم المعنوي للإنسان، قال تعالى في كتابه الكريم: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ

214 سبأ 50.

215 الأعراف 55، 56.

216 هود 61.

وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {217، فالسكينة إذا حلت بالنفس البشرية فإنها تفتح أبواب الطمأنينة والثقة والمحبة فيها، ولا يستطيع منحها لها إلا الفتح عز وجل.

ثانيا: مع نفسه:

لابد أن يترك خليفة الله تعالى باب الحوار مفتوحا دائما مع نفسه، التي قد تحتاج إلي الطمأنينة أحيانا، وإلى العقاب والتوبيخ أحيانا أخرى لما ارتكبته من ذنوب وأخطاء، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} {218، فالإسراف الذي جاء ذكره في الآية الكريمة السابقة إنما هو الشدة في عقاب النفس ولومها على ما اقترفته من ذنوب وخطايا، لذلك جاءت رحمة الله تعالى بهذه النفس التي تحاورت مع نفسها ووصلت إلى حد التوبيخ والعتاب والندم، هذه النفس البشرية التي تتعرض دائما للزلات والأخطاء بسبب وسوسة الشيطان الرجيم الذي حذرنا منه الله تعالى، وفتح لنا باب العلم بما يضره لنا هذا الشيطان من عداوة وبغضاء في قوله سبحانه وتعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} {219، فالشيطان الرجيم توعد الإنسان بالإغواء وزحزحته عن الصراط المستقيم، لذلك انقسم البشر ثلاثة أقسام:

217 التوبة 40.

218 الزمر 53.

219 الأعراف 16، 17.

أ- القسم الأول: من ليس له سلطة عليهم لقوة إيمانهم وحبهم لله تعالى، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} 220، فهؤلاء خلفاء الله تعالى في الأرض فتأحين للخير داعين لحب الله.

ب- الخطاؤون: الذين يخضعون لوسوسات الشيطان في أوقات معينة ثم لا يلبثوا أن يندموا على خطئهم ويرجعوا إلى الحق، فيتوبوا إلى الله ويستغفرونه، قال تعالى: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} 221، وكذلك قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 222. وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} 223.

ج - أتباع الشيطان: وهم من يطيعونه ويتبعون خطواته، فيملك بذلك الشيطان السلطة عليهم فيأمرهم بالسوء والفساد، قال تعالى:

220 الحجر 32 . 43.

221 الأعراف 153.

222 النور 5.

223 آل عمران 155.

{فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 224، وكذلك قوله تعالى: {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 225.

ثالثا: مع من حوله:

الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع أن يبقى لوحده في هذه الدنيا، ولذلك تطلب وجوده ضمن مجتمع أن يكون هذا الإنسان محاورا لمن حوله وإلا لأصبح وحيدا رغم كثافة البشر حوله، فلا يستشعر المرء بمن حوله إلا بفتح باب الحوار معهم فيأخذ منهم ويعطي لهم، فيكون بذلك إنسانا إيجابيا ذو قيمة في مجتمعه، لأن من شأن الحوار أن يفتح مئات الأبواب للتفاهم والحلول الصائبة لأصعب المشاكل التي تواجهنا، بالإضافة إلى اتساع ثقافة المرء وإدراكه من هذا التحوار البناء، ومن شأن هذا الأسلوب إذا اتبعه كافة فئات المجتمع أن يفتح أبواب الفائدة والمنفعة لجميع المسلمين، فالأب مثلا عليه أن يكون محاورا جيدا متفهما لطلبات زوجته وأبنائه أيضا، فيكون بذلك فتاحا للثقة بينه وبينهم والمودة والارتباط القوي الذي يجب أن يكون، ويغلق بهذا الأسلوب جميع الطرق المؤدية للانحراف والفساد وغيرها، وكذلك على المعلم أن يكون محاورا لطلبته ورب العمل لموظفيه وهكذا، ليصبح المجتمع بأكمله متفاهما مترابطا لا ينقصه العلم بفائدة الحوار.

فكم من الأمور الدنيوية من السهل حلها بواسطة الحوار والمناقشة، لأن كل مشكلة من الممكن أن تُحل أو على الأقل تصغر

224 القصص 50.

225 النحل 63

بوجود أسلوب التفاهم والمشاورة والأخذ بالرأي الآخر، ولا يمكن أن نحسر أو نضيع طالما أننا متكاتفون في الرأي ومتفاهمون، فبذلك نفتح أبواب التبادل النافع بيننا في الرأي والتفكير.

والفتّاح عزّ وجلّ يفتح علينا أبواب الخير لكي نفتح بدورنا أبواب المنفعة والخير لغيرنا، وذلك مثل:

1- في نزول الأمطار المحيية للأرض فتح لباب الخيرات على البشر، قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } 226، فمن الآية الكريمة السابقة يفتح الله بابين للخير وهما:

أ. الباب الأوّل: هو باب سد حاجة الإنسان من الطعام، لأنّ في نزول المطر وخروج الزرع فائدة عظيمة تسد حاجة الإنسان من طعام ومن أموال، بالتالي فعلى هذا الإنسان الذي فتح الله عليه هذا الخير أن يفتح هو بدوره هذا الباب على المحتاجين ممن حوله، فلا ييخل بطعامه ولا بماله على الفقراء والمساكين، بل يجب أن يكون فاتحا لباب الصدقات والعطايا، فيعطي ممّا أعطاه الفتّاح، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } 227، وكذلك قوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا

226 الأعراف 57.

227 البقرة 254.

أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {228، فيكون بذلك قد فتح باب الخير على نفسه أولا بإتباع أوامر الله عز وجل ونيل رضاه، وافتتح باب الخير على غيره ممن هم في حاجة وعوز.

والباب الثاني: هو فتح باب التذكرة والعبارة والإدراك لأصحاب العقول التي تبحث عن الحق، وفي ذلك الخير الكثير، فالإنسان بدون عقل مفتوح على الحق والهداية فهو أقرب للدواب كما أخبرنا بذلك رب العالمين في قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} {229، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} {230، فالتأمل في قول الله تعالى والمدرك لحقيقة رحمته بالعباد وحبه لهم فإنه بذلك يفتح بابا للجنة والنعيم الخالد، أما من أغلق باب عقله وقلبه عن أوامره جل جلاله وترك نفسه للشيطان يقودها للباطل والهلاك فإنه يفتح بذلك بابا للوصول إلى النار.

²²⁸ البقرة 261 . 264.

²²⁹ الأنفال 21 . 23.

²³⁰ الأنفال 55.

ونحن ندرك أن مصير الإنسان في الآخرة محصور بين مكانين يوم القيامة، وهما إما الجنة وإما النار، ولكن كيف يكون الإنسان فتاحاً لأحدى هذه الأبواب؟

يكون كذلك بالعمل الذي يسعى في الدنيا به، والذي يحكمه تغلب الخير أو الشر في النفس البشرية المسؤولة عن هذا العمل، فيختلف البشر بذلك في اختيارهم لفتح أي البابين منهما، قال تعالى: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} {231}، وقال تعالى أيضاً: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} {232}، فالخالق عز وجل بدهاء ورحمته يفتح للعباد باب الجنة والنعيم لهم، ولكن منهم من يتبع الشيطان معرضاً بذلك عن أوامره عز وجل.

2- فتح باب العلم لنا:

ليكون هذا الباب بمثابة نور من الله علينا نحتدي به إذا ضللنا الطريق، فالفتاح إذا فتح على المؤمن باب العلم النافع والمعرفة الصحيحة فذلك لكي يكون هذا الإنسان بدوره داعياً لنبذ الجهل الذي يؤدي للضلال، فيحارب كل ما هو بدع وخرافات ويعمل

²³¹ البقرة 139.

²³² القصص 51 . 56.

على نشر الحقّ وسيادة العلم في العقول والقلوب، إذن فالخالق بفتحه هذا الباب فإنه يأمرنا بأن لا نغلقه في وجه أحد، فكل أمور وتفصيل حياتنا بحاجة إلى المعرفة والعلم لكي نكون على دراية كاملة ببواطن الأمور قبل ظواهرها.

إذن فالفتّاح المطلق هو من يريد بنا الرّحمة والنجاح في الدنيا والآخرة بفتح باب العلم لنا والإدراك والخير والنعم التي لا تعد ولا تحصى وكذلك بفتح باب التوبة والاستغفار والرجوع عن الخطيئة، لذلك على الخليفة أن يتصف بهذه الصفة الكريمة بأن يكون فتّاحاً للخير والمعروف في الأرض ومع من حوله ومع نفسه، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} {233}، وقال تعالى جلّ جلاله: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} {234}، فلا خير أبداً في عبدٍ يكون مفتاحاً للشر والفساد والرذيلة، لأنه بذلك يفتح أبواب جهنم له بإتباعه خطوات الشيطان الذي يأمر بالباطل وبالمفاسد، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} {235}، فكيف يكون باب الجنّة مفتوحاً لمثل أولئك المفسدين؟

233 آل عمران 110.

234 آل عمران 113 . 115.

235 النور 19.

فعلى الخليفة أن يكون معينا ومساعدًا لنفسه أولاً ولغيره ثانياً بأن لا يتوانى عن أن يكون فاتحاً ومفتاحاً للحقيقة التي تصل بالمرء للهداية وإدراك رحمة وحب وعظمة الخالق عزّ وجلّ، وأن يكون فاتحاً لأبواب الجنة التي لا تفتح إلا بالصبر على الحق والخير والعمل بهما:

أولاً: الصبر:

فلا تغلبه الدنيا بل هو الذي يغلبها بفتح الباب بينه وبين الرحمن الرحيم، بذلك فلن تُغلق في وجهه أبواب الجنة، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} {236}، وكذلك قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} {237}، إذن الصبر أحد مفاتيح الجنة التي تجعل من الإنسان على الأرض مستحقاً لأن يكون خليفة الله جلّ جلاله، وأن يكون في الآخرة مستحقاً لجنان الخلد. قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {238}.

ثانياً: العمل الصالح:

الإنسان في الحياة الدنيا حياته كلها أعمال منذ أول النهار إلى آخره، لأنه يتعرض للتعامل مع غيره فيعطي ويأخذ وهكذا، فالمجتمع

²³⁶ البقرة 155 . 157.

²³⁷ آل عمران 142.

²³⁸ النحل 96.

قائم على تبادل الأعمال والمنافع بين الناس، ولكن اختلف البشر في نوعية الأعمال التي يتبعونها منها ومسلكا لحياتهم، فليست كل الأعمال صالحة وليست كلها فاسدة وهذا ما يحدده إيمان المرء وإخلاصه لله، فكلما زاد الإيمان نتج عن ذلك العمل الصالح الطيب الذي يرضاه الله تعالى، قال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {239}، وأيضا قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {240}، أما من كان عمله سيئا ومفسدا فهو الذي يفتح بيده باب جهنم وبئس المصير، بما عملت أنفسهم وابتعادهم عن الحق الذي أظهره الله لهم، قال تعالى: {إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْحَرَهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} {241}.

فالعمل الصالح هو أحد مفاتيح الجنة التي أعدها الله تعالى لهم بعد أن فتح عليهم باب العلم بكيفية الوصول إليه والتمتع بنعيمها الدائم، والأعمال الصالحة التي من الممكن أن تُنجي العبد من الهلاك لا تحصى ولا تعد، مثل بر الوالدين والأنفاق في وجوه الخير، والجهاد في سبيل الله، والقيام بالعبادات على أكمل وجه، وغيرها من

239 البقرة 62.

240 النحل 97.

241 البقرة 94 . 96.

الأعمال التي يمكن للمرء أن يقوم بها في الحياة الدنيا فيكسب بها رضا الله ورضا نفسه ورضا الناس، فيفتح الله عليه الخير في الدنيا وفي الآخرة.

ثالثا: حب الله ورسوله عليه الصلّاة والسّلام:

هذا الحبّ هو أساس الفتح الصحيح لكل أبواب الجنّة، ولا يمكن أن يُفتح أي باب من أبوابها في وجه إنسان إلا بهذا الحبّ النبيل، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعَدَدْتَ لَهَا قَالَ قَالَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ" 242، فسر جميع مفاتيح الجنّة هو إذن كامن في هذا الحبّ الذي لا يبدّ أن يتجسد في الأقوال والأفعال التي تصدر من الإنسان نفسه، فلا يمكن أن يدخل الجنّة من كان فاقدا لهذا الحبّ الكبير.

رابعا: إدراك حقيقة الشيطان الرجيم ولعنه:

ومن الممكن أن نصل لهذه الحقيقة بالتأمل في الآية الكريمة الآتية، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فِيمَا أُعْوِطْتَنِي لِأَفْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا بَجْدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ

242 صحيح مسلم، ج 13، ص 91.

جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ} 243، فرد الشيطان على الخالق عز وجل عندما أمره أن يسجد لآدم عليه السلام بقوله: (أنا خير منه) من هذه الجملة ندرك مدى حقد الشيطان على بني آدم وتكبره عليه، وحب الانتقام منه، فإذا أدرك الإنسان حقيقة هذا الشعور ووصل إلى الإحساس بدرجة بغض وحسد الشيطان الرجيم للإنسان الذي كرمه الله تعالى عليه فإنه بذلك يكون قد امتلك أحد مفاتيح الجنة الأساسية، لأنه من أدرك هذه الحقيقة نأى بنفسه وحماها من وسوساته، بل وغلب الشيطان وقهره بحب الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، لأنه من رضي بأن يكون تابعا لعدوه لا يستحق جنان الخلد التي أعدها الله وفتحها أمام كل راغبٍ بها ساعٍ إليها، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } 244، وقال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِي الْمُضِلِّينَ عَضُدًا وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا } 245، فحقيقة الشيطان أوضحها لنا الخالق ليفتح لنا باب إدراك نيته ورغبته في إلحاق الأذى والضياع والهلاك بنا، ومن أجل ذلك يجب أن يكون الخليفة دائم التذكر لهذه الحقيقة المنجية له من العذاب وسوء المصير، فلا يكون فاتحا لذلك الشيطان بابا من الاستماع له

243 الأعراف 11 . 18.

244 البقرة 168.

245 الكهف 50 . 53.

واتباع أوامره بل عليه أن يغلق كل باب يمكن أن يدخل منه ذلك الشيطان ولا سبيل لذلك إلا باللجوء لله جلّ جلاله، والإخلاص له في العبادة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاحْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّدَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ} 246، فالذي يغلق باب جهنم هو الإخلاص لله في الحب والعمل.

خامسا: العلم النافع:

العلم المفيد النافع هو الذي يجعل من الإنسان فاتحا لأبواب إدراك الخالق في كل شيء، والعلم المقصود هنا ليس هو الوصول إلى أعظم الاختراعات والاكتشافات فقط، بل هو المقرون بالبحث والسعي وراء حقيقة هذا الكون وهذا الخلق، فلا يكتفي بالمعلومات يحشو بها عقله دون تنوير ولكن لابد أن يمعن نظره فيما وراء كل شيء، فكم من عالم وصل إلى أرقى الدرجات في العلم الحديث لكنه بالرغم من ذلك مازال جاهلا بأمور نفسه وما ينفعها، ولأن على عاتق العلماء رسالة عظيمة يجب عليهم أن يؤديها ما فيها على أحسن فهم مكلفون بها، إذ أنهم بالعلم يكونوا فاتحين لباب المعرفة والحقيقة أمام الكثير من العباد الذين ما يزالون يجهلون ما لهم وما

عليهم من أمور دينهم ودنياهم، فبالعلم النافع لا يمكن أن يبقى أي باب مغلق في وجه الإنسان فلا يتخبط هنا وهناك ليس يدري أي الطرق هي الأصح، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتِزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا" 247، فمن شأن العلماء أن يكونوا فاتحين أو مضلين، إذ أن العالم الحق يجب أن يكون خليفة الله في الأرض يسعى بالإصلاح والإعمار ولا يمكن أن يتمكن من ذلك ومن حوله يغرقون في ظلمات الجهل والضلال، بل عليه أن يبدأ بفتح الأبواب واحدا تلو الآخر حسب إمكانياته، لكي يرقى بمجتمعه إلى أعلى درجات الإيمان الصادق الصحيح الخالي من الخرافات والأباطيل التي أدخلها الجهلة في ديننا، فأغلقت الباب بينهم وبين الوصول للحق واليقين.

ولكي يفتح العلماء هذه الأبواب لابد أن يفتح الله عليهم أولا السبل لذلك، ولكن كيف يفتح الله عليهم هذه السبل؟

بتقرب العلماء إلى الله أولا، فلا يأخذهم الكبر والغرور عن ذلك، فلا خير في علم لا يرويه الإيمان، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} 248، فلا يقف على حدود هذه الخشية إلا من امتلك العلم الكافي بما يستحقه هذا الخالق من خشية وحب، ففتح له الفتح المطلق بابا للهداية والنجاح، ولا يدخل مع خلفاء الله في الأرض من كان جاهلا بأمور دينه ودنياه، فقد فرق الله بين من يعلم وبين من لا يعلم في كثير من الآيات

²⁴⁷ صحيح بخاري، ج 1، ص 176.

²⁴⁸ فاطر 28.

القرآنية الكريمة، حيث كان العلم الفيصل بين من يستحقون فتح باب الجنة لهم وبين من يستحقون فتح باب جهنم لهم، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمَنْ النَّاسَ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} 249، فمن الآيات السابقة نصل إلى نتائج مهمة وحقائق عديدة لأصحاب العقول الصحيحة منها:

أ - إنَّ الله تعالى بعلمه المطلق والمسبق بعباده أدرك أنه من عباده من أغلق على نفسه باب الجهل والكفر، ويرفض أي إشارة للهداية والصلاح.

ب - بعث الرُّسل والأنبياء أكبر دليل على أنَّ الخالق عزَّ وجلَّ هو الفَتَّاح المطلق لعباده، فهو ببعثه لهم فإنه يفتح لعباده أبواباً من الهداية والنصح والرشاد، ويبقى بعد ذلك اختيار الإنسان نفسه لأي باب سوف يتجه.

ج - هناك بعض الأمراض التي تصيب الروح فتغلق باب العلاج في وجه المصلحين، كالكفر والنفاق والعصيان والجحود والغرور وغيرها، وكلها أمراض تصيب النفس البشرية بيد صاحبها، لأنه لا حجة لأي إنسان على الله بعد أن أرسل الرُّسل وبعث الأنبياء والمصلحين، ولكن هناك من البشر من رفض الطاعة والهداية ففتح بذلك باب العذاب وسوء المصير بيده، قال تعالى: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 250.

د- في سرد هذه القصص والحقائق عبر ومواعظ لمن أرادها، فمن شأن النصح والمواعظ أن تفتح بابا للتراجع والعودة للحق.

هـ- نستطيع من هذه الآيات أن نلمس رحمة الفتح بعباده أجمعين، ذلك من خلال فتح باب النصح والموعظة وإرسال الرُّسل وترك باب العودة والرجوع له مفتوحا.

فعلى الخليفة أن يكون ناصحا ومرشدا بعلمه وبصبره، فلكل إنسان أسلوبه الخاص والمميز له في الصبر والتعامل مع الآخرين، ولا بد أن يكون له الأثر الكبير في تغيير النفوس المعلقة بأن يفتح أمامها أبواب المعرفة والحب والأخوة، ولنا في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة فكان هو المعلم الذي فتح الله له باب العلم الحقيقي ليعلمه للعالم أجمعين، قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ} 251، فطوبى لمن تلقى هذا العلم عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ولمن علمه لغيره من البشر مؤديا بذلك

250 النساء 165.

251 النجم 1 .5.

أروع رسالة للبشرية وهي فتح باب المعرفة والمودة والنصر، فالمعرفة لا تأتي إلا بالسعي ورائها والجهد في الحصول عليها وفتح العقل أمام الحقيقة الماثلة أمامنا، والمودة لا تسكن النفس البشرية إلا بفتح باب التسامح والرحمة اللذان نستمدهما من رحمة الخالق وتسامحه، وكذلك النصر فلا يمكن أن نتصر في أي شيء مهما صغر دون أن نفتح أبواب القرب من الله تعالى فنكون بذلك خلفاء الله في الأرض كما أرادنا عز وجل، نعمرها ونصلحها وننشر الفضيلة والحب فيها.

لذلك فمن أدرك أنّ الفتح المطلق هو الذي يفتح خزائن الرزق بفتح باب العمل الجاد الصحيح، وهو الذي يفتح باب الهداية والحق لمن طلبها، وهو الذي يفتح باب الراحة النفسية بفتح باب الرضا عليه، وهو الذي يفتح باب الاستجابة بفتح باب الدعاء واللجوء إليه، فلا يستعصي عليه شيء وكيف ذلك وهو القادر والمهيمن على كل شيء؟

من
صفات النبي ذو الكفل

1. صابر:

الصبر على العموم هو الصفة السائدة لدى الأنبياء الكرام صلّى الله عليهم وسلّم الذين منهم ذو الكفل مصداقا لقوله تعالى: {وَأَسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ} 252.

ولأنّ ذا الكفل من الصابرين فهو من القادرين، حيث لا صبر إلا لقادر عليه، ولذا كان ذو الكفل صابرا وقادرا على تحمّل الأعباء وما ترتب عليها في سبيل النبأ العظيم الذي أنبي به من المنبئ الأعظم الله جلّ جلاله.

إذا الصابر هو القادر على حمّل المسؤوليات الجسام دون كلل ولا ملل، وعندما يوفّق في حملها يوصف بأنه قدير وجدير بما حمّل أو حمّل به في سبيل غايات عظام كرسالة أو نبأ عظيم كما هو حال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم.

ولأنّ القدير المطلق هو الله عزّ وجلّ فكل قدرة لا تستمد إلا منه، أي لو لم تكن له هذه الصفة ما كانت لنا القدرة التي نحن عليها.

ولأنّ القدرة على مستوى المخلوق مهما عظمت فهي لا تخرج عن دائرة النسبية، لذا لا يمكن أن يكون الإنسان مهما عظم قديرا بالمطلق وذلك لأنّ القدير قوته تغالب أي قوّة ولو اجتمعت، ولهذا هو القدير جلّ جلاله.

252 الأنبياء 85.

ولأنه القدير فهو إذا أراد شيئاً يقول له (كن) فيكون ولهذا قدرته دائماً متحققة بالقوة، أمّا الإنسان فله الأمانى غير المتحققة بالقدرة البشرية في بعض الأحيان، ولهذا ليس كل ما يتمناه الإنسان هو قابل لأن يتحقق خاصة إذا جاء في غير طاعة الله مصداقاً لقوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 253.

إذا الخالق تعالى هو القدير الذي يقول للشيء كن فيكون،

أمّا قدرة ذو الكفل التي بها كان صابراً لا مُطلقية فيها إلا مطلقه أمر الله الذي هو الحقّ فمن عمل عليه عمل على تحقيق المطلقية وهذا دور الأنبياء والرّسل والصالحين والصدّيقين والمؤمنين حقاً الذي يسعون إلى إحقاق الحقّ كما يشاءه الله ومع ذلك قدراتهم وصبرهم وإن عظم لن يبلغ المطلقية.

ولهذا؛ فأمر المخلوق في دائرة الأمانى بين متوقّع وغير متوقّع ومهما كبر حجم هذه الدائرة فهي دائرة محصورة بداية ونهاية أي أن أمرها لم يكن مطلقاً، ولهذا ليس كل شيء سيكون قابلاً لأن يتحقق وإن صبرنا في الزمن الآن أي انه بالصّبر سيتحقق، ولكن ليس دائماً يتحقق في الزمن الآن، لو كان كذلك لتحقق كل شيء في زمن الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم، ولو كانت الأمانى تحقق كل شيء لتحققت أمانى أهل الكتاب الذين ودّ كثيراً منهم أن يردوا المسلمين حسداً عن دينهم كُفّاراً؛ فهؤلاء ومن هم على أمثالهم في كل عصر إن لم يستغفروا ويتوبوا لله تعالى سينالون أشد العذاب ولذا فإن

القدير سبحانه وتعالى على كل شيء قديرا، قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ
أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 254.

ولأنَّ القدير على كل شيء قدير جعل الخيرات محصية بما لا
تُحصى به، أي جعل الخيرات على الكثرة التي لا تُحصى من مخلوق
مع أنَّها المحصية لديه قال تعالى: {إِن كُفِّرْ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنُ عَذَابًا لَّعَدًّا لَّحَصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَرْدًا} 255، ولأنَّ الخيرات متعددة ومتنوعة فعملها ممكنا من
العباد طاعة لله تعالى، ولهذا التنوع والتعدد من العلامات الموجبة
لترسيخ الفضائل والقيم ولكن علينا بالصبر كما كان ذو الكفل
صابرا من اجل أن يُحقِّق الحقَّ، قال تعالى: {وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيٰهَا
فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ} 256، إذا المهم هو عبادة الله واحدا أحدا، والمهم
الإكثار من عمل الخيرات ولكن تولية الوجوه ليست هي الغاية بل
الغاية لمن تولى الوجوه، فإن كانت مولاة للواحد الأحد فإن توليتها
أيما تكون هي على الصواب، وإن كانت مولاة لمن هم دونه كفرا
وشركا فهي على الباطل.

ولأنَّ الخالق القدير هو الصبور خلق كلَّ شيء كما شاءه دون
عجلة ولا تسرُّع مع أنَّه خلق كلَّ شيء بالأمر (كن) لذلك وجبت
على كلِّ مخلوق طاعته وعبادته والتسبيح بحمده جلَّ جلاله، فعلى

254 البقرة 109.

255 مريم 93 . 95.

256 البقرة 148.

المستوى البشري من يعمل لك خيرا محدودا تشكره وتراه جميلا رائعا يستوجب منك التقدير والاعتراف فما بالك بالذي خلقك خلقا آلا يستحق الإيمان والطاعة والإتباع في كل أمر ونهي، ثم آلا تعترف للذي خلق الشيء وخلق منه الأشياء وخلقك من أشياءه وهو المسيطر والمهيمن على كل شيء بأنه الملك القدير جلّ جلاله.

ولأنّ المهيمن والمسير لكل شيء حياةً وممّاتاً وبعنا آلا يكون القدير على أن يؤتي ما يشاء لمن يشاء وينزع ما يشاء ممن يشاء {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 257.

ولأنّ القدير تعالى، فلا يُشكّ في قدرته على غفران الذنب لمن يشاء ولا يُشكّ في قدرته على تعذيب من يشاء ولا يُشكّ في قدرته على علم ما تكنه وما تبديه الصدور سبحانه أنه على كل شيء قدير، قال تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 258.

ولأنّ القدير على كل شيء؛ فلماذا لا تُستمد القدرة منه بما يمدنا بالصبر الذي به يسمو الإنسان على التسرع والعجلة التي في كثير من الأحيان تؤدي إلى المهالك والانحرافات ثم تؤدي إلى الوقوع في الندم الذي به يصحوا الإنسان من جديد فيستغفر ربّه ويتوب إليه، ولذا فمن صبر كما صبر ذو الكفل فقد فاز بالتقوى والطاعة وأصبح من المصلحين فيها غير المفسدين.

257 آل عمران 26.

258 البقرة 284.

ولأنّ الصبر هو مفتاح الفرّج فقد تميّز الذين صبروا درجات عند ربّهم فجعلهم على غير تساوٍ في القدرات والاستعدادات والميول والاتجاهات والإيمان، قال تعالى: {هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 259.

ولأنّ الصبر صفة لا تكون إلا لبصيرٍ يميّز بين ما يجب وبين ما لا يجب، لذا لا تستوي الحسنة بالسيئة ممّا يجعل الصابر دائما يدفع بالتي هي أحسن، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} 260.

ولأنّ القدير على كلّ شيء بعث الأنبياء والرّسل الكرام الذين منهم ذا الكفل مبشرين ومنذرين ومحرضين وداعين للهداية والطاعة لينقلوا النّاس من الضلال إلى الهداية (من الكفر إلى الإيمان) قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 261.

259 آل عمران 163 . 165.

260 فصلت 33، 34.

261 المائدة 19.

الذي له ملك السماوات والأرض له كل شيء ويده أمر كل شيء ولذا فهو القدير على كل شيء قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 262، ولأن بيده أمر كل شيء فهو القدير على تعذيب من قدمت يدها عملا مفسدا وهو بصبره المطلق قادر على غفران الذنوب لمن يشاء من عباده سبحانه أنه على كل شيء قدير.

ولأنه الخالق لكل شيء فهو القدير على الخلق، ولأنه المحيي والمميت والباعث فهو على كل شيء قدير، ولذلك فإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، قال تعالى: {وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 263، ولذلك فأصبر على ما يصيبك ولا تقنط من رحمة الله، فإن استعجلت قد تؤدي بك العجلة إلى الندم ولهذا فعليك بالصبر، {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} 264.

ولأن الصبر مُفرج لكل كرب جعل الله الدارين للصابرين على الطاعة والهداية والإيمان التام وعمل الخيرات الحسان، ولهذا من يكون على العجلة قد يجني من عجلته ما لم يكن متوقعا، قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} 265.

262 المائدة 40.

263 الأنعام 17.

264 النحل 128.

265 آل عمران 30.

وتحذير الله للعباد من أجل العباد ولذلك يكون الاستغراب من الذين لا يؤمنون ولا يستمعون القول فيتبعون أحسنه، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } 266، الدار الدنيا جميلة لأنها من خلق الله تعالى وإبداعه لها إبداعا، ولذلك فلا ينبغي أن ينسى العباد نصيبهم منها كما نُصح قارون بها من قومه مصداقا لقوله تعالى: { وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } 267، ولأن الحياة الدنيا مؤقتة فلا يعتمد عليها بالمطلق فهي الزائلة وهذه فضيلة يؤمن المؤمنون بها وهم صابرون، ولذا فأصحاب العقول والحكمة يؤمنون بالحياتين الدنيا والآخرة ولهذا فهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا وفي الآخرة هم خالدون وبهذا فهم الوارثون للدارين قال تعالى: { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } 268، وقال تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ

266 التوبة 38، 39.

267 القصص 77.

268 البقرة 269.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {269}.

وعليه: الوارثون في الدارين هم الصابرون المستغفرون التائبون
والمسبِّحون والمتركون والمتصدِّقون والركع السجود الآمرون بالمعروف
والناهون عن المنكر إنهم مكثري الخيرات طاعة وإيماناً لله الواحد
القهار، قال تعالى: {وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا
حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ} {270}، ولذا فالمتاع الحسن إلى أجل مسمى (أجل الصابرين)
هو في الحياة الدنيا والمتاع الحسن بالمطلق هو في الحياة الآخرة، فلا
ينبغي أن ينسى المؤمن نصيبه في الدار الدنيا ولا يجعلها مبلغ همه
وغمه فالدار الآخرة خير وأبقى، قال تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى} {271}، قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا
حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مِنَ الْمُخْضَرِينَ} {272}.

وعليه: فالذين يؤمنون بالقدير جلّ جلاله هم الصابرون حقًا
وهم الذين لا يقنطون من رحمته الواسعة فهو على كل شيء قدير،
ولذا فهم صابرون على الإيمان دون قنوط ولا يأس ولذا فهم
سينتصرون بما أنهم على الحق وبالحق يعملون ومن اجل إحقاقه

269 المؤمنون 11.1.

270 هود 3، 4.

271 الأعلى 17.

272 القصص 60، 61.

جادون إلى أن يعم السّلام في الأرض ويكون النّاس كافة أخوة متحابين.

ولأنّ القادر جلّ جلاله فمن جعله القدير القادر عقيما بالمطلق فعليه بأن يقبل ويصبر ويعلم أن الله في أمره شؤون فليتقي الله ربّه ولا يظلم أحدا، وأن يحمّد ربّه على ذلك الذي لو شاء لجعله شيئا آخر أو جعله على حال آخر قد لا يكون على أحسن حال فالحمد لله ربّ العالمين على حُسن خلقه وتقديره لكل شيء تقديرا.

ولأنّ المؤمن لا يقنط من رحمة الله الواسعة فلا يستعجل بإصدار الأحكام فما يقلقك اليوم قد لا يقلقك غدا وقد يسعدك كثير من بعد غدٍ، ولذلك فلا تقنط ولا تستعجل وكن من الصابرين كما كان ذو الكفل من الصابرين.

ولأنّ الصابر هو غير المستعجل وهو من ينظر إلى الأمور من زويا التوافق الزمني مع التوافق المكاني مع مراعاة الظروف الخاصة بالأحوال والآمال فأن الصبور من هو أكثر صبرا والصابر هو من يؤمن بمشيئة الله وقدره ويرضى بها ويعمل كل ما من شأنه أن يحقّق له الرضا في مرضاة الله دون كلل ولا ملل.

ولذا؛ فالصبور الحقّ هو:

الصبور جلّ جلاله؛ هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدود لا يؤخرها على آجالها المقدورة لها تأخير متكاسل ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة.

والصبور هو من استمد الصابر صبره منه فلو لم يكن الصبور ما كان للصبر وجود، ولذا فالصبور هو: "المعتاد الصبر القادر عليه وهو اسم من أسمائه تعالى ومعناه أنّه لا يعاجل العصاة بالانتقام مع القدرة عليه"273.

وأما صبر العبد فلا يخلو عن مقاساة لأن معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير سمي صبورا إذ جعل باعث العجلة مقهورا و باعث العجلة في حقّ الله سبحانه معدوم فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود ولكنه مقهور فهو أحقّ بهذا الاسم بعد أن أخرجت عن الاعتبار تناقض البواعث ومصابتها بطريق المجاهدة274.

إذا فالصبر دليل قوّة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنّه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها.

والصبر في حقّ الله تعالى يكون درسا في التوازن والنظام، أي أنّه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته جلّ جلاله هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه وفق نظام و سنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عبادته، ولهذا كان الأنبياء والرّسل صلّى الله عليهم وسلّم صابرين صبورين بعموم رحمته عزّ وجلّ (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ).

273 المعجم الوسيط، ج 1، ص 1049.

274 الغزالي، المقصد الأسنى، ص 149.

2. مرحوم:

المرحوم هو المتمم بمكارم الأخلاق والمتمم بالحسنات الكريمة وهو المجازي برضا الله وفضله.

ولأنّ المرحوم هو من أتم الله عليه النعمة الحسنة لذا فإنّ المتمم هو من أتم رحمته على من اهتدى والقوة على من أسلم وجهه إليه.

إذا المرحوم هو من رُحِمَ بإتمام النعمة عليه والمتم هو الله الذي لا يكون إلا على الكمال والجمال والتمام والجلال والإكرام والوجود والسعة والعظمة.

ولأنّ الله هو المُنْتَمُّ فأتم الدين الإسلامي الذي بعث به محمد رسولاً صلى الله عليه وسلّم، بالرغم من الجهود التي واجهته من الكفار والمشركين والمنافقين، ولكن إرادة الله ليكون الدين هو الإسلام آمن به الكثيرون أفواجا أفواجا مصداقا لقوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} {275}، ولذلك أتم المتم نوره ولو كره الكافرون، قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} {276}.

ولأنّ المتم جلّ جلاله بعث رُسُلَهُ ورسالاته وأنبيائه رحمة للعالمين عبر الزمن فكان البعض للخاصة من أقوام وشعوب وقرى ومدن وكان محدّد رسولاً خاتماً لإتمام مكارم الأخلاق للناس كافة، ولهذا لم يكن الإسلام خاصاً بشعب أو قوم أو قرية أو مدينة بل هو رحمة للكافة، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ

275 النصر 1. 3.

276 الصف 8.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} 277، ولأنه المتم عز وجل فلم يُرسل رسالته مرة واحدة بل أرسلها على فترات طويلة وذلك وفقا للمستوى العقلي والحالة التي عليها الناس فجاءت الديانات السابقة لتمد الطريق للرسالة التامة رحمة من عند المتم جلّ جلاله والخاتمة للرسالات السابقة التي بها يؤمن المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين ولهذا الرسالة التامة هي الرسالة الرحمة التي لا تفرق بين أحدٍ من رُسُلِهِ مصداقا لقوله تعالى: {أَمَرَ الرَّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 278.

ولأنّ المتم للنعم هو الرحمن الرحيم الذي استمد ذو الكفل صلّى الله عليه وسلّم صفة الرحمة والتمام منه، لذا كان التطابق بين صفة الرحمة عند ذي الكفل مع صفة خلقه على أحسن تقويم، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 279، ولهذا لقد ادخل الله عز وجل ذا الكفل في واسع رحمته مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا} 280، ولهذا لقد خلق الإنسان في أحسن تقويم وهو في حاجة للطعام والماء والهواء والرعاية والملبس والمركوب وهكذا هو دائما سيظل في حاجة وذلك بأسباب تطور الحاجات وتنوعها وتعددتها في مقابل تنوع وتعدد وتطور أساليب وطرق مشبعاتها، ولأن الله تعالى هو المتم فجعل إلى جانب خلق الإنسان خلق الأشجار المتنوعة رحمة بثمارها

277 التوبة 32، 33.

278 البقرة 285.

279 التين 4.

280 الأنبياء 85، 86.

المتعددة والمتنوعة وخلق الدواب رحمة ليركبها ويستثمرها بما يفيد حياته وخلق البحار والأنهار واليابسة رحمة بجبالها ووديانها والسموات وما بينها وبين الأرض لأجل أن تتم المخلوقات بعضها البعض بما يحقق لكل مخلوق من إشباعات ورعاية وعناية ومعيشة فتعددت نعم الرحمة من الرحمن الرحيم نعمة على كل ما خلق وبما خلق سبحانه لا إله إلا هو المتم للرحمة بين خلقه دون أن تنقص عن أحد من خلقه، قال تعالى: { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } 281.

ولأن الحق تبارك وتعالى هو الذي يُريد للحق أن يُحقَّق فكان عليه إحقاقه إتماماً لوعده وإرادته لمشية خلقه، ولأنه الحق وهو يريد للحق أن يحقَّ إذا من لا يؤمن بالحق ليس له مكان فليؤمن أو يكفر وفي كلا الحالتين الأمر لا بد وأن يتم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل، قال تعالى: { وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } 282.

ولأنه المتم جلّ جلاله فلا شيء يشاؤه رحمة إلا أن يتم في المكان والزمان الذين يشاؤهما المتم عزّ وجلّ فما أرادته فرعون لم يتم وما أرادته المتم رحمة فقد تم.

281 النحل 81 .83.

282 الأنفال 7، 8.

لقد جمع فرعون السحرة ليعيق سبيل موسى في إحقاق الحق فأبطل الله سحرهم وجعل عصا موسى آية رحمة (حية) تلقف ما يأفكون فأسلم السحرة لله رب العالمين، قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} 283.

وعليه: فالمرحوم هو المحظوظ الذي باركه الله بالنبأ العظيم كما بارك ذا الكفل برحمة منه (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا).

والمرحوم من خلق الله عز وجل هو من أحل الله له الحلال وحرم عليه المحرمات وبيّن له سبل كل منها وغاياتها البعيدة والقريبة المرجوة وغير المرجوة، فكانت رحمته عز وجل بما احل لهم من الطيبات وبما حرم عليهم من محرمات وما نهاهم عنه من منهيّات تبيانا للحق حتى لا يكون للناس حجة، قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدُمُ وَالْحَمُّ الْحَنِزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَمَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 284.

283 يونس 79 . 82.

284 المائة 3.

وعليه: فالخليفة هو المستمد صفاته من صفات خالقه وهو
المقتدي بسُنن أنبيائه ورُسله الذين اصطفاهم واجتباهم ووهبهم
للناس رحمة من رحمته الواسعة واستخلفهم في الأرض وجعلهم
الوارثين فهم أولئك الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم
ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ويقولون سبحانك ما خلقت
هذا باطلا.

إذا الخليفة هو الذي تتجسد الرحمة في أقواله وأفعاله، حتى يكون
رحيما على نفسه وعلى الذين تربطه بهم علاقات الأبوة والأمومة
والأخوة وذي القرى والجيرة حتى تسود الرحمة بينهم رحمة، قال تعالى:
{مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
بَيْنَهُمْ} 285.

فمحمد صلى الله عليه وسلم والذين معه هم الذين يؤمنون بمن
استخلفهم وقبلوا أن يكونوا خلفاء بحملهم الرسالة (رسالة الخليفة)
أما الذين استخلفوا ولم يقبلوا بأن يكونوا الخليفة فهم أولئك الذين
كفروا جحودا ونكرانا لفضل من استخلفهم في الأرض. هؤلاء هم
الذين أعطاهم المستخلف العقل فكفروا بما أعطي لهم، وهم الذين
عرض عليهم الأمانة وقبلوها ثم بعد ذلك تخلوا عن حملها، وهم
الذين أنعم الله عليهم بنعم لا تحصى ولم يُقدِّروها حقَّ قدرها هؤلاء
هم المعنيون بالكفرة الذين لا يمكن أن يكونوا الخليفة.

الخليفة هو الرحيم الذي يلين قلبه ويرق لقول الحق وفعل الخير،
ومساعدة المحتاج، ورعاية اليتامى، ومناصرة المغلوب ظلما، ورفع
الضيم عن المضام.

وبما أنّ من أسماء الله تعالى وصفاته الرَّحِيم، إذا بطبيعة الحال من يخلفه يجب أن يكون رحيمًا، حتى تُستخلف الرَّحمة بين النَّاس، لتعم بينهم ويتوادون بأعمال الخير، ولهذا كانت عواطفنا ترق بحالنا حتى نرق على غيرنا بإحسان، ويعطف الصغير على الكبير مثلما يعطف الكبير على الصغير وإلا هل هناك من يخلف شيء ولا يترك فيه شيئًا من صفاته، ولهذا جميع الكائنات تخلف بعضها البعض بصفاتها وخصائصها، وعلم الجينات يثبت ذلك بكل وضوح.

والرَّحِيم اسم لله تعالى، ولأنَّ اسمه الرَّحِيم، ومن صفته الرَّحمة، إذا لا يمكن أن يَقْنُطَ فاعل خير أو مؤمن من رحمته، {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} 286.

ولهذا، التمسك بالأفعال الحسان هو الدليل على ممارسة الخليفة لدوره الطبيعي، أما الذين لم يقدّموا على أداء الأفعال الحسان فهم المنحرفون عن نهج الخليفة على الأرض، ولذا أحسن يُحسّن إليك، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 287.

إذا التمسك بالقيم والفضائل الإنسانية والعمل بها له جزاء حسنٌ من قبل الذين يُقدّم لهم كلما قدّروه، ومن ورائه جزاء أعظم من الرحمن الرَّحِيم، وفي مقابل ذلك إنزال الضرر بمن لا يعمل صالحًا، وذلك بالعقاب في الحياة الدنيا متى وقع بين أيدي النَّاس الذين وقع عليهم منه ضرا يستوجب عقابًا أو قصاصًا عاجلاً، والضرر الأكبر يلاحق الضرر الأصغر حتى يدعمه يوم القيامة إن لم يقع العفو بأسباب تجب ما قبلها.

286 الرحمن 60، 61.

287 فصلت 46.

وبما أنّ الله هو الرّحمن الرّحيم، إذا الرّحمة آتية لا محالة، وبما أنّها آتية لا محالة لكل من يتقدم لها، إذا فلماذا القنوط؟ ولماذا لا تُفتح صدور البعض لاستقبالها واحتضانها؟

وعليه: فمن يريد أن يعمّ برحمته الواسعة فعليه بالإيمان، الإيمان بأنه المستخلف بصفات كرام فلا يسيء إليها حتى لا يسيء لنفسه وللآخرين. وعندما يكون كذلك تكون الرّحمة من نصيبه كما كانت لذا الكفل صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا فهي ضمان لكل مؤمن، وأمل لكل إنسان ضامر لفعل الخير.

ولذا، فمن يريد أن يكون الخليفة عليه أن يستمد صفة الرّحمة من الرّحمن ويستمد فعلها من الرّحيم الذي أوجب الجنوح للسلم كلما مال الخصم أو العدو إلى إبرام صلح أو عقد مسالمة. أمّا الاستكبار فلا يؤدي بصاحبه إلا للهلاك، {فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحِزْبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأَخِرَةِ أَحْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ} 288.

الله جلّ جلاله هو القوّة بذاته فمن يحاول أن يستكبر على القوّة فلا بد أن يُهزم، ولو لم يكن رحيم لكان العقاب في حينه على كل فعل، ولأنه كذلك يؤجل العقاب عن معظم الذنوب حتى يكون للإنسان الزمن والفرص الكافية للتبئّن من أجل التكفير عن السيئات.

3. صالح:

الصالح هو البريء من التهم، والمبرئ من الذنوب والعيوب، وهو المهياً للأعمال والأفعال الحسان أو النبا العظيم والرسالات الخالدة، وهو من صلحت نفسه وتطهرت رحمة من الله تعالى، وعلى العموم فالبريء أيضا هو من قُضي ببراءته من التهم.

والبارئ هو من لا تلحقه التهم، وليس بناقص، ولذا فإنّ البارئ المطلق هو الذي لا تلحقه التهم بالمطلق وليس بناقص، والبارئ بالإضافة هو أيضا لا تلحقه التهم وإن رُمي بها، ولكن ليس بكامل، فالكمال خاصية الخالق التي لا يصلها المخلوق وإن سعى.

ولأنّ البراءة من الذنوب والآثام طهارة للنفس، فإن من يرمي أحدا بخطيئة لم يرتكبها فقد احتمل بهتاناً مبيناً مصداقاً لقوله تعالى {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} وَمَنْ يَكْسِبْ حَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا {289}.

وفي اللغة البراء مرادف لبرئ، والتبرؤ إنكار لباطل قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ} 290، أي أنه لا يعترف بما يعبدون من دون الله، ويُقر بأن ما يعبدونه باطل ويكفر به.

والمبرأ هو المستخلف في الأرض وذلك لأنه حُلق صالحاً ومناسباً لأن يكون خليفة فيها، ولهذا الأمر برأ الله تعالى الإنسان أي استحدثه وأوجده من الشيء المخلوق من لا شيء، وذلك لأداء

289 النساء 111، 112.

290 الزخرف 26.

المهمة والغاية التي خُلق من أجلها أو خُلق إليها، كما هو حال ذو الكفل صلى الله عليه وسلم الذي ادخله الله في رحمته ووصفه بأنه من الصالحين الكرام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} {291}.

ولأنّ البارئ هو الخالق العادل المقدر لكل شيء تقديرا، فهو الذي لا يظلم أحدا وهو الذي يكيد كيد الكائدين، ومكر الماكرين مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا} {292}، وقوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ} {293}.

ولأنّ الصالح هو المبرأ فقد براء الله موسى من الذين آذوه مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} {294}.

ولذا؛ فالبراءة نزاهة من غشٍ، وطهارة من دنس، وتخلص من ذنب، من أجل التمسك بالحقّ واتباعه، {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} {295}.

291 الأنبياء 85، 86.

292 الطارق 15، 17.

293 الأنفال 30.

294 الأحزاب 69.

295 الأنعام 18، 19.

والباري بالإضافة هو الميراث من المعصية، والمتصف بالطاعة
والصلاح، وهو الذي يعرف الحق فيتبعه ويعرف الظلم فيجتنبه، وهو
الصالح الذي يؤمن بالكمال الإلهي ويؤمن بانعدام التماثل والتطابق
معه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 296. أمّا أولئك
الذين يتبرؤون من أعمال الخير ويلبسونها بالباطل فهم الذين
يُفسدون في الأرض بأقوالهم وأفعالهم حتى يتصفوا بالبراء من الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يكونوا من المستخلفين الوارثين في
الأرض ولا يكونوا من أصحاب الجنة.

والتبرؤ الحق هو العمل الصالح الذي يؤدي إلى التخلي عن
ارتكاب مسببات الذنوب والآثام، في مقابل التمسك بمُصلحات
الأمر، ولهذا كان ذا الكفل من الصالحين، وكان الله برئ من
المشركين مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ} 297. والتبرؤ الباطل تخلي عن قول الحق وفعله وفي هذا
الأمر قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ
بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} 298.

ولذا؛ فإنّ البريء الحق هو الصالح الذي لا يرتكب ذنبا ولا
خطيئة، والبريء الباطل هو من لا يفعل خيرا إلا افتراء قال تعالى:
{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا
بُحِرْمُونَ} 299. وقال تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى

296 الشورى 11.

297 التوبة 2.

298 يونس 41.

299 هود 35.

نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ حَظِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا {300.

وعليه: فالصالح هو المقتدر إعدادا من حيث العلم والحكمة والإرادة في إحقاق الحقّ قول وعمل وأفعال حسان، ولذا فالصالح هو من كان مقتدر على ذلك، وهو من صلحت أعماله وصفت نبئته وسلكت سلوكا في مرضاة الله.

ولأنّهُ المقتدر تسليما فهو المؤيد والمناصر والنصير لمن كان صالحا وجاءه مسلما، وهو المكيد لمن يكيد كيدا وهو الماكر بمكر الماكرين بخيره في المكر العظيم، ولذا إنه خير الماكرين باقتداره جلّ جلاله.

ولأنّهُ المقتدر فما من كبيرة ولا صغيرة إلا بأمره وتحت هيمنته بالقوّة والقدرة التي بها يكون الصالحين مصلحين في الأرض وهؤلاء الصالحين يعلمهم الله وإن ذكر منهم الأنبياء الذين منهم ذا الكفل إلا أن الصالحين والأبرار كثيرون وأمرهم لا يعلمه إلا الله الذي عنده مفاتيح الغيب ويعلم من في البر والبحر وفي أي مكان هو يعلمهم، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ {301.

ولأنّهُ المقتدر فما من كبيرة ولا صغيرة إلا وهي مُسَطَّرَةٌ في رسالات أنبيائه ورُسُلِهِ الكرام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ، قال تعالى: {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهْرٍ فِي مَقْعَدِ

300 النساء 11، 12.

301 الأنعام 59.

صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ {302}. من هذه الآيات الكريمات يفهم أن المقتدر هو من لا يغفل ولا ينسى ولا تأخذه سنة ولا نوم وهو على كل شيء شهيدا وقديرا، وهو الذي يعلم بأمر كل دابة في الأرض وهو رازقها رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها وكل شيء في كتاب مبين، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيُقُولَنَّ مَا يُحْسِبُهُ آلَا يَوْمٍ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيُقُولَنَّ مِنْهُ إِنَّهُ لَيَبْغُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيُقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {303}.

ولأن المتقين هم المسلمون بأنه لا مقتدر غير الله، لذا فهم الصالحون الذين لهم من المقتدر العظيم التواب العظيم، {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ {304} أي أن المسلمين وجوههم لله المقتدر الصالحون حقًا وهم في جنات النعيم الوافر الذي نعمه لا تُحصى وأنهاره لا تُحصى ونهاره لا يغيب وهم في الحفظ والسلامة عند ملك مقتدر على كل شيء وبكل شيء سبحانه أنه المقتدر الأعظم جلّ جلاله.

³⁰² القمر 53 . 55.

³⁰³ هود 6 . 11.

³⁰⁴ القمر 54 ، 55.

ولأنه المقتدر بالرحمة فهو المقتدر بالشدة أيضا التي تجعل من
الضعف قوة ومن الفساد إصلاح ومن المفسد مُصلح، قال تعالى:
{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا} 305.

ولهذا؛ فلماذا التفاخر بالحياة الدنيا الزائلة فكثيرون هم عاشوا في
الدنيا وعتوا فيها فسادا وانتهوا دون أسفٍ عليهم فهم لم يكونوا
صالحين ليكونوا أسوة حسنة يهدون الناس سبل الفضائل الخيرة
والقيم الحميدة التي لا تكون إلا في مرضاة الله تعالى.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يكون مقتدرا على الخير وأفعاله
كما كان الرسل الذين منهم ذو الكفل، (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا
الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ)،
أي أنهم من الصالحين طاعة وإيمانا بالمقتدر الأعظم جلّ جلاله،
ولكي يكون الإنسان صالحا ومُصلحا في الأرض لا مفسدا فيها
عليه بتأهيل نفسه على الطاعة للمقتدر المطلق، وتأهيلها حتى تلم
بمقاليد القوة والقدرة والصلاح في دائرة الممكن ليقوى عودها فتُصلح
وتعمّر وتبني وتعمل الصالحات والمصلحات النافعات التي تفيد العباد
والبلاد ولا ينبغي أن تكون النفس من المستهلكين الذين يجلسون
على قارعة الطريق وأرصفتها الشوارع بطالة وهم صاغرُ الأنفس.

وعليه فالبارئ قد براء أنبيائهم من كلّ ما نعتوا به بغير حقّ،
وهذا النبي ذو الكفل مبرء من الباري الأعظم جلّ جلاله، ولذلك
فصفة الباري تحتوي في مضمونها البراءة من الشريك والصاحبة

305 الكهف 45.

والولد، وهو الخالق الذي لا يُخلق. وهو الذي تعود له أفعال الخلق الكاملة مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } 306.

والبريء من قُضي ببراءته من التهم. والبارئ من لا تلحقه التهم، وليس بناقص. ولذا فإنَّ البارئ المطلق هو الذي لا تلحقه التهم بالمطلق وليس بناقص، والبارئ بالإضافة هو أيضا لا تلحقه التهم وإن رُمي بها، ولكن ليس بكامل، فالكمال خاصية الخالق التي لا يصلها المخلوق.

ولأنَّ البراءة من الذنوب والآثام طهارة للنفس، فإن من يرمي أحدا بخطيئة لم يرتكبها فقد احتمل بهتاناً مبيها مصداقا لقوله تعالى { وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا } 307.

وفي اللغة البراء مرادف لبرئ، والتبرؤ إنكار لباطل قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } 308 أي أنه لا يعترف بما يعبدون من دون الله، ويُقر بأن ما يعبدونه باطل ويكفر به.

والمبرأ هو المستخلف في الأرض وذلك لأنَّه خُلق صالحا ومناسبا لأنَّ يكون خليفة فيها، ولهذا الأمر برأ الله تعالى الإنسان أي استحدثه وأوجده من الشيء المخلوق من لا شيء، وذلك لأداء

306 الانفطار، 6. 8.

307 النساء، 111، 112.

308 الزخرف، 26.

المهمة والغاية التي خُلق من أجلها أو خلق إليها، وهي الإصلاح في الأرض.

البارئ هو الخالق العادل المقدر لكل شيء تقديراً، ولأنه البارئ فهو الذي لا يظلم أحداً ويكيد كيد الكائدين، ومكر الماكين قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} 309.

البارئ هو الذي يُبرئ المظلوم مما ظلم به، كما برأ موسى عليه الصلاة والسلام من الذين آذوه والبراءة نزاهة من غشٍ، وطهارة من دنس، وتخلص من ذنب، من أجل التمسك بالحق.

والباري بالإضافة هو المبرئ من المعصية، والمتصف بالطاعة، وهو الذي يعرف الحق فيتبعه ويعرف الظلم فيجتنبه، وهو الذي يؤمن بالكمال الإلهي ويؤمن بانعدام التماثل والتطابق معه. أمّا أولئك الذين يتبرؤون من أعمال الخير ويلبسونها بالباطل فهم الذين يُفسدون في الأرض بأقوالهم وأفعالهم حتى يتصفوا بالبراءة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يكونون من المستخلفين الوارثين في الأرض ولا يكونون من أصحاب الجنة.

والتبرؤ الحق هو التخلي عن ارتكاب مسببات الذنوب والآثام، في مقابل التمسك بمصالحات الأمور. والتبرؤ الباطل تخلي عن قول الحق وفعله وفي هذا الأمر قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} 310.

309 الأنفال، 30.

310 يونس، 41.

ولذا فإنّ البريء الحقّ من لا يرتكب ذنبا ولا خطيئة، والبريء الباطل هو من لا يفعل خيرا إلا افتراء.

قال تعالى: {قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ} 311. وقال تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} 312.

البارئ اسم من أسماء الله الحسنى مصدقا لقوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} 313. هو الله الخالق، الذي خلق الشيء ثم خلق منه الأشياء، ولأنّه الخالق الأعظم، فهو البارئ الأعظم المكون لما خلق، أي أنّه المقدّر والعارف بالحالة التي يكون عليها الخلق بجميع أنواعه وخصائصه، من يوم خلقه حتى يوم بقائه من بعد بعثه. ولذا فلو لم يكن الخالق ما كان البارئ، ولو لم يكن البارئ ما كان المصور، فهو عزّ وجلّ يخلق الشيء من لا شيء، ويبرأه بالخاصية التي تميزه عن بقية الخلق، ثم يصوّر كل شيء كما يشاء. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 314.

وقال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

³¹¹ هود، 35.

³¹² النساء، 11، 12.

³¹³ الحشر، 24.

³¹⁴ آل عمران، 6.

وَحَدَّهُ {315}. إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام والذين معه هم براء بما يعمل المشركون، وهم المستخلفون في الأرض ليحكموا بما يُرضي الباري عزَّ وجلَّ.

وبراء جمع برئ، وهم الذين آمنوا بالبارئ المصوِّر عزَّ وجلَّ ووحدوه وكفروا بما يعبد المشركون من آلهة وأصنام.

والبارئ هو الخالق جلَّ جلاله، وبارئكم هو خالقكم بعناية وإحكام وعن بينة بحالكم قبل خلقكم، وهو الخلق الذي من بعده تصورون في الأرحام حتى يتم الاكتمال الخلقى للكائنات عاقلها وغير عاقلها. فتوبوا إلى بارئكم تعني: توبوا إلى خالقكم الذي خلقكم في أحسن تقويم. وخير لكم عند بارئكم تعني: خير لكم عند خالقكم تعالى. ولهذا فالبارئ عزَّ وجلَّ هو الخالق جلَّ جلاله. ولا فرق بين الأمم المخلوقة من الباري عزَّ وجلَّ، فهي جميعا خلقت تحت الرعاية الإلهية وبأمر الخلق (كن) وجميعها خلقت وأرزاقها على الله سابقة عليها دون فرق أو تمييز غير عادل، كلها في حاجة، وجميعها تشبع وتروى، وجميعها لا تموت قبل يومها، وجميعها تستجيب لله تعالى بالسجود وتسبح بحمده. والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره سبحانه ما أعظم شأنه.

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنْ

315 الممتحنة، 4.

النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}316. عرفنا في هذه الآية الكريمة القضايا الآتية:

القضية الأولى: أنّ كل ما في السماوات والأرض يسجد لله تعالى، وهذا يدل على أنّ السجود لم يكن مقتصرًا على السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم، بل أنّه يعم كل من هو في كل منها؛ وهذا يدل على أن الحياة هي في كل السماوات والأرض التي لم تكن الشمس والقمر والنجوم جزءًا منها حيث لو كانت لما دُكرت بمسمياتها إضافةً للسماوات والأرض.

القضية الثانية: في قوله تعالى: (وكثير من الناس) تؤكد على التبعية الموجب، وعلى أنّ المخلوقات جميعها تسجد لبارئها تعالى إلا بني الإنسان وكذلك الجن منهم الصالح والطالح لا يسجدون جميعًا، فسبحان الله لقد فضّل الله بني الإنسان وخلقهم في أحسن تقويم وهم الذين يتبرأ بعضهم من السجود لله تعالى. والموجب من هذه القضية أنّ الساجدين هم الخلفاء في الأرض والوارثون فيها والجنة من بعدها.

القضية الثالثة: التبعية السالب بقوله جلّ جلاله: (وكثير حقّ عليهم العذاب) وهؤلاء هم العصاة الذين أبوا السجود لبارئهم تعالى، وهؤلاء هم الذين لا يستخلفون في الأرض حيث إضمارهم على الإفساد فيها بغير حقّ. ولذا فإنهم هم الذين تلاحقهم اللعنات وهم أصحاب النار خالدون فيها أبداً.

المبرؤون هم المنزهون، والبارئ عزّ وجلّ هو المنزه بالمطلق فلا يلتصق به شيء سوى صفاته الحسان، لا إله إلا هو سبحانه فلو لم

316 الحج، 18.

يكن خالقا ما كان بارئا ولو لم يكن بارئا ما كان مصورا، ولأنه الله تعالى فهو الخالق البارئ المصور وله الأسماء الحسنى.

ولأنّ المرئيين هم المنزهون قال تعالى: {الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} 317. الحبيثات والحبيثون هم المبرؤون من التطهر وذلك لما لحقّ بهم من انعدام الطهارة وعلق بهم من رجس وأدران. أمّا الطيبون والطيبات فهم المبرؤون من الخبائث والنجاسة والوساخة، وذلك لما علق بهم من طيب وما لحقهم من طهارة في النفس والبدن.

ويقال هذه الآية نزلت لتبرئ عائشة وصفوان رضي الله عنهما، ممّا قيل فيهما بغير حقّ، فالمبرؤون بآيات الله تعالى الأنبياء والصالحون من العباد فيوسف عليه الصلّاة والسّلام لما رمي بالفاحشة برأه الله تعالى، وموسى عليه الصلّاة والسّلام برأه الله تعالى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وأن مريم عليها السّلام لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى على لسان ابنها عيسى عليه الصلّاة والسّلام، وأن عائشة رضي الله عنها لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن 318. وهكذا دائما يبرئ الله تعالى عباده الصالحين رجالا ونساء ممّا يرميهم به المبطلون. قال تعالى على لسان يوسف عليه الصلّاة والسّلام: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم} 319. ويوسف عليه الصلّاة والسّلام حتى لا يظن فيما يقول مع أنّه الواثق من

³¹⁷ النور، 26.

³¹⁸ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثاني عشر، ص 211. 212.

³¹⁹ يوسف، 53.

نفسه بأنها لم تأب ارتكاب ما رميت به إلا أن شهادة الشاهد من أهلها كانت قول حق كما جاء في قوله تعالى: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} 320.

ولأنَّ الباري بالإضافة يؤمن بالبارئ المطلق فهو يُبرأ بالآتي:

1 . الإيمان بالله ورسله وكتبه وأمره تسليما وطاعة: قال تعالى: {أَمَّنَ الرَّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} 321

2 . تكفير السيئات والخطايا: فالنفس أمانة بالسوء إلا من رحم

رَبِّي .

3 . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

4 . إحقاق الحق وإزهاق الباطل قولاً وعملاً.

5 . الإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها.

³²⁰ يوسف، 25 . 28.

³²¹ البقرة، 285.

6 . البقاء على خاصيته الإنسانية التي برأه عليها البارئ عزّ وجلّ.

7 . تذكُّر قول الله والتوقف عنده.

8 . التفكير في خلق الله والتطلع إليه.

9 . الحفاظ على أحسن تقويم دون غرور.

10 . التصديق والتقوى.

البراءة صفة تستمد من صفة البارئ عزّ وجلّ، الذي برأ نفسه بالوحدانية والقدرة المطلقة، وبرأ المؤمن المستخلف في الأرض من النار وبرأه من الشرك به، ولذا فإن براءة المؤمن من النار تورثه الأرض وتبعثه مقاما محمودا. ولأن البراءة تستمد من الخالق فهي تسري في مراحل المخلوق الآتية:

. المرحلة الأولى براءة الخلق: تبرئة المخلوق بخلقه، الذي سيظل عليه كائنا بخاصيته التي تميزه عن غيره من المخلوقات. فالإنسان خلق مبرا بخاصية الإدراك الواعي بالتفكُّر والتذكُّر والاستقراء والاستنباط والتخيل والتذوق المعرفي للكلمة والمعنى والصورة.

فبراءة الخلق كانت الجينات البشرية خاصة بالنوع البشري ومختلفة عن جينات الأجناس الأخرى من الكائنات والحيوانات التي بُرئت بخواصها المميزة لها عن خواص غيرها ممّا جعلها تتعدد وتتنوع وتختلف بطبائعها ووظائفها، وحياتها وعلاقاتها.

. المرحلة الثانية براءة الصورة: لقد برأ البارئ الإنسان من العيوب والنواقص التي تلتصق بالحيوانات والمخلوقات الأخرى قال تعالى:

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 322 في أحسن تقويم تعني: في أحسن صورة، أي في أحسن ما ينبغي أن يكون المخلوق عليه شكلاً ومضموناً {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبِّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 323 هذه الآية الكريمة تؤكد خاصية التمييز التي يتميز بها الإنسان عن بقية المخلوقات الأخرى ولذا قال تعالى: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِيرَهُ} 324 وهذه البصيرة هي التي يمتاز بها من خلق في أحسن تقويم إذا ما قورنَ بغيره من المخلوقات الأخرى التي تمشي على أربع أو تزحف وتمشي مكبة على وجهها وجميعها مسخرة للإنسان الذي يُراد له أن يكون خليفة في الأرض لما يمتاز به من معرفة وإدراك وقامة وبصيرة لم تعط لغيره من المخلوقات التي خلقت من أجل الإنسان وخلق الإنسان من أجل عبادة الله ومن أجل رعايتها ليمدها بالعناية من أجل بيئة سليمة وجميلة تمدّه بمحسنات الذوق الرفيع. مصداقاً لقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ} 325.

. المرحلة الثالثة براءة القول: الإنسان العاقل هو الذي يميز بين ما يجب ويُقدم على اتباعه وبين مالا يجب وبيتعد عن الإقدام عليه، والخليفة هو المبرأ بتوحيده لله تعالى من قول الشرك وقول الباطل والزور، وإذا حكم بين الناس حكم بالعدل وإذا شهد قال الحق ولا شيء غير الحق، وهو الذي يخاف الله في كل ما يقول، قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} 326.

322 التين، 4.

323 الملك، 22.

324 القيامة، 14.

325 القيامة، 22، 23.

326 القيامة، 36.

. المرحلة الرابعة براءة الفعل: ولأن الخليفة هو الذي يخاف الله عز وجل، فهو الذي لا يقدم على أداء ما حرّمه الله عليه، وفي هذا الامتناع تبرئة له من أن يرتكب ما لا يرضي الله جلّ جلاله. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 327. إن مرحلة الفعل هي مرحلة العمل التي يُبرأ بها الإنسان من الكسل ومن الاعتماد على غير الله، ولهذا فبالعمل الصالح يجازى الإنسان خيرا وبالعمل الطالح يجازى عذابا شديدا إن لم يغفر الله الذنب، قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} 328. ولأن العمل هو الذي يُبرأ به الإنسان فجعله البارئ خليفة له في الأرض ليعمل الأعمال الصالحة ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حق. {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} 329. بالعمل الصالح ينال العاملون المكانة الرفيعة، ويمتازون عن من لا يعملون الصالح الذي يرضى. {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} 330.

. المرحلة الخامسة البراءة من الحياة الدنيا ممّا جعل الموت رحمة: الدار الدنيا دار فانية، والإنسان الذي خلّق في أحسن تقويم لا يراد له أن يفنى بفنائها، بل يُراد له البقاء من بعدها في الدار الآخرة (دار البقاء السرمدية)، ولذلك فمن يرضى بالحياة الدنيا لن يكون له في

327 البقرة، 62.

328 يونس، 41.

329 التوبة، 105.

330 الأنعام 135.

الآخرة من نصيب، ومن يعمل صالحا في الدار الدنيا ينال النصيب الأوفر في الدار الآخرة ويفوز بالجنة. ولأن الدار الدنيا دار منقوصة، فإن المؤمن هو الذي لا يقبل برّبط مصيره بها، كما يعمل الكفرة وأصحاب الظنون. ولهذه الأسباب يُبرئ الله المؤمنين من اقتصار حياتهم عليها، فيميتهم ليقبوا من بعدها أحياء عنده يرزقون. ولذا فإن الموت هو المنقذ الوحيد من الدار الدنيا الذي من بعده تُفتح للمؤمنين أبواب الجنة.

ولأنّ المستخلفين في الأرض يؤمنون بأنّ الدار الدنيا فانية، والدار الآخرة باقية، ويعلمون علم اليقين لا يبقى في الدار الآخرة إلا المؤمن فعملوا عليها بما يمكنهم من العيش فيها عيشة راضية، وبعيشتهم فيها يجدون أنفسهم مبرؤون من التّار وبقون في الجنة.

. المرحلة السادسة البراءة من الموت: من المتعارف عليه عند العامة أنّ الموت باقٍ ليلحق الأحياء، حتى أنّهم يظنون بأنّ الموت باقٍ لا يموت، وفي هذا الأمر وكأنهم لا يعرفون بأنّ الموت مخلوق، ولأنه مخلوق فلا بدّ له من أن يموت كغيره من مخلوقات الدار الدنيا، والإنسان الضعيف الإيمان يخاف من الموت، أما قوي الإيمان فلا يخافه، فهو يؤمن ببقائه من بعده، ويعرف أن موته في الحياة الدنيا وهو مؤمن هو إيدان لانبعاثه حيا من جديد، ويعرف أنّ الموت الذي غلبه في الحياة الدنيا لن يكون له وجود في الحياة السرمدية، ولذا فالموت هو الذي سينتهي والخليفة هو الذي سيظل حيا.

فالبارئ هو الله تعالى، ومعناه خلق الخلق لا عن مثال يحتذى ولا عن صورة تقلد، ولا عن شكّل يحاكي ويدخل فيه معنى الإبداع، إلا أنّ البرء هو انفكك شيء من شيء بخلقه وتصويره، ولكن ليست بحساباتنا ولا بقياساتنا، لا بالحركة التي نعرفها ولا بالزمن الذي

نألفه، إيجاد الشيء وخلقته ثم استخلاص شيء آخر منه هو البرء، وإعطاء هذا الشيء شكله وأبعاده فهذا هو التصوير، وكون هذا الشيء لا عن مثل يحتذى ولا يشبه شيئاً سبقه من الخلق فهذا هو الإبداع، ولهذا فإن صفات الله تعالى لازمة لا تنفك عن ذاته العلية، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {331} فهذه الآيات الثلاثة التي ذكر فيها بعض صفات الذات الإلهية نرى أنها جميعاً ابتدأت بلفظ الجلالة ثم تلاها الصفات اللازمة، وكل مجموعة من هذه الأسماء هي على علاقة الاختصاص فيما بينها مثل (هو الله الخالق البارئ المصور) حيث جاء على ترتيب الخلق وبرئه وتصويره، ولكي يتضح معنى ما نقول نقف عند قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} {332} فكيف كانت السماوات والأرض رتقا في التصاقهما ببعضهما ثم برأ البارئ عز وجل كل خلق منهما على حدة، وما الذي برأه من السماوات؟ وما الذي برأه من الأرض؟ وكيف برأه؟ ولماذا برأه؟ سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

فإنسان لا يستطيع أن يستقل بمعرفة إجابات هذه الأسئلة، فهذه القضايا مما يدخل ضمن دائرة الغيبيات التي نستطيع أن نقف

331 - الحشر 22- 24

332 - الأنبياء 30

عليها من خلال النصوص المتواترة من الكتاب والسنة من معرفة أسماء الله الحسنى وصفات هذه الأسماء واختصاص كل صفة بنوع من الخلق الشامل أو بجزء منه لتكامل الصفات الإلهية وجلالها وجمالها، فالتفكر في هذه المسائل ممّا يزيد في حيرة الإنسان، ولا يمكن أن يقف على الإجابة الشافية الكافية لهذه المسائل إلا إذا هداه الله إلى اليقين الصحيح الذي يأتي بالقول الفصل في هذه القضايا ومثيلاًتها، لأنّ هذه القضايا تعد من الأمور الغيبية، والنصوص المتواترة هي التي تنفرد بالحقّ وقول الصدق، لأنّها وحي من الله أوحاه إلى أنبيائه ورسله، ولذا كان لزاماً على الإنسان أن يتأمل في آيات الله تعالى من خلقه حتى يأتي بالقول الفصل في هذه الأمور، فمن المعلوم أن كل شيء في هذا الكون منقاد لقاعدة معينة هي البرء والتصوير وهذه سنة ثابتة، فالشمس والقمر والنجوم والأرض مسخرات بأمره والعلم بأمرها لا يعلمه بالمطلق إلا هو البارئ جلّ جلاله، فهذا الكون وما فيه من السماوات والأرض وما بينهما من مجرات وكواكب وأقمار وشموس وما ينزل إلى الأرض وما يخرج منها، وما يهبط من السّماء وما يعرج فيها، ما هي إلا دلالات على قوّة البارئ وقدرته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وقدرة الله تعالى التي أوجدت الوجود وأبرأته بهذه الصور والأشكال والأجناس، وهذه الأجسام المسخرة في الوجود تصرفت بها العناية الإلهية بغاية متناهية من التصوير في إبداع المؤتلفات والمتوافقات، والمختلفات والمتناقضات، والمضادات والمترادفات، فمن تأمل أفعال البارئ سبحانه في برء مخلوقاته، رآها قائمة على قانون العدل والإصلاح من أجل إعمار الأرض واستمرار الحياة، والبارئ صفة خاصة بالذات الإلهية، إذ أنّها من صفات الوقف على الله تعالى، مثل الخالق والمصور والمتكبر، وهو وصفه المختص به، فليس لأحد

من المخلوقين أن ينازعه في تلك الصفات ولا يشترك معه بها مثل بعض الصفات ممّا هو مشترك بين الخالق والمخلوق كالرحمة والعلم، فالله سبحانه هو البارئ، وذلك لكمال عظمته وعزه وقهره وملكوته وبرئه الخلق بعضه من بعض بمادة مختلفة وأعراض متباينة وصور متغايرة، سواء أكانت من ذوات الأجسام المادية المحسوسة، كالزرع والضرع والمال والولد، أو غير ذلك من الأشياء المعنوية التي لا تدرك، لا بالحس ولا بالصورة، وإنما هي انعكاسات على الصور الحسية، كالخوف والحزن والفرح والسرور ومنافع شتى ومصائب هينة أو عظيمة وكل ما نذكره أو نعجز عن ذكره إن هو إلا في كتاب من قبل أن يبرؤه حيث قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} 333 فما نزل من مصيبة في الأرض من قحط أو نقص في الثمرات أو غير ذلك، ولا في الأنفس من مرض أو فقر أو موت أو غير ذلك إلا مكتوب في اللوح مثبت في علم الله من قبل أن يوجده في الأرض أو في الأنفس، وإن ذلك الإثبات للمصيبة أو لغيرها ممّا برأه الله تعالى كان محفوظاً في علمه، وذلك لإحاطة علمه بكل شيء، فهو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما من المصالح وما بينهما من المخلوقات فقد أحاط بها علماً قبل برئها وإبداعها وإخراجها إلى الوجود، وفي الآية دليل على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها في الوجود وكذا جميع أعمال الخلق بتفاصيلها مكتوبة في اللوح المحفوظ ليستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه تعالى عالماً بجمع الأشياء قبل برئها وليعرفوا حلمه فإنه تعالى مع علمه أنهم يقومون على المعاصي خلقهم وبرأهم ورزقهم وأملهم

وليحذروا من أمثال تلك المعاصي وليشكروا الله على توفيقه إياهم للطاعات، وعصمته إياهم من المعاصي وفيها دليل أيضا على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها لأن إنباتها في الكتاب محال، فمن عرف الله بالربوبية وافتقر إليه في إقامة العبودية وشهد بسره ما كشف الله له من آثار القدرة بقوله ما أصاب فسمع هذا من ربه وشهد بقلبه وقع في الروح والراحة وانشرح صدره وهان عليه ما يصيبه فإن قلت كان الله قادرا على أن يوصل العباد إليه بلا تعب ولا مصيبة فيكف أوقعهم في المحن والبلايا، فإننا نقول أن الله تعالى أراد أن يعرفهم بامتحان القهر حقائق الربوبية وغرائب الطرق إليه حتى يصلوا إليه من طريق الجلال والجمال ففي الآية تطمين للنفوس على الرضى بالقضاء والصبر على البلاء حتى أن الإنسان نفسه إذا تدبرت شأنه تبين لك أنه مدعن لسنن الله إذعانا تاما، فلا يتنفس ولا يحس حاجته إلى الماء والغذاء والنور والحرارة إلا وفقا للتقدير الإلهي المنظم لحياته، وتنقاد لهذا التقدير جميع أعضائه، فالوظائف التي تؤديها هذه الأعضاء لا تقوم بها إلا بحسب ما قرره الله لها على السنة التي برأها عليها، ومن تأمل الآفاق وما في هذا الكون من سماء وأرض، وما اشتملت عليه السماء من نجوم وكواكب وشمس وقمر، وما اشتملت عليه الأرض من جبال وأشجار وبحار وأنهار، وما يكتنف ذلك من ليل ونهار وتسيير هذا الكون كله بهذا النظام الدقيق، يدل ذلك على أن هناك بارئا لهذا الكون، موجدا له ومدبرا لشؤونه، وكلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع الكائنات علم أنها أبرئت من البارئ بالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين ودلالات على جميع ما علمناه وما لم نعلمه من براء النسمة إلى براء الأجرام، فالله هو الخالق البارئ المصور الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، ربّ المشرق

والمغرب. فالله سبحانه وتعالى يبين الدلائل الدالة على براء الوجود في حصول هذا الترتيب العجيب في الكون فالسّماء والأرض كانتا رتقا، أي كانتا شيئا رتقا ومتداخلا في بعضه البعض، فبرأ إحداهما من الأخرى، وبرأ من كل واحدة خلقها الذي يناسبها، بمعنى أنه استخلصه منها، ذلك أن الأجرام والأجسام قابلة للفتق والرتق في أنفسها، فالحكم عليها بالرتق أولا ثم بالفتق ثانيا هو خبر جاءنا عن طريق السمع الذي لا ينكره العقل، لأن الأجسام يصح فيها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعي بارئا يبرؤها، ولما كان الخالق هو البارئ، فأوحى في كل منهما الأمر الذي أراده بما يتناسب وطبيعة الخلق الذي يبرؤه فيها، قال تعالى: {قُلْ أَتَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} 334 فالبرء هو خلوص الشيء من غيره على اختلاف مواصفات كل منهما، حيث نقول: فلأن برأ من الدين أي لم يبق عليه دين، فالدين شيء يختلف عن المدين كل الاختلاف في مواصفات كل منهما، وكذلك الرجل برأ من المرض، فالأمراض شتى حيث يختلف كل مرض بمواصفاته وأعراضه عن غيره، وكذلك المريض الذي يختلف بمادته وجوهره عن أعراض الأمراض التي تصيبه، وعندما يبرأ منها، فهو ينسل عنها وهي تنسل منه وكل له مواصفات

البرء الخاصة به، فإذا فهمنا البرء بهذا المعنى أصبح لنا القدرة على تصور كيفية برء السماوات والأرض من بعضهما على الرغم من اختلاف المواصفات والخصائص.

فالله سبحانه وتعالى أخبر بخلق السماوات والأرض وما تضم من الأفلاك حيث برأها من بعضها وخلق الزمان الذي هو مقدار حركتها، مع الإخبار بأنها خلقت من مادة قبل ذلك، وفي زمان قبل هذا الزمان فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وسواء قيل أن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدر بطلوع الشمس وغروبها أو قيل أنها أكبر منها كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ {335} فلا ريب أن تلك الأيام التي خلقت فيها السماوات والأرض غير هذه الأيام وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك، وربما تلك الأيام مقدره بحركة أجسام موجودة قبل خلق السماوات والأرض، ومهما يكن مقدار ذلك اليوم فالبارئ واحد أحد هو نفسه بديع السماوات والأرض، ومع ذلك فالبارئ عز وجل يبرأ مخلوقاته من بعضها على الرغم من اختلاف المخلوق الأول عن التالي واختلاف التالي عن الذي يليه وهكذا، وقد أخبر سبحانه أنه (استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) فخلقت من الدخان. وقد جاء الإجماع على أنها خلقت من بخار الماء، وهو الماء الذي كان العرش عليه والذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ {336} وبصرف النظر عن القوانين الفيزيائية التي تقرر أن للماء ثلاث صور

335 - الحج 47

336 - هود 7

أو ثلاث حالات هي الجامدة والسائلة والغازية، فإننا نرى فيها أوضح أنواع الإبراء، فقد أخبر البارئ عز وجل أنه برأ البخار من الماء وبرأ من هذا الدخان أو البخار هذا الكون الذي يضم السماوات والأرض، وبرأ منهما كل خلقه كما قال تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} 337 فقد أتم برء السماوات من هذا الدخان سبع سموات في يومين، وأوجد في كل سماء ما أعدت له واقتضته حكمته، وزين السماء الدنيا التي نراها بالنجوم المنيرة كالمصابيح في أقرب المجرات إلينا التي نعيش على أطرافها، وهي المعروفة بدرب التبانة، والتي يقدر قطرها بنحو مئة ألف مليون سنة ضوئية، فهي علامات يهتدي بها إلى معرفة الجهات، كجهة الجنوب، وجهة الشمال، وجهة الشرق، وجهة الغرب، ويهتدي بها أيضا إلى معرفة أماكن البلاد والقرى حيث يعرف الإنسان جهة المكان الذي يريد أن يقصده، فإذا أراد السائر ليلا في البر أو في البحر أن يتجه إلى بلد معين، استدل واهتدى بالنجوم إليه، ونحو ذلك مما أجرى الله سنته في برء خلقه، وبرأ الأرض، ثم برأ لها غلافا جويا يحفظها من كل سوء، وجاذبية تثبت الأشياء على ظهرها، فهذا الخلق المتقن هو تدبير البارئ المصور الذي أحكم كل شيء خلقه، والمحيط علمه بكل شيء، فالسماوات والأرض برأهما البارئ في مدة ومن مادة غير مادتها التي هي عليها، ولم يذكر القرآن الكريم خلق شيء من لا شيء على الإطلاق، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم تكن شيئا كما قال تعالى: {وَقَدْ

خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا {338، مع إخباره أنه خلقه من نطفة.

وأما قوله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ} {339 أي هل خلقوا من غير باري أم برئوا من لا شيء؟ وقد علموا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة، وهذا دليل على إيجادهم برءا من بعد برء، وهو مثل قوله تعالى: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} {340 فالمسيح عليه الصلاة والسلام رسول كسائر الرسل، خلقه الله بقدرته وبرأه بكلمته التي ألقاها جبريل عليه السلام إلى مريم فهو سر من أسرار قدرة الباري.

فالبارئ عز وجل برأ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ابتداء خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وهياها لما تصلح له من الأقوات، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات، وأوحى في كل سماء أمرها، فتلك ستة أيام خلق الله فيها السماوات والأرض وأودع فيهن مصالحهن فأخرج من الأرض ماءها ومرعاها وقدر الأقوات فيها تقديرا يناسب الزمان والمكان لتكون الأقوات متنوعة ومستمرة أنواعها في كل زمان ولتتبادل الناس الأقوات فيما بينهم، وأما ما برأ في السماء، فما جاء به الخبر من كتاب الله تعالى من الجنة والنار والملائكة الكرام الذين برأهم الباري من النور، فالملائكة هم أجسام نورانية لطيفة، وهم حقيقة مؤكدة من حقائق هذا الكون وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم ثمان وثمانين مرة، لما لهم من دور عظيم في هذا الكون حسب المشيئة الإلهية. وهم عالم

338 - مريم 9

339 - الطور 35

340 - النساء 171

مدرك لطيف غيبي غير محسوس، خلقهم الله تعالى من نور، وهم عباد مكرمون، مبرؤون من الميول النفسية والأهواء الشخصية، ومطهرون من الشهوات، ومنزهون عن الخطايا والآثام، وليسوا كالبشر يأكلون ويشربون وينامون، وهم أيضا لا يتصفون بذكورة ولا بأنوثة، ولا بأي حالة مادية مما يتصف به البشر، ولهم قدرة على التمثل بصورة بشرية أو غيرها مما يأذن به بارئهم عز وجل، كما قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} 341 وخلق الملائكة متقدم على خلق الإنسان، بدليل أن الله تعالى قد أخبرهم سلفا بأنه سيخلق الإنسان، ويجعله خليفته في الأرض حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 342.

أما تفاوت الملائكة كيفما برأهم الله تعالى فهو حاصل، سواء في الخلق أم في الأقدار، فالتفاوت في الخلق ما ذكره تعالى في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرَبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 343 أي أن الله خلق الملائكة وجعل لهم أجنحة، والتفاوت في الأقدار هو ما أوكل إلى كل واحد من الملائكة من عمل، وكما خلق الله الجنان من نار، وآدم من طين، خلق الملائكة من نور، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلقت الملائكة من نور وخلقت الجنان من نار وخلق آدم عليه السلام مما

341 - مريم 17

342 البقرة 30.

343 - فاطر 1

وصف لكم"344. فالله سبحانه وتعالى هو البارئ قدر كل شيء برأه من خلقه حسب ما اقتضت المشيئة الإلهية، فكما كان إبراء الملائكة من النور، فقد قضى البارئ عزّ وجلّ براء الجن من النار حيث قال تعالى: {وَوَخَّلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} 345 فخلق جنس الجن من لهيب خالص من نار والمارج هو المختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت فالمارج بالنسبة إلى الجن كالتراب بالنسبة إلى الإنسان، وكذلك قال تعالى: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} 346 أي من نار شديدة الحر والسموم وهي الريح الحارة وسميت سموما لأنها بلطفها تنفذ في مسام البدن، ونار السموم نار لا دخان لها.

فالله سبحانه وتعالى هو البارئ الواجب الوجود الذي لا سبب لوجوده بل هو سبب كلّ موجود وبارؤه، وكل موجود فبقدرته، سواء أكان من المعقولات أو المحسوسات فأوجد الله تعالى الروحانيات الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، وإيجاد هذه الأشياء على سبيل الإبراء والإبداع، والبراء في جميع الأحوال هو إيجاد الشيء من الشيء قبله، كخلق الإنسان من التراب، ويقتضي تركيباً ولذلك قال الله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 347 وإلى الأشياء المركبة أشار بقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} 348

344 - مسند أحمد 51،195

345 - الرحمن 15

346 - الحجر 27

347 - الذاريات 49

348 - الشعراء 7

والإنسان المبروء كان على حالة آدم الذي هو أبو البشر، ويجري هو من سائر الناس مجرى البذر الذي منه أنشئ غيره، والباري تعالى قد تولى بنفسه إيجاده وتربيته وتعليمه كما نبه على ذلك بقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي} 349 وهذا دليل على براء آدم عليه الصلوة والسلام بالإيجاد والعناية بشهادة الجن والملائكة كونه آخر المخلوقات، ثم علمه بأمره الأسرار مصداقا لقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 350.

قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 351 فشان عيسى عليه الصلوة والسلام في خلقه من غير أب وبرؤه بالكلمة، كشأن آدم في برئه من تراب من غير أب ولا أم، فقد صورّه وأراد أن يكون فكان بشرا سويا كما كان آدم عليه الصلوة والسلام من تراب، وفي موطن آخر من طين إشارة إلى الجمع بين التراب والماء حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} 352 فإخباره الملائكة ببراء آدم عليه الصلوة والسلام، إنما يدل على تفخيم شأنه، لأنه خلق ما خلق من الكونين، والجنة والنار، والعرش والكرسي والملائكة، ولم يقل في صفة شيء منها ما قال في صفة آدم وأولاده، ولم يأمر بالسجود لأحد ولا لشيء إلا لآدم عليه الصلوة والسلام، وسبحان الباري حيث خلق أعز خلقه من أذل شيء وأخسه وهو التراب والطين، وفي المرحلة التي بعدها من طين لازب إشارة إلى الطين

349 ص، 75.

350 - البقرة 31

351 - آل عمران 59

352 - ص 71

المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة فقد قال تعالى: {فَاسْتَقْتِفْتِهِمْ أَمْهُمْ أَشَدُّ حَلْفًا أَمْ مَن حَلَفْنَا إِنَّا حَلَفْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ} 353 واللازب هو اللاصق الذي يلصق ويلصق باليد لا رمل فيه وهو المتماسك الثابت الشديد الثبوت ويعبر باللازب عن الواجب فيقال ضربته لازب كما قال الشاعر:

فلا تحسبون الخير لا شر بعده... ولا تحسبون الشر ضربته
لازب

وفي مرحلة تالية برأه من حميا مسنون إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ حَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَآ مَسْنُونٍ} 354، والصلصال طين يابس يصلصل أي يصوت إذا نقر والحما طين تغير واسود من مجاورة الماء، ومن صلصال من حميا مسنون إشارة إلى ييسه وسماع صلصلة منه، وفي موضع آخر من صلصال كالفخار، وهو الذي قد أصلح بأثر من النار فصار كالزخرف، وبهذه القوة التارية حصل في الإنسان أثر من الشيطنة وعلى هذا المعنى دل بقوله تعالى: {حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ} 355 فنبه على أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من أثر النار وأن الشيطان ذاته من المارج الذي لا استقرار له، ثم نبه الله على تكميل الإنسان بنفخ الروح وبرئه بصورته بقوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ

353 - الصافات 11

354 - الحجر 26

355 - الرحمن 14-15

رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} 356 فهذه درجات براء الإنسان خلقا بعد خلق، ثم دل على تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالة بعد حالة، فنبه على أنه جعلهم أناسا في سبع درجات حسب ما جعل آدم عليه السلام فقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} 357 فقد أشار الباري إلى ما جعل للإنسان من قوّة العقل والفكر والنطق. فإن قيل فلم قال فكسونا العظام لحما ولم يقل فخلقنا منه لحما كما قال في الأول، فهذا إشارة منه تعالى إلى لطيفة من صنعه وهو أن النطفة انتهت إلى صورة العظم الذي برأه منها، ثم أنشأ الله اللحم إنشاءً آخر لا من النطفة، وأجراها مجرى الكسوة التي قد يخلعها الإنسان ويجددها.

قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَرَيْثُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} 358 فالبارئ عز وجلّ يلفت نظرنا إلى الأصل الذي برأنا منه وهو يذكرنا بمصدر وجودنا، وأصل نشأتنا، وتيسير حياتنا، وتوليه لموتنا ونشرنا، ومن لطائف الخلق في إبرائها أنها تميل إلى الأصل الذي خلقت منه فلم يكن قبل آدم خلق من التراب، فخلق آدم منه ليكون عبدا خضوعا

356 - ص 71-72

357 - المؤمنون 12-14

358 - عبس 24-32

وذلولاً مائلاً إلى السجود لأنه مقام العبودية الكاملة فكل جنس يميل إلى جنسه ولهذا تواضع آدم لله واستكبر إبليس عن التواضع فأبى وعلا وتكبر فمال إلى جنسه لأنه خلق من نار، ولا شك أن الله تعالى قادر على خلق آدم ابتداءً على هيئة خاصة من مادة خاصة وإنما خلقه من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار إما لمحض المشيئة الإلهية التي هي محض الحكمة الجامعة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصالحهم ومصالحة الخلق لأن خلق الإنسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكّله وجنسه.

وقد جعل البارئ عزّ وجلّ خلقه الذي فطره سواء من الأحياء أم من الجمادات أم من الناميات لها علاقة مترابطة فيما بينها من تبادل في الحياة من المنافع والمصالح وفطر لهم رزقهم ليدل على أن بارئ جميع الخلق هو الله جلّ جلاله الذي قال في كتابه العزيز: {قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْبَدُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 359 فهو البارئ المنشئ للسموات والأرض ومبدعهما ومبدئهما على نظام لم يسبق إليه، وهو بارئ الرزق لخلقها، فالخالق البارئ فطر هذا الكون وفق مشيئته بما يناسب بقية مخلوقاته التي يتوقف عيشها وحياتها على حركة هذا الكون وتقلباته، فإنه تعالى فطر الأفلاك وبرأها فقال خلق السماوات والأرض بالحق ثم ذكر خلق الإنسان من نطفة ثم خلق الأنعام ثم عجائب النبات فقال: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْزِلُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَايَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ
لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ
الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً
تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ} 360 فجعل الاستدلال هو عملية التفكير، فإنه استدلال
على براء الأنواع المختلفة من النبات على وجود الباري وكذلك
حركات الشمس والقمر والليل والنهار كان مجال التفكير والنظر
والتأمل فيها من الدلائل العجيبة حيث أن التغيرات التي تحصل على
الأرض من تبدل الفصول لاختلاف المواسم، وتقلب الليل والنهار،
وعدد السنين والحساب، وما ينتج عن ذلك إنما كله مربوط بأحوال
الأفلاك، وهذا من الخالق الباري الحكيم الذي نستدل على برئه
للوجود بالعقل من خلال التفكير بما برأ وهذا هو المراد بقوله تعالى:
(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره
إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فجعل دلالة اليقين على وجود
الباري دلالة عقلية من خلال التأمل بما برأ.

ومن آيات الإبراء التي جاء بها القرآن الكريم عصا موسى عليه
الصلاة والسلام من جهة وما خيله سحرة فرعون للناس على أنه
إبراء للحبال والعصي التي ألقوها أمام الناس، حيث خيلت السحرة
للعامة أن الحبال والعصي حيات ولم تكن كذلك فقد قال تعالى:
{فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُحْيَلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي
نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَآلَقَ مَا فِي يَمِينِكَ
تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ

أَتَى {361} وقد كان موسى عليه الصلاة والسلام لما ألقى عصاه فكانت حية تسعى خاف منها على نفسه على مجرى العادة، وإنما قدم الله بين يديه معرفة هذا قبل جمع السحرة ليكون على يقين من الله أنها آية برأها البارئ لا تضره، وكان خوفه الثاني تعدد ما أَلَقَتِ السحرة من الحبال والعصي فصارت حيات في أبصار الحاضرين على أنها إبراء التبس عليهم الأمر، فلا يفرقون بين الخيال والحقيقة أو بين ما هو إبراء من عند الله وبين ما ليس من عند الله من هذا السحر الذي استرهبوا به أعين الناس حيث قال تعالى: {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} 362

فأفعال السحرة هي خرق للعادة أو لطبيعة الأشياء وليست من الإبراء في شيء، فمنها ما يرجع إلى ما يدركه البصر أو بعض القوى على حسب ما يظهر لتلك القوة مما ارتبطت في العادة بإدراكه، وهو في نفسه على غير ما أدركته تلك القوة مثل قوله تعالى: {فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيئُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} 363 وهذا يدخل تحت قدرة البشر، وهو على قسمين منه ما يرجع إلى قوة نفسية ومنه ما يرجع إلى خواص أسماء إذا تلفظ بتلك الأسماء ظهرت تلك الصور في عين الرائي أو في سمعه خيالاً، وما هنالك من الحقيقة شيء، أي ليس في المحسوس شيء من صورة مرئية ولا مسموعة، وإنما هو فعل الساحر وهو على علم أنه ما من شيء مما وقع في الأعين والإسماع، والقسم الآخر الذي هو قوة نفسية يكون

361 - طه 66-69

362 - الأعراف 116

363 - طه 66

عنها فيما تراه العين أو أي إدراك كان ما كان من الأمر الذي ظهر عن خواص الأسماء، والفرق بينهما أن الذي يفعله بطريق الأسماء وهو الساحر يعلم أنه ما من شيء في الخارج، وإنما هو سلطان وسيطرة على الحاضرين، فتخطف أبصار الناظرين فيرى صوراً في خياله كما يرى النائم في نومه وما في الخارج شيء مما يدركه وهذا القسم الآخر الذي للقوة النفسية منهم من يعلم أنه ما من شيء في الخارج ومنهم من لا يعلم ذلك فيعتقد أن الأمر كما رآه، وأما قضية الخوف التي انتابت الجميع سواء من الإبراء الكاذب أو الإبراء الحقيقي، فمرده إلى مصدره أولاً قبل أن ينجلي الأمر، لذلك اختلف تعلق الخوفين من كل جهة، فإن موسى عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه قوي الجأش بما تقدم له، إذا قيل له في الإلقاء الأول خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى أي سنبرأ العصا من الحية مرة أخرى، أي ترجع عصا كما كانت في عينك، فأخفي تعالى العصا في روحانية الحية فتلقفت جميع حيات السحرة المتخيلة من الإبراء الكاذب في أعين الحاضرين، فلم يبق لتلك الحبال والعصي عين ظاهرة في أعينهم وهي ظهور حجته على حججهم في صور حبال وعصي فأبصرت السحرة والناس الأمور على حقيقتها، وهي حبال السحرة وعصيتهم التي ألقوها حبالاً وعصياً كما هي، وهكذا كانت تلقفها ولم تنعدم الحبال والعصي، إذ لو انعدمت لدخل عليهم التلبس في عصا موسى عليه الصلاة والسلام، وكانت الشبهة تدخل عليهم فلما رأى الناس الحبال حبالاً، علموا أنها مكيدة طبيعية، وقف في تحديها وإبطائها قوة كيدية روحانية، فتلقفت عصا موسى عليه الصلاة والسلام صور الحيات من الحبال والعصي، فأبطل صورتها المصطنعة، كما يبطل كلام الخصم إذا كان على غير حق في جعل كلامه منفيًا للواقع فلا يكون حجّة، لا أن

ما أتى به ينعدم بل يبقى محفوظا معقولا عند السامعين ويزلو عندهم كونه حجّة، فلما علم السحرة قدر ما جاء به موسى عليه الصلّاة والسّلام من قوّة الحجّة وأنه خارج عما جاءوا به، وتحقّق يقين ما جاء به على ما جاءوا به، ورأوا خوفه علموا أن ذلك من عند الله، ولو كان من عنده لم يخف لأنه يعلم ما يجري فأيته عند السحرة خوفه، وآيته عند النّاس تلقف عصاه ما ألقى السحرة، وعلموا أن أعظم الآيات في هذا الموطن تلقف هذه الصور من أعين الناظرين وإبقاء صورة حية عصا موسى في أعينهم والحال عندهم واحدة، فعلموا بصدق موسى فيما يدعوهم إليه وأن هذا الذي أتى به خارج عن الصور والحيل المعلومة في السحر، فهو أمر إلهي ليس لموسى عليه السّلام فيه عمل، فصدقوا برسالته على بصيرة واختاروا عذاب فرعون على عذاب الله وآثروا الآخرة على الدنيا، وعلموا من عملهم بذلك أنه على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وأن الحقائق لا تتبدل وأن عصا موسى داخلية في صورة الحية عن أعين الجميع وعن الذي ألقاها بخوفه الذي شهدوا منه، وبهذا علموا بوجود البارئ عزّ وجلّ.

وعليه البارئ اسم من أسماء الله الدالة على أنه برّ عباده المؤمنين من رجس الشرك والضلال، فقد خلق البارئ الخلق وأهدى لهم العقل للتمييز بين الحقّ والباطل، ولكن اختلف الخلق في اختيار الطريق الذي سيسلكونه في حياتهم الدنيا، فمنهم من اختار طريق الشيطان فأضل نفسه واتبع هواه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ
لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْتَبَهُمْ
فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ
الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيْنَهُمْ
وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا
حَيْصًا} 364، ومنهم من تبرأ بنفسه من هذا الضلال فاتبع سبيل
الله تعالى وهو سبيل الحق الذي لا يتغير، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ
قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَنْزَلُ عَلَيْنَهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نُزُلًا مِنْ
غُفُورٍ رَحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} 365، إذن فالبارئ قد خلق الخلق وخلق لهم
دلائل الهداية في الكون حتى لا يكون لهم حجة على الله يوم القيامة
وأرسل لهم الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، ولكي يكونوا شهداء
عليهم يوم يقوم الحساب.

واسم الله البارئ يرتبط باسمه الخالق والمصور، إذ أنه لا يمكن
الفصل بينها لأنها جميعا مرتبطة بعملية الخلق التي تحتاج للبرء
والتصوير، قال سبحانه وتعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا
وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ
اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 366، وقال تعالى أيضا:

364 النساء 115 . 121.

365 فصلت 30 . 33.

366 غافر 64، 65.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 367، فمن الآيتين
السابقتين نجد أن:

أ- استأثر الله تعالى بعملية الخلق وحده فلم يجعل له شريك في ذلك، وهذا تأكيد على واحديته من خلال خلقه، قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} 368.

ب - الانسجام بين عمليتي الخلق والتصوير، فلا يمكن أن نصف الله تعالى بالخالق ولا نصفه بالمصور، لأن التصوير بحد ذاته هو الخلق والإنشاء من لا شيء سبحانه جلّ جلاله.

ج - الخلق والتصوير من صنع البارئ الذي أبداع في خلقه.

د - الاتجاه إلى الله تعالى بالإخلاص في العبادة وكيف لا وهو من أوجدنا وصورنا في أحسن صورة!

فعملية الخلق هي بحد ذاتها أصل تجسيد القدرة الإلهية المطلقة على كل شيء، فلو تأملنا في خلق البارئ لهذا الكون البديع الذي ينطق بوحداية الخالق سبحانه وتعالى لما كان في الخلق حتى هذه اللحظة جاحدًا أو كافرًا أو عاصيًا، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ

367 التين 4.

368 يونس 34، 35.

أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ {369}، وكذلك قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} {370}، فالكون مليء بالأدلة والشواهد لمن أراد أن يبرأ نفسه من الشرك أو الكفر، فما عليه ألا أن يُعْمِلَ عقله خالصا للبحث عن الحقيقة فلا بد أن يصل إلى اليقين بوجود الله تعالى وبوحدانيته، الأمر الذي اختلف فيه البشر في هذه الحياة الدنيا: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} {371}.

فباختيار الطريق الصحيح فقط يستطيع الإنسان أن يكون مستحقاً لخلافة هذه الأرض كما أراد الخالق له عز وجل، إذ أنه جلّ جلاله خلقنا أجيالا وأطوارا وهو عالم بمن سيكون المهتدي ومن سيكون الضال بعلمه المطلق حتى من قبل خلقه، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيئَهُ أَوْ سَعِيدَهُ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ

³⁶⁹ لقمان 29، 31.

³⁷⁰ النمل 88.

³⁷¹ التغابن 2، 3.

كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ
إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ"372.

إذن فالخالق البارئ عزّ وجلّ بقدرته المطلقة وعلمه المطلق قد
أنشأ الخلق وصوّرهم من لا شيء إلى الوجود بتنفيذ أمره الذي لا يُرد
وهو (كن) قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ
مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَجْلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}373،
فالآية الكريمة السابقة توضّح لنا سهولة قدرته عزّ وجلّ على تنفيذ
إرادته ومشئته، وهو بذلك البارئ المنفذ لما قرر وأراد سبحانه
وتعالى، فلا أحد سواه يستطيع أن يُخرج إلى حيّز التنفيذ كل ما قرره
و شاء تحقيقه، لأن قدرة كل شيء محدودة لا تستطيع تعدي
خطوطها التي رسمها البارئ لها، فقدرته المخلوق ممزوجة بعلمه وبما
أنهما محدودان فإن من شأن ذلك أن تجعل من إبداعه وإظهاره لهذا
الإبداع أيضا محدودا، غير أن الخالق علمه وقدرته وإبداعه لا حدود
لها جميعا.

وعلى خليفة الله في الأرض الاعتراف الأكيد بقلبه ولسانه
بالخالق لكل هذا الكون البديع، وألا يكتفي بالاعتراف بذلك فقط
بل أن يكون هذا الاعتراف عمليا بظهوره في أفعاله وأقواله، بأن
تكون درجة إيمانه بالبارئ تتعالى عن أي شك في قدرته أو علمه أو
رحمته.

372 صحيح بخاري، ج 10، ص 485.

373 غافر 67، 68.

بذلك الإيمان بخالق الخلق تستطيع أيها الخليفة أن تكون الوارث لهذه الأرض والداعي لإصلاحها، قال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} 374.

فمن الأهمية أن تعرف أيها الخليفة طريقك إلى خالقك الذي يعرف ما تظهر وما تُبطن، فهو خالق نفسك، قال تعالى: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} 375، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} 376، فلا يمكن لأي ملك أو سلطان في الأرض أن يستطيع معرفة ما يكمن الإنسان داخل نفسه، وما يكتم من أشياء لأن قدرته تظل محدودة إذ أنه يتساوى مع أي إنسان آخر ضعيف في أنهما مخلوقان قد خلقهما الباري، ولكن الله تعالى بما أنه هو الخالق لنا فهو العالم بما في نفوسنا وإن لم نظهره.

البارئ هو اللطيف:

المتدبر في خلق الله تعالى لكل شيء فإنه حتما سيستشعر لطفه ورحمته في كل شيء، فالمتأمل فيه يصل إلى الإيمان بلطفه ورحمته بخلقه، إذ أن كل ما حولنا يدل على ذلك مثل:

374 الأعراف 128.

375 المائدة 99، 100.

376 الأنبياء 108 . 110.

أولاً: الهواء:

هذا الهواء الذي نتنفسه محملاً بالأوكسجين الذي يحتاجه الجسم البشري، فلا يمكن للمرء أن يعيش من دونه تمتلئ به الكرة الأرضية، فهو ليس حكراً لدولة قوية أو سلطان جائر يمنحه لمن يرضى عنهم ويمنعه لمن يسخط عليهم، بل بلطفه جعله ملكاً للفقير والغني والكبير والصغير والمؤمن والكافر.

فإذن نستطيع من إدراك قيمة الهواء في حياتنا أن نلمس لطفه جلّ جلاله بعباده، فهو خالق هذا الهواء لهم سبباً في بقائهم على وجه الأرض، فأنت أيها الإنسان لا تستطيع رؤية الهواء لكنك تتنفسه بلطف بقدرة البارئ عزّ وجلّ، وهو بالرغم من ذلك يتحول من نسيمات لطيفة إلى رياح عاتية تقتلع هذا الإنسان من الأرض، قال تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} {377}، فيكون هذا المخلوق وهو الهواء متحولاً بقدرة القادر المطلق من الهواء اللطيف الذي يسبب الحياة للعباد إلى وسيلة عذاب ونهاية حياة العباد.

إذن فخلق اللطيف للهواء يكمن فيه الرحمة والعقاب وهذا من دلائل قدرة البارئ على تسخير كل شيء كيفما يشاء.

ثانياً: الماء:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ

³⁷⁷ القمر 18 . 22.

مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {378، فالخالق قد خلق الماء لطفًا بنا وبحاجتنا له، فمنه شرّبتنا ومنبت زرعنا فهو محور الحياة على الأرض، وقد جعل البارئ الأرض مركزًا لا ينضب من المياه لطفًا ورحمةً بعباده، فاستمرار الحياة يتغي استمرار الماء والهواء.

وبما أن البارئ هو خالق الماء ومنزله من السماء إذن فأمره بيده يمنحه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء بعلمه وحكمته المطلقين.

وقد يجعل الله من الماء الذي يتلطف بحياة الإنسان ويمنحه الاستمرارية في العيش بإذن الله تعالى أن يكون عقابا رادعا لمن طغى وتجر، قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {379.

ثالثا: بتحذيره للبشر:

إنّ البارئ سبحانه وتعالى لطيفٌ حتى في تحذيره للبشر من عقابه وحسابه، فكما جاء على لسان لقمان في قوله تعالى: { يَا بُنَيَّ إِنَّهَا

378 الأعراف 57.

379 هود 40 . 44.

إِنَّ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ {380}، إذ أن في وسع الخالق أن يجعل من تحذيره وقعا مرعبا في النفوس، لكنه سبحانه وتعالى انتقى واختار اللطف أحيانا في توجيه التحذير لبني البشر لعلهم يرتدعون.

البارئ هو العليم:

لا يمكن للخلق أن يتحصل على قدرٍ من العلم لم يقدره الخالق له، فالعلم المحدود من نصيب الإنسان، أما العلم المطلق فهو ملكٌ للبارئ، فعلمه اللامحدود يتضح لنا من قدرته على خلق الخلق ومعرفة ما سيكون عليه حاله مسبقا، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {381}، فالآية الكريمة تدل على أن أمر المعرفة بأمور الخلق تم قبل أن يتم حتى القيام به من قبل المخلوق نفسه، وهذا دليل على العلم المطلق الذي يمتزج بعملية الخلق ويترافق معه، مما يجعلنا مدركين ومتيقنين من أن البارئ عزّ وجلّ يملك أمر هذا الكون وهذا الخلق بعلمه وقدرته وبواحديته.

ومن المتعارف عليه أن التخطيط لا بدّ أن يكون مدروسا بعلم كي يكون التنفيذ صائبا وصحيحا، فكيف بالعليم الخبير الذي يملك من قدرة على التدبير والتنفيذ ما لا يحده حد!

إذن فالبارئ هو العليم بما خلق ويخلق، فلا يمكن أن تتم عملية الخلق أو تنفيذها أو حتى مجرد إنشائها بدون علمٍ مطلق، وإلا لكنا

380 لقمان 16.

381 الحديد 22.

لاحظنا بعض نقاط الضعف هنا وهناك، أو بروز بعض الأخطاء والعيوب والنقائص في عملية الخلق بصفة عامة، ولكن سبحان الله خالق الكون وكل الخلق بلا تعبٍ أو نقص، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَؤُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} {382}، فإذا قلب الإنسان بصره في هذا الكون وخلقته المحكم أو حتى في نفسه وعظمة خلق البارئ له فإنه بالتأكيد سيدرك أن لهذا الخالق علمٌ لا يحده أي حد وخبرة مطلقة لا تضاهيها أية خبرة.

لذا يجب على خليفة الله أن يكون متصفا بصفات البارئ عزّ وجلّ، فيجعل من علمه نورا يضيء له ولغيره طريق الحقّ، فلا سبيل للوصول للحقائق وإقامة الحجج إلا بالعلم المفيد الصحيح الذي منبعه من الإيمان الصادق والثقة بالخالق العظيم الذي يهب لمن طلب العلم الوسيلة لذلك.

فالمجتمع المسلم لا بدّ أن يكون المميز بين المجتمعات الأخرى بما لديه من علمٍ مستقى من الكتاب الكريم، ومن دعوة للأخذ به كسبيل للرفقي والحضارة، وقد ترك فينا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وصحابته الكرام أفضل موروث من العلم والمعرفة في أمور ديننا ودينانا.

البارئ هو المبدع:

382 ملك 1. 4.

الإبداع يكمن في عملية الخلق المتفاوتة واشتمال الخالق لكل ما يدور في الكون في وقتٍ واحد، وتنوع المخلوقات، قال تعالى: {وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ} حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ {383، وكذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} {384، ففي الآيتين السابقتين إظهار لإبداع الخالق في عملية الخلق، فهو بذلك بريء من التكرار والجمود في التنفيذ والتصوير، فلم يخلق البشر على صورة واحدة ولم يجعلهم بلسان واحد أو لون واحد، بل جعلهم مختلفين في العديد من الأشياء وهذا بحد ذاته إبداع عظيم من خالقٍ عظيم وقد كان ذلك الاختلاف والإبداع لهدف وغاية وليس لمجرد التنويع والتشكيل كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} {385، ففي الآية الكريمة السابقة يتضح لنا معالم مهمة في خلق البشر وهي:

383 الرحمن 10 . 15 .

384 المؤمنون 12 . 17 .

385 الحجرات 13 .

أولاً: النداء كان للناس ولم يكن للمؤمنين فقط، وهذا توجيه من البارئ عزّ وجلّ وتوضيح للبشر أن الخلق جميعاً لله وحده، فهو لم يخص المسلمين بالخلق دون غيرهم بل هو الخالق لكل الناس كافرهم ومسلمهم، فلا برهان للكافر لفكرة أنه ابن الطبيعة أو الصدفة.

ثانياً: يوضح لنا الخالق جلّ جلاله قانون توالي الأجيال وسبب تزايد البشر، فبعلمه المطلق لم يجعل الله تعالى البشر جميعاً من جنسٍ واحد بل جعل منهم الذكر ومنهم الإناث لغرض التزاوج والإنجاب ممّا يجعل حياة البشر على الأرض تستمر، وإلا لكانت انتهت الحياة بأسرع ما يكون.

ثالثاً: أن الله تعالى جعل في اختلاف الألسنة والألوان والأشكال آيات للبشر كي يتأملوا إبداعه وخبرته المطلقة في الخلق، ففي قدرة المولى عزّ وجلّ أن يجعل من البشر جميعاً لونا واحداً أو شكلاً متقارباً لكنه جعلهم مختلفين بهدف أو يجمعهم توحيده عزّ وجلّ، ونحن نلاحظ أن هناك من أفريقيا وآسيا وأوروبا من يعتنق الإسلام ويوحد الخالق من غير العرب، على الرغم من تباعدهم واختلافهم إلا أن الإسلام يقرب بينهم وهذه غاية الله تعالى في ذلك، إذ أنه لم يميّز إنسان عن آخر في الشكل أو اللون لهدف التكبر أو الغرور.

رابعا: تُقِرُّ الآية الكريمة مبدا مهما من ذكره دائما فقد نجا من النار، وهذا المبدأ هو الأساس الذي يتم فيه تمييز البشر لدى خالقهم سبحانه وتعالى، فبعد أنه وضّح اختلاف الأشكال والألوان والأجناس فقد أكد أنه عزّ وجلّ لم يجعل من هذا الاختلاف سببا في قرب العبد منه، بل لا يفرّق الخالق بين عبدٍ وآخر من عباده إلا بما قدّم هذا العبد نفسه في الحياة الدنيا، فالمعادلة واضحة من خلال الآية الكريمة بأنه كلما زادت درجة الطاعة والخوف والخضوع

والتقوى في قلب العبد ومعاملته مع خالقه زادت درجة قربته من الله تعالى وارتفعت مكانته عنده عز وجل.

بالتالي فعملية الخلق ليست عملية عبثية لمجرد الخلق فقط، بل هي عملية لهدفٍ وغاية، قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنٍ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} {386}، وقوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} {387}، فالبارئ لم يقم بعملية الخلق بدون غايةٍ أو هدف بل كان خلقه قائما على علمٍ مطلقٍ وخبرةٍ مطلقة بما سيكون عليه حال الخلق، وما سيكون عليه حال الأرض بعد أن يجعلها ميراثا لعباده المخلصين.

إذن لا نستطيع فصل عملية الخلق عن الإبداع الإلهي المطلق، الأمر الذي لا بد وأن يصل بنا إلى وحدانية الخالق البارئ عز وجل، إذ لا يمكن للإنسان المدرك بعقله وبصره ألا يصل لهذه الحقيقة التي هي أصل النجاح والرفق، فماذا بعد أن ملأ الله الكون بالدلائل والشواهد لك أيها الإنسان وما زالت تُشرك به وكأن من بين من تعرف يستطيع أن يصنع مثل ذلك؟ قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

386 القيامة 36 .40.

387 المؤمنون 115.

يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {388}.

إذن فالبارئ هو المنشئ والمبدع من العدم، وهو الذي يتوحد في كل شيء فلا يشاركه أحد في خلقه وأمره جلّ جلاله.

فعلى خليفة الله أن يكون مبدعا في الحياة فلا يرضى بالحياة مغمورا فيها لا يعلم أحد بما لديه من مواهب وقدرات وهبها الله تعالى له، فكل إنسان لابد وأن يكون لديه قدرة معينة أو ميزة تجعل منه إذا استغلها وتمّأها إنسانا مبدعا، وسبحان الله نلاحظ أحيانا أن الله يجعل من بعض البشر الذين يفتقدون لبعض القدرات الموجودة لدى عامة الناس مبدعين ومميزين، وهذا دليل على أن الإنسان هو طاقة كبيرة لا يجب أن تؤثر فيه حالة نفسية أو جسدية على قدرته على الإبداع، ولابد أن نكون نحن المسلمين أكثر الناس طاقة وقدرة على الإبداع لما لدينا من مخزون وإرادة جبارة على تحدي الصعاب بروح الإيمان والتوكل على الخالق البارئ.

فيا خليفة الله في الأرض تميّز بالأبداع في أي مجال تجد نفسك فيه وثق إذا توكلت على البارئ إنك قادر.

ومن الصفات التي يستمدّها خليفة الله إذا أدرك المعنى الحقيقي لهذا الاسم الجليل أن يصبح:

1- متوكلا:

التوكل على الله تعالى لا يأتي إلا إذا وصل الإنسان إلى درجة كبيرة من الطاعة والخضوع لله عزّ وجلّ، ولا يوكل المؤمن أمره إلا للذي يملك القدرة على تدبير الأمور وهذا بجد ذاته يعني أن هذا الإنسان قد منح ثقته الكاملة بخالقه وبارئه، لأنه هو من خلقه وهو أعلم بما يصلح له وما ينفع له، لذلك فإنه يصل لمرحلة حب توكيل الباري في أمره وهو راضيا مقتنعا بذلك، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} 389، وقال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} 390، فمن الآيتين الكريمتين السابقتين نستطيع أن نلمح مدى عمق إيمان المتوكل على الله تعالى، إذ رافق المولى عزّ وجلّ صفة المتوكل عليه مع من يملك خشيته في قلبه والحقّ التوكل بمن يؤدي حقّ الله عليه من واجبات وطاعات، فالتوكل إذن ليس بالأمر الهين الذي يستطيعه أي مسلم، بل هو من ضمن عظام الأمور التي تكون من نصيب خلفاء الله في الأرض الدائمين ذكره جلّ جلاله، وكذلك ربّط الباري بين الصبر وهو ذلك الأمر العظيم الذي لا يطيقه كل إنسان لأنه يتطلب من الإيمان والتقوى الشيء الكثير، وفي ربّط هذا الأمر العظيم بالتوكل فهذا من شأنه أن يساوي بين

389 الأنفال 2 .4.

390 النحل 42.

الصفيتين، فالصبر والتوكل من أساسيات بناء العلاقة الحقّ بين المؤمن وبارئهِ، ولا يصل لهذه العلاقة النبيلة إلا خليفة الله، الذي يبحث عن رضا الخالق وحبهِ.

لذلك فالتوكل على الله تعالى يجعل من العبد أولاً في أمانٍ وطمأنينة، لأن البارئ جلّ جلاله القادر على تدبير أمر العباد وتسخير الأمور لهم وإيجاد المخرج لهم من كل ضيق، قال تعالى: {وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} 391، ثانياً التوكل على البارئ يجعل من المؤمن في أمان من وسوسة الشيطان الرجيم، فلا يكون عليه سلطان يتحكم فيه ويضله عن طريق الحقّ، قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} 392، في الآية الكريمة السابقة تأكيد لخروج المؤمن المتوكل على الله من دائرة سيطرة الشيطان الرجيم.

2- قويا:

ليست القوّة المقصودة هنا هي القوّة الجسدية التي قد يتمتع بها بعض الناس، ولكن القوّة المقصودة هنا هي القوّة المعنوية التي يكون منبعها الإيمان الحقيقي بالله سبحانه وتعالى، هذه القوّة التي تجعل من المؤمن سداً قويا أمام الباطل والفساد، فكل ما نلاقه في حياتنا الدنيا من مفسد وشور يحتاج إلى تحدي وقوّة من النفس البشرية الصافية كي لا تضع في ظلمات الشهوات والملذات التي يزينها الشيطان للبشر، هذا من شأنه أن يجعل من أتباع الشيطان ضعفاء لا يملكون حتى الحجّة للدفاع عن أنفسهم أمام الخالق يوم القيامة

391 الطلاق 3.

392 النحل 99.

بعد أن يتبرأ منهم الشيطان، قال تعالى: ﴿وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَمَا أَنْفَسْتُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 393.

حتى أن البارئ دعا لأن يكون المجتمع المسلم مجتمعاً قويا لا يشوبه ضعف أو هوان، وأساس هذا المجتمع القوي هو المسلم القوي ذاته، ولا يكون المسلم قويا إلا بإيمانه بالبارئ إيمانا خالصا يجعله يتخلص من كل أنواع الاستسلام لغيره والضعف أمام الباطل والضلال، ففوة المؤمن يستمدّها من خالقه العظيم الذي يكفيه حاجته ومبتغاه فلا يطلبها من أحدٍ غيره، ولا يسعى لغير بارئه عزّ وجلّ.

بذلك يمنح البارئ القوّة لمن لجأ إليه وطلب عونه، وخليفة الله لا يمكن أن نجده بين الضعفاء والعاجزين، بل سنجده في مقدمة الأقوياء الذين يواجهون أشدّ المواقف وأصعب الأمور يدعمهم إيمانهم ويقويهم ثقتهم بالبارئ التي لا حد لها، وقد كانت لنا في الرّسل والأنبياء القدوة الحسنة لثباتهم وقوتهم وإيمانهم وثقتهم بالله سبحانه وتعالى، فما من إنسان لاقى في حياته كما لاقوا في سبيل تبليغ رسالة الله للبشر وبالرغم من ذلك لم يضعفوا أو يهنوا.

393 إبراهيم 21، 22.

3- مستسلما لله تعالى:

إذا توكل المؤمن على الخالق توكلًا كاملاً أصبح لديه من القوة ما تكفيه لمواجهة كل المفسد والشور، ولا يصل المؤمن لذلك إلا بالاستسلام الكامل للخالق والخضوع المستحب له عز وجل، لأن من شأن الاستسلام للخالق أن يجعل من حياة المؤمن مليئة بالطمأنينة والسلام، فلا يقضي حياته حسرةً وندم على ما لم يستطع الحصول عليه.

وفي الاستسلام للبارئ اعتراف حقيقي وعملي بأنه الخالق البارئ القادر على كل شيء، لأن الإنسان لا يسلم أمره إلا لمن هو وكيله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾³⁹⁴، والوكيل دائماً هو من يملك الخبرة والحكمة والمقدرة والسلطة، وبذلك فإن استسلام المؤمن لله تعالى يحمل معنى رضاه بالقضاء والقدر، فلا يتدمر ولا يضيق ذرعا بمصيبة حلت به، أم بمشكلة كبيرة طال حلها، بل يسعى بكل جهد لإيجاد الحل وهو مستسلم في الوقت نفسه ومتيقن بأن الله معه وبيده مفاتيح الحل جميعاً.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون مستسلماً للخالق عز وجل، راضياً بما كتبه عليه البارئ وقدره له في الحياة الدنيا، متأكداً بأنه جل جلاله لا يريد بعبده المؤمن إلا الخير والصلاح، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

³⁹⁴ آل عمران 172، 173.

– " عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"³⁹⁵، ففي حديث الرسول الكريم – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دعوة لكل مؤمن صادق الإيمان بالاستسلام للبارئ سبحانه وتعالى لأنه لا يريد بعبد المؤمن إلا كل خير حتى وإن لم يكن هذا الخير واضحاً للإنسان في حينه، لكن من المجدي أن يكون لدى المؤمن هذه القدرة على الخضوع وحب الاستسلام للبارئ عز وجلّ.

ولا بدّ لخليفة الله أن يدرك أنّه لا سبيل للوصول لرضا الخالق إلا بالعمل الصالح، لأن نتيجة الإيمان الحقيقي هو العمل الصالح الذي لا يصدر إلا ممن كان قلبه خاشعاً للبارئ، وهذا ما يحتاجه كل مؤمن لكي يسيطر على الشهوات والرغبات داخل نفسه التي قد تقوى أحياناً على الإنسان فتفقده درجة من درجات الإيمان، إذ أن إيمان الإنسان بخالقه لا بدّ أن تزيد على حبه للشهوات والرغبات التي حُلِّقت داخلنا، والذي يحسم النتيجة النهائية لانتصار إحداها على الأخرى هو إعمال عقولنا في تبين طريق الحقّ والسيطرة على هذه الشهوات التي من شأنها أن تسيّر بالإنسان نحو الجحيم وبئس المصير.

ونلاحظ أنّ جميع الرُّسل والأنبياء قد غلبهم الله تعالى على شهواتهم، إذ أنّ البارئ عزّ وجلّ امتدح رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بالأخلاق الحميدة في قوله جلّ جلاله: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} ³⁹⁶، وبما أنّ رسولنا الكريم هو الأسوة الحسنة لنا فلا بدّ أن نسير على نهجه لكي نفلح، ويكتبنا الخالق مع أولئك الذين فلدحوا

³⁹⁵ صحيح مسلم، ج 14، ص 180.

³⁹⁶ القلم 4.

في الدنيا والآخرة، كما جاء في قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} {397، فخالق الخلق لا يرضى للمؤمن إلا الجنة ولا يجب عذاب البشر بل يريد لهم النجاة من النار، لذلك فقد وجه دعوته للعقل البشري وإعماله لصالح الإنسان إذا صح استعماله.

ألا يستحق أن نعبد هذا الخالق الجليل؟ ألا يستحق أن نوحّد هذا البارئ العظيم؟

يجب علينا الإيمان به وبوحدانيته وقدرته على كل شيء، وأن نصل إلى درجة من التسليم بأن حياتنا ملكا له يسيّرهما كيفما يشاء لأنه الخالق والمالك لها، فلا يتدمر من نقص مالٍ أو ولدٍ أو يشكّي من مسألة أصابته لا يجد لها حلا، بل عليه أن يتجه بيقين إلى خالقه لعلمه الأكيد بأنه القادر على أمره والذي يفعل ما يريد فيغير الحال إذا أراد إلى حال أخرى في طرفة عين أو أقل.

ومن الملاحظ أنّ الخالق سبحانه وتعالى قد جعل بعض الأشياء في الآخرة مبرأة منها في الحياة الدنيا ومن هذه الأشياء الآتي:

1 - الخمر:

من البديهي والمتعارف عليه أن الخمر من المشروبات الكحولية التي تتوفر في بعض الأماكن وقد لا يستغني عنها بعض البشر في شتى بقاع الأرض، وشرّها لا يقتصر على الكفرة والعصاة فقط، بل أننا نجد أن الكثير من المسلمين يتناولونها بشكل دائم وكبير.

³⁹⁷ النازعات 40، 41.

ونجد أن الخمر مشروب من مشروبات الجنّة، يتناولها أهل الجنّة وهم مقيمون فيها، ولكن هل خمر الدنيوية هو نفس الخمر في الجنّة؟ بالطبع ليست الخمر في المكانين واحدة، إذ أنّ الخمر في الحياة الدنيا تذهب بالعقول وتخمر التفكير وتضيّع الرشد، فلا يدري شارّبها ما الذي حل به بعد شربته لعدة كؤوس منها، فلا يتورع عن فعل أيّ شيء لغياب عقله من تأثير هذه الكحول عليه، إذ أنّها تذهب بعقله وبرشده، فلا يستطيع معرفة ما أقدم عليه إلا بعد فوات الأوان، كذلك من الممكن أن يكون لتأثيرها الجسدي الضرر الكبير إذ أنّها تجعل من شارّبها يتقيأ ما في جوفه، وهذا دليل على تأثيرها السلبي على معدته.

أمّا الخمر التي توجد في الجنّة كمكافأة للصالحين المتقين فهي مبرأة من الخمر التي في الأرض، قال تعالى: {يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ} 398، أي أنّ من شأن هذه الخمر أن تُبقي العقل الإنساني على ما هو عليه، فلا تأثير سلبي عليه من جرّاء شربته لها، بل هي مشروب يمتنعهم دون أن يغيّب عقولهم، ولا يجعلهم يتقيؤون من آثار شربته.

فالخمر في الجنّة إذن من الأمور المبرأة منها في الدنيا، إذ لا تتكرر في الدارين، بل تختلف عنها في الصفات والمزايا.

2- الحياة:

الحياة التي سنحياها في الآخرة غير التي عشناها في الدنيا، إذ أنّ حياتنا في الدنيا محدودة بأجل لا يستطيع أي مخلوق أن يهرب من نهاية أجله الذي قدره الله له، قال تعالى: {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ

398 الطور 23.

تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {399}، وقال تعالى أيضا: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {400}، فالخالق للنفس البشرية الذي لا شريك له جعل من الحياة محدودة بكتاب لكل إنسان، فلا يمكن أن تدوم حياة أي إنسان على وجه الأرض مهما وصلت درجة قرّبه من الباري، قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} {401}، فالموت إذن خلق مع حياة الإنسان على الأرض، لا يمكن أن يكون لأي مخلوق على الأرض نصيب من أحدهما دون الآخر، فلكل إنسان نصيب من العمر كتبه الله له، وكذلك له أجل لا بدّ وأن يلاقيه في ساعة محددة لا يعلمها إلا الخالق الباري، قال تعالى: قال تعالى في كتابه الكريم: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} {402}، فبذلك تكون الحياة الدنيا محدودة بأجل أي أنها تنتهي عند حد معين قدره الله تعالى على كل مخلوق.

³⁹⁹ هود 3، 4.

⁴⁰⁰ العنكبوت 5.

⁴⁰¹ آل عمران 144، 145.

⁴⁰² الزمر 42.

أما الحياة في الآخرة في مبرأة من الانتهاء لأنها حياة باقية لا تنتهي فهي دار الخلد، سواء كان ذلك في الجنة أو في النار، فالبشر سيقسمون يوم الحساب لقسمين إما أن يكون لهم الخلود في الجحيم، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} {403}، وإما أن يكون نصيبهم دار الخلد في الجنة، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَلَّا اللَّهُ وَمَنْ يَصِرْهُمَا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {404}، وهذا الخلود في أحد الدارين إنما يحدده عمل الإنسان في الحياة الدنيا، فميزان أعماله هو الفيصل الذي سيفصل بين مكان تخليده يوم الدين.

لذلك فإن الحياة في الدارين تختلف عن بعضها البعض، فالحياة الأولى للفناء، والحياة الأخرى للبقاء والدوام، وقد بين لنا الخالق الفرق بين الدارين وأيهما هي الأبقى في قوله عز وجل: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} {405}، فهذا نصح لأصحاب العقول الرشيدة التي تحشى البارئ لها فلا تغتر بالحياة الدنيا الفانية بل ترنو إلى الآخرة فتشتري الحياة الدنيا بالآخرة.

⁴⁰³ البقرة 161، 162.

⁴⁰⁴ آل عمران 133 . 136.

⁴⁰⁵ الأعلى 17.

3- العسل:

فالعسل معروف لدينا أنه شرابٌ مفيد نستخلصه من النحل الذي جعله الله تعالى شفاءً للناس ومنافع، وهذا العسل أحياناً يتعذر الحصول عليه بسهولة، بل يتطلب الجهد والوقت الكبيرين لذلك، والأصعب من ذلك هو الحصول عليه صافي ونقي من بين الجبال والأشجار، إذ يتعسر أحياناً كثيرة في الحصول على العسل النقي.

وهناك نوعٌ آخر من العسل موجود في مكانٍ آخر، وهو يختلف عن العسل الموجود على الأرض، وهذا العسل هو الموجود في جنان الخلد يُقدّم للصالحين الذين أثابهم الله بتحقيق ما سعوا إليه في الحياة الدنيا، فما كان من الخالق إلا أن جعل الجنة تحقيقاً لكل ما يشتهون ومن ضمن ذلك العسل الصافي، قال تعالى: {وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهِيَ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} 406، فالعسل في دار الخلد مبرأً من العسل الدنيوي في أنه دائم الصفاء والنقاء لا يأتي لهم محتاجاً للتنقية أو التصفية بل يأتي خالصاً من كل الشوائب، بل يتحصلون عليه بيسر وسهولة دون عناءٍ أو مشقة.

4. اللبن:

اللبن شراب معروفٌ لدينا ومعروفٌ فائدته لجسم الإنسان، كما إن الإنسان يستلذ بمذاقه اللذيذ الذي يميّزه عن باقي أنواع الشراب، وهذا اللبن الدنيوي دائماً يكون بحاجة إلى طريقة حفظٍ جيدة كي لا يفسد، فمن المعروف أن اللبن من المشروبات القابلة للفساد

وتغيير الطعم والرائحة مع طول المدة أو إذا خالطه ماء كما يحدث في بعض حالات غش اللبن بالماء.

لذلك فاللبن في حياتنا الدنيا لا نستطيع أن نحتفظ به كما نشاء ونجده وقتما نطلبه طازجا لذيذا، لأن هناك من العوامل البيئية ما تحول دون ذلك.

واللبن أيضا من ضمن الشراب الذي يُقدم في الجنة للمؤمنين المحسنين كمكافأة لهم على طاعتهم وإخلاصهم في العبادة، ولكن اللبن الذي يوجد في الدار الآخرة مبرأ من اللبن الدنيوي، إذ أنه سالم دائما من تغيير اللون والطعم، فلا يلحقه الفساد والتلوث بل يبقى صافيا متجدد دائما، قال تعالى: {وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ} 407

فبذلك يكون اللبن من ضمن الأمور التي نجد لها مثيلا في الحياة الدنيا ولكن مع اختلاف الصفات والمزايا، فالخالق قد خص أهل الجنة بما لذ وطاب من طعام وشراب بعد أن جعل منه خالصا من كل مفسدة، فأصبح صالحا لا يشتهيهِ المؤمن إلا ويجده حاضرا أمامه، بكل يسر وسهولة.

5. الغلمان:

لا نجد سلطانا أو واليا يخلو بلاطه من الغلمان والخدم، يقومون بتنفيذ أوامر الأسياد ويطيعونهم وينفذون رغباتهم، بالطبع على قدر المستطاع، والغلمان في الحياة الدنيا هم بشرٌ مثلنا يأكلون ويشربون وينامون ويفرحون ويغضبون، أي أنهم قابلون للتغيير والتبديل في شكلهم الخارجي والداخلي، إذ أنهم يخضعون لقوانين الطبيعة التي

407 محمد 15.

وضعها البارئ سبحانه وتعالى، إذ أنّه من المستحيل وفقا لهذه القوانين أن يثبت شباب الإنسان ويدوم، وأن يظل في عالم الطفولة طوال العمر، فمراحل العمر البشرية مرتبة كما أرادها الخالق عزّ وجلّ، فيبدأ الإنسان طفلا ثم يمر بمرحلة الشباب فيصل أخيرا إلى الكهولة، وهذه المراحل المتدرجة في العمر لا يفر منها غني أو فقير مسلم أو كافر فالتّاس سواء فيها لا يمكن لأحد أن يغير فيها شيئا، وبذلك فإن للغلمان أيضا عمرا محدودا لفترة الرّيعان والفتوة والقوّة، لا تمتد إلا لبضع سنوات ويبدأ بعدها الشيخوخة بالسعي إليهم فلا يقدرّون على الخدمة كما كانوا يفعلون.

أمّا غلمان أهل الجنّة الذين يقومون على خدمة أهل الجنّة فإنهم يختلفون عنهم في الحياة الدنيا، قال تعالى: { وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ } 408، ففي وصف الآية الكريمة للغلمان في جنان الخلد نخرج بالتالي:

أ - أنّ الغلمان لا يأتون حسب الحاجة فقط بل إنهم دائمي الطواف بينهم لعل لأحدهم طلبا فلا يكلف نفسه عناء النداء بل يجدهم أمام ناظره في وقتٍ شاء، فهم مكلفون من الخالق البارئ لخدمة هؤلاء المخلصين الذين استحقّوا كل هذا النعيم بما قدموه من أعمال في الحياة الدنيا.

ب - العمر الذي يكون عليه الغلمان هو أوج الصبا والقوّة إذ أنّهم مبرّتون من العجز أو التقدّم في السن، لأنّ دوام الشباب والفتوة لا يكون إلا لهم وهي ميزة ميزهم الخالق بها كي يكونوا في أعلى درجات القوّة والجمال.

408 الطور 24.

ج _ هؤلاء الغلمان ليس من بينهم من هو ذميم الخلقة أو قبيح المعشر، بل يتصفون جميعهم بالجمال الذي وهبه الله تعالى لهم، بوصفه لهم كاللؤلؤ الذي ما يزال محبوباً في أصدافه، يبقى خيره فيه ونستطيع الاستفادة منه في كل شيء، مع احتفاظه بخواصه.

نوع الخطاب بين أهل الجنة

يتنوع أسلوب الكلام والتخاطب بين البشر على وجه الأرض، فهناك من هو جاهل بكيفية التخاطب، وهناك العالم بالمنطق الحسن للكلام، وهناك من يتعمد أذية غيره وجرح مشاعره بكلمات جارحة، كما نجد بعض البشر لا يتوصلون لطريقة التفاهم مع بعضهم البعض بسبب اختلاف اللغات، فذلك التنوع في أسلوب الخطاب لا يمكن أن نجده بين أهل الجنة الذين لا يسمعون فيها إلا طيب الكلام وأحلى العبارات، وكيف لا وهم الذين انتقاهم الخالق من بين خلقه ليكرمهم بالجنة الخالدة إكراماً لهم على حبهم له وإخلاصه في طاعته؟

كما جاء في قوله الكريم: { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا } 409، وقوله تعالى أيضاً: { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا } 410

إذن فقد جعل الخالق سبحانه وتعالى الجنة وما فيها مبرأة من الدنويات وإن كان فيهما بعض الأشياء المتشابهة مع اختلاف الميزات والخواص، فكل ما على الدنيا قابلٌ للفساد والانهاء

409 مريم 62، 63.

410 الواقعة 25، 26.

والتغيير، أما ما في الجنة فهو دائم لا يتغير ولا يتبدل فيكون على أحسن صورة.

لذلك فعلى خليفة الله أن يرنو بنظره نحو الخير الأبدي الكبير الذي ادخره البارئ لعباده المتقين، الذين استحقوا أن يرثوا الأرض كما أراد الله، فلا ينخدعوا بما في الحياة الدنيا من زينة زائلة ذات عمرٍ قصير، بل يسعون نحو الأفضل والأبقى والأشهى، قال تعالى: { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } 411.

اللهم يا البارئ الخلق برئنا فلا براءة بعد براءتك ولا فضل إلا فضلك فبرئنا اللهم بفضلك عن الشرك بك وبرئنا من عبادة غيرك بهدايتك لتوحيدك والانصياع لك عن طيب خاطر.

اللهم برئنا من الظلم بإلھامنا العدل، ومن الخطايا والسيئات بإرشادنا إلى الطاعات. كما نسألك اللهم أن تبرئنا من الإفساد في الأرض بالأفعال والأقوال لنستحق بذلك رضوانك ونكون خلفاؤك في الأرض.

4. خير:

الخير هو المدرك للحق والمدرك لأهمية اتباعه، ولذا لا خير إلا من أدرك الحق واتباعه وأدرك الباطل فاجتنبهه، ونهى النفس عن الهوى وعمل من أجل الآخرين إصلاحا وإعمارا ونهى بما نهى الله عنه ودعاية وتبشيرا بما أمر جلّ جلاله، ولذلك فالمدرك هو الخير.

411 القصص 60، 61.

ولأنه المدركُ جلّ جلاله فهو المدركُ لما خلق بما خلق، فهو
يدركنا بما لا يُحصى ولا يُعد، ومنه:

. يُدركنا بالحاجة إليه.

ولهذا فالخير من الخلق هو من يرك الناس المحتاجين بما يشبع
حاجاتهم أو يُسهم في إشباعها، أو بما يرشدهم للتي هي أحسن
وأقوم، قال تعالى: {وَأذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ
الْأَخْيَارِ} 412، والأخير هم المتميزون بما ميّزهم الله به عن الغير
فأعطاهم ما لم يعط الآخرين نبأً وحكمةً وبيّنةً وهداهم إلى هداية
الناس.

. يُدركنا بقوته.

والخير بالإضافة هو من يوجّه قوته في خدمة الآخرين حتى
يكونوا على القوّة التي من أجلها خلق على أحسن تقويم وبها يُحقّ
الحقّ ويُدمغ الباطل حتى يزهد.

. يدركنا بقدرته.

والخير هو من يكون قادراً على قول الحقّ وفعل الحقّ وغير متردد
في ذلك وفي أي مكان وزمان وجد فيه.

. يُدركنا بملكه.

والخير هو من يعلم أن ما يملكه من ملك هو من ملكه الواسع
جلّ جلاله فلا يطغى ولا يظلم الناس أشياءهم.

. يُدركنا بسلطانه.

والخَيْرُ هو من يعلم بأنه لا سلطان إلا سلطانه فلا يهيمن على
النَّاس بما يملكه من سلطان، بل عليه أن يجعلهم على المودة أخوة
متحابين.

. يدركنا بعرشه.

والخَيْرُ هو من يؤمن بأنه لا مطلقية للعرش غير عرش الله تعالى
فلا يكفر ولا يشرك ولا يضل ويطغى، بل عليه أن يتقي الله فيما
يولى عليه من عرش، وأن يجعل النَّاس على بساط العدل والمساواة في
مرضاة الله تعالى ذو العرش العظيم.

. يُدركنا بسمعه.

والخَيْرُ هو من يستمع للنَّاس ويُسمعهم الحقَّ ويبين لهم حتى
يهتدوا إلى سواء السبيل.

. يدركنا ببصره.

الخَيْرُ هو من يؤمن بالبصير المطلق ويسترشد بأمره ونهيه فيهتدي
ويهدي الآخرين بهداه.

. يُدركنا بإطعامه.

الخَيْرُ هو من يدرك أنه لا إطعام إلا منه جلّ جلاله الذي يطعم
الجنين والمحمول في بطن أمه ويطعم كل من خلق وهو في حاجة لأن
يُطعم، ولهذا فالخَيْرُ هو من يعمل صالحاً يرضاه المطعم الأعظم عزّ
وجلّ.

وهكذا الخَيْرُ هو من يدرك بعقله وخبرته وهدايته وعلمه وحكمته
بأنه لا نعمة ولا فضل إلا من واسع النعمة والفضل وهو من يدرك

الحقّ ويعمل على إحقاقه وفقاً لما بيننا فيما سبق في هذا الموضوع
الذي نحن لا زلنا بصدده والذي منه المدركات الآتية:

. يدركنا بخلقه .

. يدركنا بنعمه .

. يدركنا بعلمه .

. يدركنا بحكمته .

. يدركنا بصفاته .

. يدركنا بأفعاله .

. يدركنا بالموت .

. يُدركنا بالبعث .

. يدركنا بالثواب .

. يُدركنا بالعقاب .

. يُدركنا بما نعلم وبما لا نعلم مصداقاً لقوله تعالى: {أَيُّنَمَا تَكُونُوا
يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا
هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} 413.

وعلى الخليفة أن يُدرك أمره وأمر من يتعلق أمرهم به عن بيّنة
ومعرفة لأجل أن يحسن التصرف مع كل حالة وموقف وألا يعمم

413 النساء 78.

الأحكام على المواضيع والأفراد والجماعات فلكل خصوصية تستوجب التقدير والاعتبار والفهم والتفهم مع فائق الاحترام.

وعليه أن لا يصدر أحكامه سماعا فالأخبار التي تُنقل في كثير من الأحيان يشوبها التضليل والتشويش وترافقها النوايا غير الصافية ولذلك ينبغي التبيين قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٍ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } 414.

والخير هو الكريم الذي يجود بفعل الخير أينما كان وحل، والخير هو من يعرف الأعمال غير الخيرة ويجتنبها وينهي عنها ويعمل كل ما من شأنه أن يحقق خيرا لبني جنسه في مرضاة الله عز وجل، ولذا فالخير هو الكريم الجواد، والكريم هو الجواد بالتمام، وهما الأول والآخر، إلا أن الفرق بين فعل الكرم وفعل الجود: الكرم صفة لفعل العطاء قبل انتظار الطلب أو قبل توجيهه، والجود فعل عطاء مترتب

414 الحجرات 6 . 11.

على فعل الطلب، فيكون فعل سريع الإجابة لمن تضرع أو تقدم بطلب، ولذلك كلا الصفتين حسنتان. ومن هنا، كان ذو الكفل خيراً بأعماله وكرهما بأفعاله التي استمدّها من الكريم الواسع الذي وسعت رحمته كلّ شيء خلقه.

والواسع هنا هو، الذي وَسِعَ رِزْقُهُ جَمِيعَ خَلْقِهِ وَوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ وَغِنَاهُ كُلَّ فَقْرٍ، والواسع "الكثيرُ العطاءِ الذي يَسَعُ لما يُسألُ" 415.

اسم الواسع هو الذي وسع علمه الظاهر والباطن، ووسع فضله الكون سماواته وأراضيه السبع دون عناء أو ضعف أو كلل، ووسع فضله العابد الزاهد، كما وسع الكافر الفاجر، فأطعم بسعته الظالم الكافر كما أطعم منها العالم العارف بفضله؛ لا لشيء لأن الدنيا بسماؤها وأرضها لا تساوي عنده جناح بعوضة ولو كانت كذلك ما سقي منها كافراً شربة ماء.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} 416، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَرِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ 417. وَقَالَ اقْرَأُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ

415 لسان العرب، ج 8، ص 392

416 البقرة 26.

417 صحيح البخاري، ج 14، ص 355.

رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُورًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا {418}، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيسِيِّ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: "يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِيكُمْ وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَعْنَيْتُ فَسَلُونِي أَرْزُقْكُمْ وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَيُّ ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَعْفِرْنِي عَفَّرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيْكُمْ وَمِيتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيْكُمْ وَمِيتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشَقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيْكُمْ وَمِيتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَعَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ ذَلِكَ بِأَبِي جَوَادٍ مَا جِدَّ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ عَطَائِي كَلَامٌ وَعَدَائِي كَلَامٌ إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" 419.

418 الكهف 103 . 110 .

419 سنن الترمذي، ج 9، ص 35.

وفي هذا الأمر يقول الرازي: "الله تعالى واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم، فلو ذكر تعالى أنه واسع في كذا لاختص ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسع وما أضافه إلى شيء معين دلّ على أنه واسع في جميع الكمالات، وتحقيقه في العقل أن الموجود إما واجب لذاته، وإما ممكن لذاته، والواجب لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى، وما سواه ممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الله الواجب لذاته، وإذا كان كذلك كان كل ما سواه من الموجودات فإنما يوجد بإيجاده وتكوينه، فلزم من هذا كونه واسع العلم والقدرة والحكمة، والرحمة، والفضل والجود، والكرم"420.

الواسع: من وسع ملكه كل شيء ولا يسعه شيء، وهو المحيط لكل شيء ولا يحاط بشيء، وهو الذي يعلى كل شيء ولا يعلو عليه شيء، وهو الخالق الذي لا يُخلق، وهو الرحمن الرحيم. والواسع هو الذي تمتد قدرته وقوته فيما ندرك وما لا ندرك وفقاً للآتي:

1 . تمتد في العدم: ولأنه تعالى هو الأول والآخر فلا أول سابق عليه ولا آخر لاحق به، ولأنه الخالق لكل ما خلق وما يخلق لذا فلا خلق أول قبل أن يخلق الأشياء التي منها كان الشيء مع أمره كن مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 421، وقال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ

⁴²⁰ تفسير الرازي، ج 5، ص 405.

⁴²¹ يس 82، 83.

قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ {422}

2 . تمتد في الحياة: قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} {423}، وقال تعالى: {وَإِذْ كُنَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَمَنْ قَوْمٌ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} {424}، وقال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} {425}.

422 البقرة، 117، 118.

423 القصص 77.

424 الأعراف 156 . 159.

425 غافر 7.

3 . تمتد في الموت: قال تعالى: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفُوهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} 426، وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} 427.

4 . تمتد في البعث: قال تعالى: {أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَتِلْهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} 428، وقال تعالى: {كَأَلَّا إِهْمَا كَلِمَةً هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} 429.

5 . تمتد فيما نعلم وما لا نعلم: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 430، وقال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} 431، وقال

426 آل عمران 141 . 143.

427 آل عمران 185.

428 النمل 64، 65.

429 المؤمنون 100 . 104.

430 البقرة 30.

431 البقرة 151 . 153.

تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 432.

والخليفة الواسع بالإضافة هو الذي يدرك الحقيقة ويُقدم على فعلها ويعمل بها دون انخياز لمظلمة، ويقول الحق ولا يتعصب لرأي في دائرة الشك، وهو الذي يقوم بالمكرمة، فيحكم بين الناس إذا حكم بينهم بالحق العدل، وهو الذي يقدم المكرمة دون طلب منه؛ لأن الخليفة يستمد سعته من الواسع المطلق الذي مهما طلبت منه فإنه لا يردك خائبًا ولا خاسرًا، وهو مهما أعطاك فلا ينقص من عطائه شيئًا، وهذه السعة جاءت من كونه جلّ جلاله مالك الملك، فهو يعطي كيف يشاء ومتى شاء، فيعطي هذا مالا وآخر بنينا وآخر ملكًا، وغيرهم من كل ما ذكر يعطي، ومن غيره كذلك يعطي، قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} 433، وقال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 434.

وعليه فالواسع: هو من لا يضيق بشيء وهو من لا تسعه الأشياء ولو جُمعت، يفيض بالعطاء وبما يهب لمن يصطفي ولمن هم في حاجة ولا تلم به حاجة ولا ضائقة ويشبع كل حاجة ويفرج كل

432 البقرة 216.

433 الشورى 49، 50.

434 آل عمران 26، 27.

ضائقة، وهو الذي وسع كل شيء علما مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا
 إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} 435. في هذه
 الآية الكريمة إظهار لسعة الله لكل شيء دون غيره فالعلم مهما تقدم
 لن يبلغ علم الواسع العليم، فهو يعلم ما في الأرحام وما تكنه
 الصدور وما تبديه، وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم،
 وعلم الله علم وحدانية أي أن الاختصاص بالعلم المطلق له وحده لا
 شريك له، ووسع كل شيء علما في حالتي جواز بين اثنين:

الأول: وسع كل شيء علما، إنه خلق كل شيء وجعل كل
 شيء على علم من علمه ولهذا ما من شيء إلا يسبح باسمه مصداقا
 لقوله تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ
 السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
 وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} 436، وبما أن
 كل شيء يسبح باسمه، إذن المسبح باسم الله تعالى مدركا له أي أنه
 يعلمه هو كما هو دون شك ولا ظن ولا تبديل ولا تعدد ولا
 مشاركة سبحانه واحد أحد. ولهذا قال: (وسع كل شيء علما)،
 وقال تعالى: {سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ
 وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ
 وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
 وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِدَاتِ

435 طه 98.

436 الإسراء 43، 44.

الصُّدُورِ {437}. وعليه كل هذه العلوم والمعلومات هي سعة من الله تعالى لكل ما خلق والحمد له واحد أحد لا شريك له.

الثاني: إن علم الله وسع كل شيء أي أحاط بكل شيء وهذا الأمر لا يتعارض مع الأمر الأول الذي فيه يتم إدراك المخلوق للخالق وبعلم منه أي بقوة عظيمة، فوسع كل شيء علما، تعني مما تعني أنه أحاط بكل شيء علما قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {438}. وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} {439}.

فالله واسع لعلمه بالأشياء جميعها وفي آن واحد دونما عناء أو تعب، فهو الذي إذا شاء جعل الواسع ضيقا كما هو حال الكافرين، قال تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} {440}، وإذا شاء جعل الضيق واسعا كما في قصة نوح عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا

437 التغابن 1 .4.

438 الأنعام 59.

439 الأنعام 73.

440 الأنعام 125.

سَمِعْنَا هَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِئْنَةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى
حِينَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ {441}، فقولته تعالى: (فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ
اِثْنَيْنِ) فيه أمر من الله جلّ جلاله لخليفته بأن يحمل من كل زوجين
اثنين، دون النظر إلى تقاربهما وعداوتهما فالله جلّ جلاله هو الذي
تكفل بكل شيء داخل السفينة وخارجها، فليس لسيدنا نوح أن
يفكر في أن يؤلف بين الأعداء، فهو سبحانه جل في علاه القادر
على أن يجعل الضيق واسعاً، فاستطاع أن يؤلف بينها حتى نزلت
سائلة بحوله وقدرته، وإلا كيف كان الذئب والخروف والثعلب
والدجاجة والضبع والحمار والثعبان والإنسان وهكذا كان الجميع
سالمين متآلفين بالرغم من التنوع الطبيعي في خلق الله تعالى، ولذا
فإن كل شيء بحكمة ولحكمة، فمن حكمه الظاهرة في هذه القصة
إنه يريد أن يحافظ على كل نوع من هذه الكائنات، وربما يتساءل
البعض: أليس هو القادر الخالق الذي يستطيع أن يخلق غيرها ومن
جديد؟ فالإجابة إن لكل شيء سبباً وأن من وراء كل شيء يفعلته
حكمة، لهذا علينا أن نسلم له في كل الأمور، لأنه هو الذي يعلم
بكل ما يجري وما يدور حولنا في أرضه وسماؤه، ولذلك على خليفته
أن لا يشغل باله في الأسئلة عن الأمور التعبدية فيقول: لماذا جاءت
الصلاة كذا ركعة، أو الطواف في الحج كذا شوط، بل يقوم بما
يصلح به نفسه ويصلح به عباد الله، ليفوزوا بالجنة التي وعد الله جلّ
جلاله بها المتقين عرضها السماء والأرض، قال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى

مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ
 آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا
 فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ
 يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ
 الْحَمِيدُ {442، فهذه الآيات الكريمة من يقرأها يرى فيها من مظاهر
 سعته سبيعا ومنها:

1 . سعة ملكه: إنه المالك المطلق للحياة والموت والبعث والجماد
 والنبات والبر والبحر والماء واليابس والسموات والأرض فله الملك
 وله الحمد وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: {وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ
 وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ
 وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَانِتُونَ بَدِيعُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} {443،
 وقال تعالى: (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)، أي كلها تحت
 ملكه وسلطانه الذي لا يرام ولا تستوعبه الأفهام، فهو ما وعد
 بشيء إلا وهو قادر على فعله {إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ
 سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا
 شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ} {444، فكل ما حوت السموات
 والأرض إلا وكانت كما قال جل في علاه: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ
 الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ

442 الحديد 21 . 24.

443 البقرة 115 . 117.

444 البروج 107، 108.

ذَ الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 445، وقال تعالى: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } 446.

2 . سعة علمه: قال تعالى: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } 447 فهذه الآية تدل دلالة واضحة على علمه وحفظه، فالكتاب فيه رمز وإشارة إلى الحفظ، والعلم بكل كبيرة وصغيرة، فيوم القيامة يفاجأ الكافر بهذه الدقة المتناهية التي لم تكن له في حسابان، والمؤمن يدخل الجنة بعلمه المسبق إنها الحق من الحكيم الخبير قال تعالى: { الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَا إِنَّهُمْ يَتُنَوَّنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا

445 البقرة 255.

446 الزمر 67.

447 الحديد 22.

سِحْرٌ مُّبِينٌ وَلَئِنِ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ إِلَّا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَلَئِنِ أَدْفْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ وَلَئِنِ أَدْفْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} 448، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} 449، علم الله تعالى يجمع المعرفة التامة والكاملة بعلوم التالية:

- أ . علم الحياة.
- ب . علم الممات.
- ج . علم البعث.
- د . علم الظاهر.
- هـ . علم الباطن.
- و . علم الوجود.
- ع . علم المكان.
- غ . علم الزمان.
- ص . علم الحركة.
- ض . علم السكون.

448 هود 11 . 1.

449 الأنعام 73.

ك . علم الغيب .

ل . علم اليقين .

ولذلك وسع علمه كل شيء، والخليفة هو الذي يستمد العلم من علمه والحكمة من حكمته حتى تتسع دائرة معارفه ويتقي الله ربّه ولا يشرك به أحدا.

قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} 450، وقال تعالى: {وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} 451، وقال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} 452، وقال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} 453، فكذلك الخلفاء هم الذين يمنحهم الله نعمة العقل والفهم والتفهّم والاستيعاب ليسعوا هذا الكون جزئيا؛ فغيرهم قد لا تكون لهم القدرة على التحمل والصبر الذي وضعه الله جلّ جلاله في قلوب خلفائه فصاروا يحملون صفة الواسع بالإضافة إليه، بعدما

450 الطلاق 12.

451 الكهف 48، 49.

452 الأنبياء 47.

453 لقمان 16.

غرس فيهم العلم والدراية، فهل للخليفة أن يطالع ويقرأ ويدرس؛ حتى تتسع مداركه ويفهم ما حوله، فالعلم نور لا يزيد صاحبه إلا معرفة وتقوى.

3 . سعة قدرته: فقلوه تعالى: (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) يدل دلالة واضحة على قدرته وسطوته فهو يفعل ما يريد متى يريد، وإلا من الذي يجعل الصعب يسيرا وسهلا إذا لم يكن قادرا على فعل ما يريد وبكل سهولة ويسر، قال تعالى: {وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 454، وهنا في هذه الآية الكريمة التقت السعة وبكل وضوح وجلاء مع القدرة، فهذا التحدي الواضح لكل من يريد أن يختفي أو يظن أنه قادر على ذلك فليعلم أن هناك ربًا واسعًا قديرًا يأتي به متى يشاء وكيف يشاء. وهذه القدرة وسعة الملك منحها الواسع العظيم لخلفائه من قبل ولكن بالإضافة لا على سبيل الإطلاق؛ لأن ذلك لا يتأتى إلا لله وحده العزيز القاهر فوق عباده، وذلك عندما أعطى الله سيدنا سليمان الملك الواسع والثراء في الأرض، وكان ذلك بناء على طلبه، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} 455 وقال تعالى في صفة الملك الذي منحه له: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ وَأَخْرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ} 456.

454 البقرة 148.

455 ص، 35.

456 ص، 36، 40.

قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا} 457. وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} 458، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِمْلِهَآ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} 459.

4 . سعة ميزانه: ففوله تعالى: (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)، هنا يأمر الله جل جلاله خلفاءه بالتوازن في حياتهم فالله هو الذي وضع هذه الأمور ونبه خليفته لذلك؛ لأنه مالك الميزان الحقيقي لكل كبيرة وصغيرة، فهو الواسع الذي وسع كل الأشياء وبعناية تامة ودقيقة بل غاية في الدقة واللطف. قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} 460، فالخليفة يكون مترنا معتدلا في أمور حياته الدنيوية فلا يبطر ولا يتكبر ولا يتعجر، بل يسير كما أمره رب العزة، لأن الله

457 الإسراء، 99، 100.

458 إبراهيم 19، 20.

459 فاطر 15، 18.

460 الأنبياء 47.

لا يجب المختال الفخور بنفسه ونسبه وماله وليعلم أن كل ذلك إلى زوال.

ولأنّ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فبالنية الطيبة تزداد الأعمال الحسنة وبالنية غير الحسنة تنقص الأعمال، ولذا فالميزان الذي يستوفى على أيدي المستخلفين فيها يؤدي بصاحبه إلى العيشة الراضية، أمّا أولئك الذين ينقصون الميزان فأمهم هاوية وعليه قد تساءل جلّ جلاله عما هي الهاوية؟ ويجيب: بأنّها، نار حامية. فالميزان هو مقياس الأعمال مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ 461، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ 462.

ميزان الخليفة لا يوضع إلا للحق، ولا يزن إلا بعدل، وهو الذي لا يقلل من شأن العباد، يوفي مخافة الله وإحفاقا للحق، ويوضع لأجل ألا يسود ظلما ولا تؤكل أموال الناس بالباطل بينهم ويعم الفساد في الأرض، ولهذا فالخليفة مصلح والمصلح هو الذي يسع ميزان عدله كل من يزن إليه. والوزن مراعاة لما يجب والعمل به وتجنب عما يجب تجنبه والعمل به.

5. سعة يومه: اليوم يسع الحركة والسكون ويسع القول والعمل والفعل والسلوك دون أن يكتظ بشيء على حساب آخر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

461 الرَّحْمَن 7 .9.

462 الإِسْرَاءُ 35.

مُقَدَّرُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالَمُ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ { 463 قال تعالى: { سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعِ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ
لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
مُقَدَّرُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا } 464.

اليوم في حسابات الخليفة جزء من الزمن العام المتصل لا
المنفصل، ولذلك فليوم حساب وللحركة والسكون فيه حساب،
ولكن أية حركة وأي سكون؟ بطبيعة الحال تقع الحركة في دائرة
الممكن المتوقع وغير المتوقع، مما يجعل الحسنات واقعة في دائرة
المستخلفين وغير الحسنات إن وقعت جنبا إلى جنب مع ما يخالف
الحسنات سلوكا أو عملا وفعلا تصبح بالنسبة للمؤمنين في نصف
الدائرة غير المتوقع، أي أنه من غير المتوقع أن يقدم خليفة على عمل
الحرام، فإن أقدم ادخل نفسه في تلك الدائرة التي لا تحمد عاقبتها،
وذلك لفقدانها رضا الله ورسوله والمؤمنين المستخلفين فيها بحمد الله
وفضله، ومع أن اليوم واحد إلا أن حساباته ليست واحدة، وإلا هل
يستوي من يعمل صالحا مع من يعمل طالحا؟ ولذا فهناك من يخسر
يوما كاملا وهناك من يفوز به مضاعفا بأعمال الخير وأفعاله، وفي
مقابل ذلك هناك من يخسر حياته بجرمة لا تغفر وبهذا فقد في ذلك
اليوم كل أيامه. إذن هناك أيام تمتد متصلة حتى الجنة وهناك أيام
تمتد متصلة حتى النار، ولهذا تتسع الأيام بالأعمال الحسنة وتضيق
بالأعمال السيئة التي تكون نتائجها غير محمودة.

6 . سعة كرمه وعطائه: فقله تعالى: (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) وذلك على غير

463 السجدة 4 . 6.

464 المعارج 1 . 5.

ما جاء في وصفه للذين وصفهم الله جلّ جلاله بالبخل، فالله هو الغني الحميد، ولذلك من مسلمات صفات الغني أن يكون واسعاً وإلا كيف يكون غنياً؟ إذا فهما صفتان متلازمتان لكل من وُصف بأي صفة منهما، وهكذا اقترنت صفة الواسع بالعليم في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {465}؛ ولأنه وسع كل شيء علماً وإدراكاً فهو قادر على أن يضاعف الحسنات كيفما يشاء ودون جهد أو عناء لأنه ذلك عليه سهلاً يسيراً، فهذه الآية الكريمة تبين صفة الخليفة الذي وعده الله بالجنة بأن لا يكون بخيلاً فلا بد وأن يكون متصفاً بالجود والكرم إضافة إلى ربه الذي جعله خليفة في أرضه، قال تعالى: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} {466}. ومن كرمه على بني آدم:

465 البقرة 261.

466 الحديد 11.7.

أ . حمله في البر والبحر، فقد هيا له سبل التنقل في البر والبحر،
قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} 467.

ب . خلقه في أحسن تقويم: قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ
عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ
لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} 468.

وقال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ
مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ} 469 قال تعالى: {تَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَالِقِينَ} 470.

وقال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ
أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ} 471

ج . تذلل الأرض والحيوان له: قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا
لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا
رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} 472

467 الإسراء 70.

468 المؤمنون 12، 14.

469 السجدة 7. 9.

470 الصافات 125.

471 التين 4. 6.

472 يس 71. 73.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} {473}. وعلى الخليفة أن يقابل ذلك الكرم بما أمره تعالى تجاه هذه النعم قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} {474}.

- سعة مغفرته: قال تعالى: {والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم}، مع أنّ الخالق خلق الإنسان في أحسن تقويم، إلا أن البعض لم يستثمر هذه الميزة في ما هو أحسن وأفضل وأجود، وذلك بأسباب خلقه على التمام وليس على الكمال، ولأن الكمال لله وحده فالإنسان بطبيعته قد يغفل أو يقصر أو يظل السبيل لذا كان واسع الفضل ذو مغفرة واسعة بها تسوى الأمور ويحدث الصواب والتصويب حتى تعم الرحمة والمغفرة، وقال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} {475}.

وقال جلّ جلاله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّوهَا نَصَرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ} {476}.

473 الملك 15.

474 القصص 77.

475 الزمر 53.

476 الصف 10 . 13.

8- سعة فضله: الواسع جلّ جلاله يضاعف الحسنات أضعاف كثيرة، وتحسب الحسنة بمجرد التفكير فيها، والسيئة لا يعاقب عليها إلا بعد فعلها ولا تكتب إلا سيئة واحدة، قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {477، وقال تعالى: {إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} {478، وأما الكافر المعاند الذي يفسد في الأرض ويعمل على ملئها جورا بعكس ما يود له أن يكون عليه ودا وإصلاحا وعدلا، فإن الله جلّ جلاله يضاعف له العذاب؛ وفي مقابل ذلك يجازي المحسنين في الأرض بأن لهم المغفرة والتوبة والجنة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} {479، ولكن من تاب وامن وعمل صالحا فإن رحمته وكرمه وحلمه يستوعبه ويدخله الجنة بغير حساب ذلك لسعة فضله. قال تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} {480، وقوله تعالى: (والله واسع عليم) واسع بذاته،

477 البقرة 261 . 263.

478 الحديد 18.

479 الفرقان 68 . 70.

480 آل عمران 73 ، 74.

وعليم بملكه وأمره وفقا لقاعدة ما يجب وما لا يجب في دائرة المتوقع وغير المتوقع.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } 481. بطبيعة الحال كل خليفة في الأرض يؤمن بأن فضل الله واسع ولهذا قال تعالى: { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } 482، وقال تعالى: { رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } 483.

وقوله تعالى: { إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } 484، الفقراء هم الذين في حاجة لما يشبع حاجاتهم المتطورة والمتغيرة عبر الزمن، ولأن الإشباع يحدث برزق قد لا يحسب له

481 المائدة 54، 55.

482 البقرة 112.

483 النور 37، 40.

484 النور 32.

حساب، كما هو حال الأرض الجزر التي يعمها السحاب فيهطل مطرا ينبت عشا وزرعا فيؤتى أكلها كل حين حتى يتحقق الإشباع رحمة من واسع عليم فله الفضل والفضل منه رحمة والحمد له في كل حين.

9- سعة أمنه: جعل المؤمنين آمنين في الدنيا والآخرة، أما في الحياة الدنيا فقال تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ} 485، فيكونون آمنين ماداموا في عبادة ربهم جلّ جلاله، من الجوع بما وفر لهم من أسباب العيش الرغد، وآمنين من الخوف بما وفر لهم من أسباب القوة والهيبة الإلهية؛ لأنهم عملوا بما يستوجب أن يكونوا به خلفاء على أرضه، هذا في الحياة الدنيا، وهذا ما كان يدعو به سيدنا إبراهيم الخليل، قال تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} 486، طلب إبراهيم الخليل عليه الصلوة والسلام الأمن عندما رأى أن ربه قادر على ذلك، وهو محتاج إليه، وذلك بسبب انتشار الكفر وغياب الأمر الإلهي، وقيام الدستور البشري بما يحمله من تناقضات وفتن وخراب، فكان بطبيعة الحال نتاجه الهرج والمرج الذي أعقب فوضى وغوغائية؛ ممّا جعل سيدنا إبراهيم عليه الصلوة والسلام يطلب الأمن الذي فقده خوفا على ضياع ما بناه لسنوات من دين

485 قريش، 4، 3.

486 البقرة، 125، 126.

وعمارة المسجد، وهذا ليس غريب؛ أنه من سلوك الخليفة وطبعه الذي غرسه الله جلّ جلاله فيه بأن يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة؛ ليرى البلاد آمنة مطمئنة، قال تعالى: {اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} 487، أما في الآخرة فإن سعة أمنه واضحة جلية بما وعده لهم من الخيرات، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} 488، وقال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَن يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} 489.

10 . سعة إمهاله وإرجائه للكافرين والمشركين: إنه الواسع بفضلله على من آمن وعلى من كفر، والفرق بين ذلك سعته للمؤمنين في الدارين وسعته على الكفرة والمشركين في الدار الدنيا،

487 النحل، 125 . 128.

488 الأنفال 74.

489 آل عمران، 133 . 136.

ولهذا المؤمنون دائما في عليين مصداقا لقوله تعالى: { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينُ كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَإِلَّ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ
مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو
الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ
لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ
الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ وَمَرْأَجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرُمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا
انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ
وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ } 490. وقد يتساءل البعض على سعة الإهمال لا
الإهمال فيقول:

. هل كان ذلك عبثا؟

. بالطبع لا.

. هل كان ذلك ضعفا؟

. بالطبع لا.

. هل كان ذلك عجزا؟

. بالطبع لا.

490 المطففين 7 . 34.

. هل كان ذلك جهلا؟

. بالطبع لا.

. هل كان ذلك تقصيرا منه؟

. بالطبع لا.

وهل كان؟، وهل كان إلى ما لا نهاية بالطبع لا.

ولذا فإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. وإلا هل هناك من يستطيع أن يعد نعم الله عليه في عقله الممتلئ بملكات التفكير والتذكر وهي تتكون من مركبات عصبية دقيقة وانبعث حياة واسعة تمتد مع كل آفاق وتمتد مع الظاهر والباطن أشياء ترى وأخرى أكثر لا ترى، فإن تعدوه لا تعد، وانظر إلى العينين هل هناك من يعد ما تراه من جميل وجمال واللسان وما يقوله من حقّ وهو يستمد العبارات من خلايا الدماغ التي لا تعد والعلاقات القوية المنتظمة بين العقل واللسان والعينين وما تمتد إليه في علاقات مع الفؤاد والضمير الذي يشغل حيزا من التفكير ولا يشغل حيزا من المادة إنه المكون الذي لا يعد وهكذا في أنفسهم أفلا يبصرون قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} 491، وقال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} 492.

491 السجدة 27.

492 فصلت، 53، 54.

سبحانه إنه الواسع الذي بسعته كان ممهلاً ولم يكن مهملاً، وهو الغفور الودود الذي بعدله في الخلق أوجب الثواب والعقاب، ولكن بعد إمهاله لعله يتوب لربه ويتبع نهج الخلفاء في أرضه، قال تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} 493، وقال تعالى: {وَلَيُنْزِلُنَا عَلَيْكُمُ الْمَطَرُ مِنْ سَمَاءٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا نَحْنُ بِمُحْسَبِيهِ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} 494.

11- سعة استيعابه للمؤمن والكافر: لأنه يستوعب المؤمن فيرفعه أعلى درجات الجنة، ويستوعب الكافر فيمهله حتى الغرغرة، ولو لم يكن واسعاً ما كان حليماً على المذنب، وكل ذلك بمغفرته، قال تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ

493 البقرة 126.

494 هود 8.

يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ {495، فسعته جعلته يستوعب المؤمن فيدخله الجنة بغير حساب. وسعته جعلته يستوعب الكافر فيمهله ويجعل له رزقا وهو يعلم أنه العاصي في البر والبحر وفي الجهر والخفاء، ويطعمه من ثمرات الأرض ويسقيه من أنهارها ماء ثجاجا، تحت الشمس الوهاج والقمر المنير، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَدْوِفُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَافًا جَرَاءً وَفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا {496، وقال تعالى: { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلِئْسَ الْمَصِيرُ {497، وكذلك لا ننس سعة العذاب الذي أعده للظالمين الكافرين والذي يجب على الخلفاء أن يجذروه ويجذروا منه مستخلفيهم فيفوزوا بهم ويدخلوا الجنة الواسعة التي أعدها للطائعين، قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ بَحْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ {498، وقال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ مَا أَصَابَ مِنْ

495 الرعد 6 .13.

496 النبا 13 .30.

497 النور 57.

498 الرعد 35.

مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {499}، وهكذا يكون الخليفة واسعا
وإن كان ذلك نسيبا، وذلك:

أ . أن يكون واسع البال مطمئن النفس فلا يضيق بما يعمل
المفسدون وأن يعمل واثقا بأن الحياة الدنيا متاع الغرور فلا يغتر . قال
تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ
الْعُرُورِ لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا
فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} 500.

ب . أن يكون واسعا في كتم أسرار غيره ولا يعطيها للآخرين،
فيستوعب الأسرار ولا يذيعها حتى لا يضر بها الآخرين ويؤذيهم .

ج . أن يرى الأشياء بنظرة ثابتة ولا يغفل، حتى لا تذهب عنه
الحقائق والدقائق .

وكل ذلك يزيد عن كون الخليفة سعته نسبية؛ لأن الواسع المطلق
جلّ جلاله لا يضيق بشيء وأن ضاقت به نفوس الناس . قال تعالى:
{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا
تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} 501.

499 الحديد 21 . 23 .

500 آل عمران 185 ، 186 .

501 النحل 17 . 19 .

12 . سعة مراقبته: فهو الذي يراقب الأشياء من حيث الزيادة والنقص، ومن حيث النمو والانعدام، والانخفاض والرفع المادي للأشياء والمعنوي للنفوس. قال تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 502، أي كل ما على الأرض آخذ به حيث يشاء وكيف يشاء. وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} 503.

13 . سعة ثوابه وعقابه: إنه الواسع الذي يجعل في العمل البسيط الأجر العظيم والثواب الجزيل ودون منة أو رجاء. وقال تعالى: {أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأُحِبُّوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 504. إذن بقوته يسع السماوات والأرضين وما بين السماوات والأرضين، ويجعل النفوس المستخلفة في الأرض تسع أوامره ونواهيها وتتعاظم سعة بما تقدم عليه من أفعال وأعمال فلاح، وتكسب من وراء ذلك الجزاء الوفير والمغفرة الواسعة والرحمة الواسعة

502 هود، 56.

503 هود 6، 7.

504 هود 20، 23.

والجنة الواسعة سبحانه إنه الواسع العليم جلّ جلاله الذي جعل في الأرض خليفة يسع الأرض برسالته الخاتمة حتى تمتلئ إيماناً ومخافة من ضيق أو قصور في غير مرضاة الله.

14 . سعة كرسیه: وسع كرسیه السماوات والأرض مع الإحاطة الكاملة بحفظهما، ومع أنّ كرسیه وسع السماوات والأرض إلا أن وسعه الذاتي جلّ جلاله أعظم، فالكرسي منه ولم يكن سابق عليه فلو لم يكن عزّ وجلّ ما كان الكرسي، ولذا فخالق الكرسي دائماً أعظم من الكرسي الذي وسعت عظمته السماوات والأرض مصداقاً لقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 505.

15 . سعة بنائه: سبحانه من احكم كل شيء سعة وعلماً وعدلاً، خلق كل شيء وجعل الميزان القسط لتنظيم أمور الحركة والسكون وجعل الكواكب والنجوم كل في فلك يسبحون لا تتصادم ولا تتعارض ولا تسقط واحدة على حساب أخرى كل شيء محكم بأمره قال تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} 506، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} 507، وقال تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا

505 البقرة، 255.

506 الحجر 14، 15.

507 ق، 6.

لْمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 508، وقوله تعالى: (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) من السعة أي: أننا قد خلقنا ولا زلنا نخلق الأكثر فلا استغراب فكل شيء بيده ممكن، والسعة يمكن أن تكون مادية ويمكن أن تكون نفسية ويمكن أن تكون إدراكية، ولذلك فإن قوله: (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) تدل على استمرارية القدرة وعدم انقطاعها والخلق وعدم انقطاعه فكل شيء بأمره كان ويكون. اتساع كبير للأرض والسموات السبع واتساع في الامتداد العظيم الذي يربط بين السموات والأرضين السبع، وزيادة سعة في الخلق وما يكسبون، كل جزء من الثانية الملايين والمليارات تخلق في أوساط الخلائق سعة في خلقه دون أن يكون مخلوق على حساب آخر.

16 . سعة قدرته: بطبيعة الحال لا تستمد السعة إلا من قدرة، ولا قدرة إلا من قادر، والسعة بسطة تسمح بالامتداد حتى نهاية الممتد المالك لقدرة الامتداد من القادر المطلق، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} 509، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا} 510، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي

508 الذاريات 47 . 49.

509 الذاريات 38 . 40.

510 الإسراء 99، 100.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّبَ الْمُؤْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {511}. إذن سعة قدرته تحتوي على كل قدرة، وهي القدرة التي تغلب ولا تُغلب، وهي مصدر لكل قدرة، وهي المستمدة من القوّة والمدفوعة بها في كل حركة.

17 . سعة إدراكه: الموسع هو العليم بالأمر وهو القادر على كل أمر وهو العزيز الحكيم، إنه الخالق المدرك لكل ما خلق، وهو الذي بإدراكه يعلم الزّمان وحاله والمكان وحاله والحركة وحالها والسكون وحاله، وهو العليم الخبير بكل ماضٍ وكل حاضر وكل مستقبل وكل غيب. والخليفة دائما في حالة إعجاز أمام خالقه جلّ جلاله، فالخالق بدون مقارنة حيث الأمر لا يستوجب ذلك إيماننا تاما، وذلك بأسباب علمية حيث لا مقارنة إلا بشبيهه، ولأن الله واحد أحد لا شريك له، فهو الذي لا يقارن بشيء والحمد له ربّ العالمين، ومع ذلك أعرضُ على القراء الكرام ما يعلمه الله بالمطلق ولا يعلمه الإنسان بالمطلق:

أ . الماضي بالمطلق لا يعلمه إلا هو عزّ وجلّ، وإلا هل هناك من يعلم بكل ما حدث غير الذي أحدثه وجودا. قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
 وَفُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
 وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا
 فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَفُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ
 عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {512، وقال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ
 الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى
 أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 513.

ب الحاضر بالمطلق لا يعلمه إلا هو: قال تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ
 الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ
 مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
 بِخَفِيظٍ} 514؛ ولأنه يعلم الأشياء ويتصرف وفقا لحاجتها. قال
 تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ
 بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
 مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ
 اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} 515. الحاضر
 هو زمن الوجود والعمل فمن يعمل مثقال ذرة في الزمن الآن يراه
 خيرا في الزمن المستقبل، ولهذا فإن الله لا يضيع أجر العاملين
 المصلحين في الأرض ولذلك سيجزي المحسنين. قال تعالى: {وَمَنْ
 يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ
 يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ

512 البقرة 30 . 37.

513 البقرة 216.

514 الأنعام 103، 104.

515 الرعد 10، 11.

يَكْسِبُ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} 516. أي من يعمل سوء في الزمن الحاضر أو يظلم نفسه ثم يستغفر في الزمن الحاضر بالنسبة للوجود على قيد الحياة ستعمه رحمة الله في المستقبل بالمغفرة والرحمة. وهكذا من يكسب إثماً أو خطيئة في الوقت الحاضر دون أن يستغفر سيجد العذاب الشديد في انتظاره في المستقبل اللهم أجعلنا من المؤمنين الطائعين ولا تجعلنا من مرتكبي الخطايا والسيئات والآثام وارحمنا إنك الرحمن الرحيم.

ج . المستقبل بالمطلق لا يعلمه إلا هو: قال تعالى: { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } 517، وقال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } 518. علم المستقبل في دائرة النسبية هو بالتمام في دائرة الممكن بالنسبة للخليفة، فنحن جميعاً نعلم بأن غدا السبت بما أن اليوم الجمعة، ونعلم أن الصلاة بعد شهادة أن لا إله إلا الله فريضة على كل مسلم وكذلك الزكاة والصوم والجهاد والحج، ونعلم كل ذلك وفقاً للمستطاع والحمد لله إن الدين الحق يسر وليس فيه شيء من العسر وهذه سعة من الله العزيز الحكيم.

ومع أنّ المستقبل بالمطلق لا يعلمه إلا هو إلا أن الخليفة يعلم ببعض المستقبل ويعمل من أجله وهو يدرك بأن ما يعمل من أجله معرض للمفاجئة من علم الغيب، فالإنسان يولد ويتعلم ويسعى

516 النساء 10، 11.

517 البقرة 151.

518 لقمان 34.

لايجاد فرصة عمل تناسبه، ويسعى لبناء أو شراء مسكنا ويتزوج وهو يأمل أن تكون له أسرة سعيدة مباركة أي أن الخليفة يخطط دائما من أجل المستقبل ولهذا يصوم ويصلى ويحج ويذكي ويتصدق من أجل مستقبل مأمول وهو الفوز بالجنة والحمد لله رب العالمين اللهم أجعلنا من أهل الجنة إنك السميع المجيب.

د . الغيب لا يعلمه غيره: الغيب هو الذي بيننا وبينه حجاب وهو الميدان الواسع لتنفيذ الأمر كن، ولهذا فكل المدركات العقلية تعجز قاصرة عن بلوغه وإن اجتهدت العقول بموضوعية تمكنت من أن تبلغ علم المستقبل الذي تسعى إلى بلوغه بخطط واستراتيجيات توضع وترسم، ولذا فدائما يرد إليه علم الساعة التي نعلم يقينا إن علمها أمر غيب. قال تعالى: {إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} 519، وقال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 520. الغيب أمر بالمطلق لا يعلمه إلا هو جلّ جلاله والحمد لله رب العالمين.

18 . سعة هيمنته: قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

519 فصلت 47.

520 الأنعام 59.

الحَكِيمِ} 521، وقال تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} 522، وقال تعالى: {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} 523 وقال تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} 524.

19 . سعة جبروته: قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَافًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} 525، وقال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} 526، وقال تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} 527.

20 . سعة حفظه: الواسع هو الذي يحوط بالأشياء مكانا وزمانا وحفظا واستيعابا وحركة وسكونا، وهو الذي يحفظ كل ما خلق دون أن يغفل عنه في شيء يذكر، وهو القادر على إبقاء ما يشاء كيف يشاء دون ضرر وبكل سيطرة، ولذا كل مخلوق محفوظ بوسع رحمته وملكه. قال تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ

521 الحشر 22 . 24.

522 الأنعام 3.

523 البروج 20.

524 فصلت 12.

525 الرعد 12، 13.

526 الأنعام 6.

527 البروج 12.

أَبْلَعْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ {528}. إن أخذ الله بناصية كل دابة يرجع إلى أسباب سيطرته دون تفريط، وأخذ ناصية كل دابة ضارة لأجل حفظ النوع وخاصة المستخلفين فيها، وأخذ ربِّي دائما على الصراط المستقيم دون ظلم أو تحيز وذلك لأن من صفاته العدل القسط والميزان العدل والصراط المستقيم ولهذا فإن ربِّي على كل شيء حفيظ والحمد لله رب العالمين. ومن صور حفظه:

أ. حفظه أنبيائه، قل تعالى مخاطبا نبيه الكريم: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } {529}، وقال تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ

528 هود 56 .58.

529 المائدة 67.

الكَادِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ {530.

ب . حفظه للوح والكتاب: قال تعالى: {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ
بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} {531، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى
أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتُلِفَ
فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ
مُرِيْبٍ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
لِلْعَبِيدِ} {532.

ج . حفظه سمائه من الشياطين: قال تعالى: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبِّ الْمَشَارِقِ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيَّةً
الْكُوكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسَّمْعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى
وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ} {533، وقال تعالى: {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} {534. وقال

530 الأعراف 59 . 67.

531 البروج 20 . 22.

532 فصلت 41 . 46.

533 الصافات 5 . 10.

534 فصلت 12 .

تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَيَّتَافَا لِلنَّاطِرِينَ وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} 535.

د . حفظه للبشر: قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} 536، وقال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} 537، وقال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} 538،

هـ . حفظه للأعمال: قال تعالى: {أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} 539، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها

535 الحجر 16، 17.

536 الانفطار 10 . 19.

537 الفلق 1 . 5.

538 الناس 1 . 6.

539 ق، 3، 4.

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا {540 وقال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} {541.

و . حفظه لكل شيء: قال تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْتِيهِ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} {542، وقال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبَلَعْتُمْ كَمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} {543.

21 . سعة عرشه: قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} {544، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ فَرَّانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} {545.

540 النساء 38 . 40.

541 الزلزلة، 7، 8.

542 سبأ، 21.

543 هود، 57.

544 هود 6، 7.

545 البروج 11 . 22.

22 . سعة سمائه: قال تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} 546، وقال تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} 547، وقال تعالى: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} 548.

23 . سعة رزقه: الرزاق خلق كل شيء بحسبان ونشر رزقه لكل شيء حسب الحاجة فمن خلقه رزقه مفتوح على مصراعيه بين أبواب السماء على الأرض سحب ومطر وحيوانات وعشب الكل يأكل ويسبح بحمده، وهناك من يحرث ويزرع ويحصد ثم يأكل وهو على غرار من يخرع ويطور ويصنع ويجنى ويكسب، ومع ذلك فإن للعناية الربانية آية يعيش عليها المولود والضعيف حتى يمتلك القوة.

⁵⁴⁶ الحجر 16، 22.

⁵⁴⁷ ق، 11، 7.

⁵⁴⁸ المؤمنون، 84 . 89.

قال تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} 549. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ} 550.

والخليفة هو الحامد للموسع عز وجل على نعمه التي لا تحصى، إنه المدرك للشيء وما يكمن من ورائه ولذا فهو من الطائعين الذاكرين الشاكرين على ما أعطاه الموسع وعلى ما ميزه به دون غيره وهو الذي يعمل من أجل مستقبلا أفضل وأجود وأحسن ومن شكره لنعم الموسع جل جلاله الطاعة في إظهار الآتي:

أ . عدم الإسراف: قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} 551.

ب . عدم الاقتراب من المحرمات والفواحش: قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِعَيْرِ الْحَقِّ} 552.

549 الحجر 19، 20.

550 الذاريات، 56 . 59.

551 الأعراف، 31، 32.

552 الأعراف، 33.

ج . عدم الإشراف: قال تعالى: {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَفْضُلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 553.

د . عدم الاقتراب من مال اليتيم: قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} 554.

24 . سعة ميراثه: قال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} 555، وقال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} 556.

25 . سعة أبعديته: ولأن الله تعالى هو الأول والآخر إذن لا باقٍ من بعده أبداً، ولذا رزقه باقٍ، وحكمته باقية وعلمه باقٍ وقوته باقية والخلق فانون ولهذا تفنى الخلائق ويبقى الملك لله وحده. قال تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 557، وقال تعالى: {وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا

553 الأعراف، 33 . 35.

554 الإسراء، 34.

555 الحجر، 23 . 25.

556 الحجر، 23 . 25.

557 الحديد، 3، 2.

تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ وَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ {558}. وقال تعالى: {وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَى} 559 وقال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ حَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَفَمَنْ أَقَمَّنْ وَعَدَدْنَاهُ وَعَدَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {560}.

26 . سعة جنته: الجنة أمل كل خليفة وهي ثمار عمل المؤمن في الحياة الدنيا، فمن زرع خيرا حصد خيرا وفاز بالجنة، ومن زرع شرا حصد شرا وخسر الجنة وهو حطب في نار جهنم، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

558 التوبة، 84 . 86.

559 طه، 131.

560 القصص 60 . 68.

أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْعَيْظَ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ
وَمَا يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جِزَاءُ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّهُمْ بِرَبِّهِمْ لَخَالِدُونَ فِيهَا وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ
أَنْهَارٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
الْعَامِلِينَ} 561، وقال تعالى: {سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} 562، وقال
تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} 563.

الجنة بيت الفردوس والنعيم فمن دخلها عاش في النعيم، ومن
خسرها عاش في جهنم، اللهم اجعلنا من الفائزين لا من الخاسرين
لقد وعدتنا ووعدك الحق، فالحمد لله رب العالمين إنا بك آمنة وبما
أنزلت وأرسلت وأمرت، وعليك توكلنا، وأولينا أمرنا إليك إنك سميع
مجيب.

28 . سعة كبريائه: الكبرياء لله وحده، ومن بعده تستمد
الكبرياء بإكبار العمل الصالح حتى ينال القائمون به تقديرا من
الآخرين فتعود الكبرياء على من قام بالعمل الصالح، والكبرياء غير
التكبر، الكبرياء اجتناب الأعمال الرخيصة الفاقدة للقيم والفضائل
التي تنال تقدير الواسع العليم وتقدير الناس المحققين للحق والزاهقين
للباطل. أما التكبر تعالي بغير حق وبدون وجه حق وفيه تقليل من

⁵⁶¹ آل عمران 133 . 136.

⁵⁶² الحديد 21.

⁵⁶³ السجدة 13.

شأن الذين خلقهم الله خلائف في أحسن تقويم. قال تعالى: {فَلِلَّهِ
الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {564}. وقال تعالى: {وَاتْلُ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي
وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا
يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا
سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ
وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا
مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا
كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ
بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
مُجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ قَالَ
مُوسَى أَنْتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ
قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ} {565}.

29 . سعة عظمتة: الواسع عظيم بسعته التي استوعبت كل ما
خلق وكل ما يخلق، وعظيم بمغفرته التي بها يتم التكفير عن الأخطاء
والعيوب والذنوب، إنه مالك كل شيء وييده أمر كل شيء ومع
ذلك بعض من خلقه لا يطيعون أمره ويعصونه، وفوق كل ذلك
يغفر ويرحم ويجازي بالخيرات، ومع أنه يغفر ويرحم إلا أن بعض
القلوب لا تلين فيؤجل كل شيء ولا يتعجله لتكون الفرصة سانحة

564 الجائية 36، 37.

565 يونس 71، 78.

أمامهم، ألا يكون هذا الأمر لعظيم مجل؟ إنَّه العظيم الذي تسبح باسمه وصفاته كل الخلائق التي نحن المستخلفين في الأرض لا نفقه تسبيحها، ألا يكون عظيما من خلق الخلائق التي لم نفقه تسبيحها وهي تدركه يقينا وتسبح له بالحمد والثناء؟، ألا يكون عظيما من خلق كل شيء وجعل لكل ما خلق رزقا دون أن يكون لأحد نصيب على حساب آخر؟ ألا يكون من خلق الخليفة واصطفا منه الأنبياء والرسل لأجل الهداية عظيما مجل؟ ألا يكون من ليس له صاحبة ولا ولدا ولا مثيلا ولا شريكا في الملك عظيم مجل؟ ألا يكون من يرزق دون أن ينتظر مقابلا عظيم مجل؟

ولأنَّه عظيم فنعمه لا تحصى وجلالته لا تعد ومن عظام سعتة:

أ . عظمة كرسية: قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {566}.

ب . عظمة الفوز بجنته: قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {567}، وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَ

566 البقرة 255.

567 المائدة 119، 120.

اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ {568.

ج . عظمة رحمته: قال تعالى: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } {569، وقال تعالى: { لَكِنِ
الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيكَ هُمْ
الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {570.

د . عظمة اسمه: قال تعالى: { نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَاعًا
لِلْمُفْضِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ
لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } {571. وقال تعالى: { إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } {572.

هـ . عظمة فضله: قال تعالى: { وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ
إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ
رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } {573، وقال تعالى: { يَا

568 التوبة 71، 72.

569 البقرة 105.

570 التوبة 88، 89.

571 الواقعة 73، 76.

572 الواقعة 95، 96.

573 آل عمران 73، 74.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {574}.

و . عظمة قرآنه: قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ وَلَقَدْ
آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ} {575}.

ع . عظمة نبئه: قال تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ
الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} {576}

غ . عظمة خزيه: قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} {577}.

ف . عظمة عرشه: قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ} {578}، وقال تعالى: {أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} {579}.

28- سعة أرضه: الأرض هي المكان الذي يستوعب الخلائف
والكائنات الأخرى المصاحبة للعيش عليها، وسعة الأرض بعلاقتها
مع سعة السماء فلو لم تكن الأرض والسموات معا ما كان البخار
وتراكم السحاب وسقوط الأمطار الممتدة مع حركة الرياح اللوآح،

574 الأنفال 29.

575 الحجر 86، 87.

576 النبأ 5، 1.

577 التوبة 63.

578 التوبة 128، 129.

579 النمل 25، 26.

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 580، وقال تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} 581.

30 - سعة قصده: الله الواسع هو الخالق المطلق الذي بيده الملك والأمر وهو على كل شيء قدير، ولأنه هو الأول والآخر فهو المحيط بكل شيء وهو الحفيظ عليه ولأنه كذلك فهو في كل حركة وزمان وسكون وامتداد واتجاه. قال تعالى: {أينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم} 582، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} 583. وقال تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَحَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَحَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأْنَا فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ

580 الزمر 10.

581 النساء 97.

582 البقرة 115.

583 النساء 10 . 13.

الَّذِي سَحَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {584.

31 - سعة عطاياه: قال تعالى: {وَإِنْ يَمَسُّنِكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {585. قال ابن الأنباري: الواسع: وهو الكثير العطايا الذي يسع لما يُسأل {586. قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {587. ولذلك فمن موجبات العطاء:

أ - الدعاء: الدعاء صلة بين المحتاج ومالك الملك، والاستجابة توسع وفضل من المالك على المحتاج، ولهذا فالدعاء استعانة تتطلب استجابة، وعندما تكون الاستعانة بمن يملك تكون الإجابة لمن هو في حاجة، ولذا الخليفة لا يقصد إلا مالك مطلق لتكون الإجابة معطية من معطيات المؤمنين المستخلفين فيها بهدف الإصلاح والفلاح. قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ

584 النحل 9. 14.

585 يونس 107. 109.

586 تهذيب اللغة، ج 1، ص 339، 340.

587 يونس 11.

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {588}.

ب - الشكر: الشكر اعتراف وثناء على من كان له الفضل الواسع على من هو في حاجة له، ولهذا تكون الزيادة الموسعة بالعطاء تقديرا لشكرهم له جلّ جلاله. قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ {589}.

32- سعة بحاره: مع أنّ كل شيء نسبي إلا أن الواسع لا يخلق إلا واسعا في حجمه أو حركته وامتداده أو ذكائه وتفكيره أو ثباته وضموده أو عزته ومغفرته أو صلواته وزكاته وصدقته وملكه ولهذا فالواسع المطلق هو من يسع كل واسع وإن اجتمعت الوسائط. قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ {590}، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ {591}. ولأن كل شيء في دائرة الممكن نسبيا فإن سعة البحر الممتدة بين اليابسة وبينها وبين المحيطات التي تخوضها ذات الأعلام طولا وعرضا فهي لا تكون السعة المطلقة بل هي سعة

588 غافر 60 .62.

589 إبراهيم 7، 8.

590 النور 40.

591 إبراهيم 32، 33.

نسبية من سعة الرحمن الرحيم. قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا
لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ
مَدَدًا} 592.

33- سعة كلماته: قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ
عَنْهَا حَوْلًا قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ
تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى
إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} 593. وقال تعالى: {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ
مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْحَمِيدُ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ
سَبْعَةُ بَأْجُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَمَا خَلَقَكُمْ وَلَا
بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} 594.

34- سعة يسره: الموسع هو الميسر لا المعسر وهو الرحمن
الرحيم. قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا} 595، وشروط تيسيره لخليفته:

أ - أن يكون الخليفة مؤمنا صالحا: قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} 596.

592 الكهف 109.

593 الكهف 107. 110.

594 لقمان 25. 28.

595 الشرح 5، 6.

596 الكهف 88.

ب . أن يكون الخليفة سيره على نهج قوله تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ} 597.

ج . أن يكون الخليفة متقيا ربه: قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} 598.

د . عدم التكلف بما لا تطيق النفس: قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} 599.

35- سعة نصره: قال تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَحَدْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 600. ومن دواعي نصرته تعالى لخليفته:

597 الشرح 7،8.

598 الطلاق 4.

599 الطلاق 7.

600 الحج 40، 46.

أ - تقوى الله: قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ} 601.

ب . الصبر عند اللقاء: قال تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} 602.

ج . الاستغاثة بالله: قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُعَثِّبِكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكَمُ فَدُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ النَّارِ} 603.

د . الثبات عند اللقاء: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا خَفَا فَلَا تُؤَلُّوهُمْ الْأَذْبَارَ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ

601 آل عمران 123، 124.

602 آل عمران 125، 126.

603 الأنفال 9، 16.

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} 604. قال تعالى: {إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّبَاتُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} 605.

36 . سعة وجهه: قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 606، وقال تعالى: {وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَإِذْ يَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 607، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ هُمُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُنحَلُّونَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ

604 الأنفال 15، 16.

605 الأنفال 43، 45.

606 البقرة 11، 12.

607 القصص 87، 88.

سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ
مُرْتَفَقًا {608}.

37 . سعة مضاعفته: الواسع يضاعف الخيرات للخيرين بالزيادة
وهذه رحمة منه على خلفائه في الأرض الذين يصلحون ولا
يفسدون. قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا
يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ
عَنِّي حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى
كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {609}، وقال تعالى:
{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ {610} . وفي مقابل مضاعفته للخيرات
يضاعف العذاب يوم القيامة للكفرة والمشركين وفاعلي السيئات
والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حق قال تعالى:
{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا

608 الكهف 28 . 31.

609 البقرة 261 . 264.

610 الحديد 17 ، 18.

كَانُوا يُبْصِرُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ {611، وقوله تعالى:
{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا }612.

38 . سعة زمانه ومكانه: الزّمان هو الملاحظ الذي لا يمكن
مشاهدته، والذي لا يقاس بغيره أو من خارجه، فالزّمان لا يقاس
إلا بالزمن، والدهر كزمن، لا يقاس إلا بالأعوام والسنين، والأعوام لا
تقاس إلا بالشهور كمواقيت طبيعية، والشهور لا تقاس إلا بالأيام،
وهكذا عرفنا الساعات كزمن لقياس اليوم كزمن. إذن الزّمان هو
المتدرج من الكل إلى الجزء الذي هو الآخر يتجزأ.

وقد يتساءل البعض: ما علاقة الزّمان بالحركة؟ وأيهما الأسبق
على الآخر؟ تكون الإجابة: لا حركة بلا زمان، ولا زمان بلا حركة،
ولهذا لا يمكن أن يكون أحدهما سابق على الآخر فلو كان الزّمان
سابق على الحركة، لكانت الحركة عبارة عن حدث من أحداث
الزّمان، وهكذا لو كانت الحركة سابقة على الزّمان لكان الزّمان
عبارة عن حدث حركي أو مولود الحركة الأول، وكل منهما مترتب
وجوده مع الآخر، وليس مترتبا عليه. ولهذا لو توقفت الحركة يتوقف
الزّمان، وإذا توقف الزّمان توقفت الحركة، فلا حركة إلا بزمان، ولا

⁶¹¹ هود 19 . 22.

⁶¹² الفرقان 69 . 71.

زمان إلا بحركة. إذن الزّمان والحركة هما الشّيان المكملان لبعضهما البعض في الوجود المترتب عليهما.

وبما أن الزّمان والحركة شيئان، إذا هما الموجودان في الآن الواحد، ولهذا لا يمكن أن يكون الآن بأحدهما، ولا يمكن أن يكون الماضي، ولا يمكن أن يكون المستقبل. فالزّمان والحركة هما الشّيان اللذان كانا لحظة الانفجار العظيم، وهما السابقان في الخلق الذي يتكون من الزوجين، مصداقا لقول الله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 613. فالزّمان والحركة شيئان اثنان كغيرهما من الأشياء الأخرى التي تم خلقها من عند الله عزّ وجلّ. ويقول تعالى: {وَأَيُّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآذَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 614.

الليل كزمن أو ميقات يتوحد مع حركة الأرض الذي يسبح (يتحرك) وكأنه في حالة طفئ، وهو في حركة منتظمة ومتناهية مكان وزماناً.

ونتيجة انتظام حركة المتحرك مع زمانه فلا يمكن له (المتحرك) أن يدرك أحدهما الآخر (الليل والنهار والشمس والقمر). ومع أنّ الزّمان والحركة يلاحظان ولا يشاهدان، إلا أنّ المواقيت تشهد، فالليل والنهار والفجر والصبح والمغربّ مواقيت كلها تشهد. ولهذا لا متحرك إلا في مواقيت أو بمواقيت. إذن لا متحرك إلا والزّمان

⁶¹³ الذاريات، 49.

⁶¹⁴ يس، 37. 40.

معها، ولا وجود لمواقيت إلا والحركة معها (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون).

الآن:

يقول ابن سينا الآن هو "دائما وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله"615. فالآن كالعلامة على الزمان ويشار به إلى الوقت الحاضر الذي يربط الزمنيين الماضي والمستقبل اللذين هما الآخران علامتان على الزمان، والزمان متصل غير منفصل، أما الوقت الذي هو المتكون من الماضي والحاضر والمستقبل فمتجزئ بأحداثه. وعندما نقول الزمان في تشبيهه كالحبل على البكرة، فالذي تم سحبه منه أصبح في الوقت الماضي، وما هو على البكرة هو في وقت الآن، وما لم يسحب بعد يقع في الوقت المستقبل، ولهذا تجزأ الوقت ولم يتجزأ الحبل (الزمان) فالحبل متصل لأنه حبل واحد، أما الوقت فلم يكن واحدا.

الآن، إذن هو، الظاهر في الحاضر، والكامن في الماضي، والمتناهي في المستقبل.

الآن البداية:

هو الذي لم يكن كما قال عنه ابن سينا "الآن دائما وصل بين قبل وبعد"616. بل الآن البداية هو بداية التوأم (الزمان والحركة) فلا زمان إلا من بعده ولا حركة إلا من بعده، ولا حياة إلا من

⁶¹⁵ إبراهيم العاتي، الزمان في الفكر الإسلامي. بيروت، الطبعة الأولى، دار ال نخب

العربي، 1993م، ص 183.

⁶¹⁶ المرجع السابق، 183.

بعده. وذلك لعدم وجود ماضٍ سابق على وجوده، ولهذا الآن البداية هو دائما بداية لما بعده.

الآن الوسطي:

هو الذي ينطبق عليه ما قاله ابن سينا بأنه "دائما وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله"، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هو الوسط الحسابي بحيث تتعادل أطرافه، فإذا اعتبرنا الآن في هذا اليوم نقطة وصل بين الماضي من البداية، والمستقبل إلى النهاية، فهل نحن متأكدون بأن ما قضيناه من الزّمان يساوي ما تبقى منه؟

الآن النهاية:

هو دائما بعد ما قبله، وليس وصل بين قبل وبعد، فإذا كان للحجرة باب، فالآن هو المفتاح الذي قفلت به الحجرة. ولهذا الآن النهاية، هو دائما نهاية لما قبله.

الآن والماضي:

هو المستوعب للتجارب التي وقعت أو التي حدثت بموجبها وسالبتها وهو الذي يكتمل بعد حدوث الفعل أو الانتهاء من التجربة، ويتصل مع كل حاضر بالنقطة الآن. والماضي هو الوقت الذي سجلت فيه الأحداث والأفعال والتجارب في الزّمان والحركة وهو القابل للاستدعاء كأحداث وغير قابل للاستدعاء كزّمان وحركة، والسبب هو أن الأفعال الماضية إلى جانب كونها تُسجل في الزّمان والحركة فهي أيضا تسجل في العقول المدركة التي عندما تحاور بالأسلوب العلمي تتمكن من أن تستدعي ما سُجل لديها من مخزون ماضي. أما الزّمان الماضي والحركة الماضية فلا يمكن استدعاءهما مع الأحداث الماضية إلا كمواقيت ودلائل لتسجيل

الأحداث والمواقف والمواضيع والظواهر، ولذلك لا يمكن استدعاءهما مجردين مع أنّهما يتكرران وفقاً للدورة الفلكية المنتظمة. ولذلك نلاحظ تكرار الزّمان والحركة، ونلاحظ اختلاف المحتوى، بمعنى إن اليوم يتكرر كل أربعة وعشرين ساعة، ولكن مضمون اليوم ومحتواه قد لا يتكرر، فعلى سبيل المثال: قد نجد اليوم درجة الحرارة أكثر أو أقل من حرارة يوم أمس، أو أنها أكثر أو أقل من حرارة اليوم المماثل لهذا اليوم من العام الماضي، مع أنّ هذا اليوم يماثل يوم العام الماضي من حيث الزّمان والحركة، ولهذا يختلف المضمون والمحتوي لكل وقت سواء من حيث الكم أو الكيف، ولكن بالنسبة للحركة الذاتية والزّمان الذاتي لا يختلفان بين هذا اليوم ويوم العام الماضي، فيوم 23 يوليو من هذا العام لا يختلف عن يوم 23 يوليو من العام الماضي باعتباره أطول أيام السنة نهاراً، ولكن من حيث المضمون والمحتوى فقد لا يكون بينهما تماثل، وهكذا يكون يوم الفاتح من سبتمبر من هذا العام لا يختلف عن يوم الفاتح من سبتمبر من العام القادم من حيث الزّمان والحركة. إذن الماضي كأعمال لها مضمون ومحتوى يمكن استدعائها في الوقت الآن، والآن هي لحظة بداية ولحظة نهاية، ولهذا تقع الآن في الزّمان كما يقع الزّمان في الحركة، فلا حركة بدون الآن، ولا الآن بدون زمان، فالماضي لا يبدأ إلا به ولا ينتهي بغيره (بغير الآن)، وهكذا الحاضر هو الآخر بدايته الآن ونهايته الآن، وكل مستقبل لا يكون إلا به، فهو أمر البداية وأمر النهاية، فسبحان ربّي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ولذلك قال الله تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} 617 فالأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل كما هي أمام مرتكبيها،

⁶¹⁷ الكهف، 49.

ولهذا استدعاء الماضي ممكن، ولكن إعادة الزّمان والحركة بالنسبة للمخلوقات غير ممكن.

الآن والمستقبل:

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكر ولكنه قابل للتفكير، والتفكير لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقّع، نتيجة استنتاجاته واستقراءه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتحديدته من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزّمان مع الحركة، ممّا يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزّمان والحركة، فلا زمان بلا حركة ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

المستقبل لا يحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنّه مسجل كوقت في الزّمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوّة الفاعلة من خلال قوّة الزّمان والحركة الفلكية، فيما أن اليوم قد حضر والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزّمان، فبالضرورة سيأتي غدا لا محالة، وغدا قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمرارا له، وهذه بالنسبة لنا غير معلومة مع أنّها متوقّعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلمة في حالة مواصلي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزمن الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله نتنفس ونشرب، ونأكل، ونفكر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق ونصلي، ونحب ونتزوج، وندخر وفق حاجاتنا، ونؤمن على أرواحنا وممتلكاتنا،

ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كل حركة من أجل المستقبل.

تتحرك الأرض والكواكب والنجوم بالأمس، فكان اليوم، وتستمر في حركتها من أجل أن يأتي غدا، وهكذا تكون الحركة إلى النهاية، وعندما تأتي النهاية يكون الثبات، وإذا كانت الحركة تتضمن وجود طاقة، فإن المستقبل يتضمن زمان ومجال توليدها، وهكذا تستمر الحركة والمستقبل، فلا حركة إلا لمستقبل، ولا مستقبل بدون حركة، ومنهما يحدث التغير، سلبا أو إيجابا.

يتكون كل من المستقبل والحركة، من زمان، وفعل (محتوى ومضمون)، وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي المستقبل بالنسبة لها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل.

لو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمان، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا. وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به؟ ونعرف من أجل ماذا نفكر؟، ومن أجل ماذا نتعلم؟، ومن أجل ماذا نخطط وننتج؟ ومن أجل ماذا نهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية؟ ومن أجل ماذا ندرس، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا طرحت هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان، أم يقتصر عليه؟ إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقصر عليه فإننا نتذكر ونتنظر، نتذكر الماضي، ونتنظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر

لأن الغد لم يأتي بعد. كل هذه وتلك الأمثال تجعلنا نفكر كما قال الله تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } 618، ويقول تعالى { فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } 619.

والمستقبل يكمن في الزّمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، ممّا يجعل الشجرة تكمن في الزّمان المستقبل في البذرة الآن مع أنّ هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء المحبة الآن بين الحيوان المذكور مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضرا في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلا في الآن، فالؤمن الذي يعمل صالحا في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء كان خيرا أو لا، هو ما كان له حاضر في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه فيعاقب أو يجاز به، فيقول الله تعالى: { يَوْمَ بَجْدُ كُلِّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ } 620.

⁶¹⁸ الحشر، 21.

⁶¹⁹ الأعراف، 176.

⁶²⁰ آل عمران، 30.

تؤكد هذه الآية على أن كل عمل ماضي هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي فهو لم يكن من أجل الماضي، بل أنه من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالحزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية، بل أنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيرا لكي يكون لنا مستقبل خير. وكل الأعمال التي تقع في الآن، تسمى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى أن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيئا بالنسبة للسجل الزمان والحركة، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁶²¹. تؤكد هذه الآية على أن كل شيء وجد يمكن إحصاؤه، ولكن قصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصيا من قبل الخالق عز وجل، ولهذا كل عمل قد حدث سيكون حاضرا في المستقبل لتتم المساءلة ويتحقق له الجزاء.

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها، وبالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعددها ولكنه من غير الممكن عد الزمان، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هذه الأولى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن، وتكون 98 مفردة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل، وذلك لأنها هي الأخرى سيتم عددها أو التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح

⁶²¹ المجادلة، 6.

كما سبق وأن ذكرنا هي 98 مفردة، بل يكون مجموع الحَبَّات المتبقية 99 مفردة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحَبَّات في جميع الدورات هو 99 مفردة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح على أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التناقصي إلى الصفر إلا في الدورة التسبيحية الأخيرة. وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضرا مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ بَجْدُ كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} 622. إذن كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضرا في المستقبل ونكون نحن متسائلون عنه، ولهذا لن ينتهي الماضي بعد، لأن نهايته هي في الآن المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية. ويكون قولنا أن الزَّمان كالخيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزَّمان فلكيا، وستكون جميعها في طبيعة الآن المستقبلية، ولذلك كل الأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدأ المراجعة وكل حاضرا منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة. فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت على الحالة الصحية، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة ممَّا يجعل

⁶²² آل عمران، 30.

هذه الحالة بالنسبة للباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل، وأثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي.

ومع أنّ الزّمان لم يكن له شكّل ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرى المتحركة، إلا أنّه هو الآخر في حالة حركة، فيقول الله سبحانه وتعالى: { جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا }⁶²³. لو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنين والدهور ولا كانت هناك حركة، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزّمان ونحن على سطح الأرض، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرى لا تعتمد على حركة الأرض، ولذلك لم يقل الله عزّ وجلّ لتعلموا عدد الزّمان بل قال: (لتعلموا عدد السنين)، ولهذا قلنا الزّمان والحركة لا يعدان، بل الذي يُعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقيّة الكواكب كل في فلكها، وهذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلاحظ وبالتالي فهي تعد. والفارق بين الأجسام والمواقيت هو إنّ الأجسام قابلة للمس المادي، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها ماديا، ولهذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات. وعليه لو لم يكن الزّمان في حالة حركة ما كان الليل

⁶²³ الإسراء 12.

والنهار، وما كان الفجر والمغرب، وما عرفنا عدد السنين والحساب، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فللكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه.

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أئهما يلاحظان بسهولة ويسر، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلاحظ حركتها، أما الليل والنهار والفجر والمغرب مع أئها تشاهد وتلاحظ إلا أنها لا تلمس، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتى ولو لم يلمس كالليل والنهار، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدها وتحديدتها وتسجيلها.

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أئهما يلاحظان، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك، وبين الحركة والامتداد. فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاثة، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل، وهكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال المشاهدة، فالامتداد يكون في تكوين الشكل وفي تحديد اتجاه حركة الشكل، كاتجاه حركة الأرض في دوراتها حول نفسها، ودوراتها حول الشمس، فهي لا تمتد إلا في مجالها الفلكي، ولهذا الامتداد هو الذي يرسم شكل الدائرة، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء كان المتحرك قلما لرسم مستقيم أو منحنيا أو أي شكل، أو حركة كوكب، أو حركة كائن من الكائنات.

الزمان والحركة متناهيان حيث إنهما محصوران بين قوّة الأول والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتداد، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد، ممّا يجعل لهما أجلا واحدا (نهاية واحدة) ولو

لم نؤمن بأن الزّمان متناه فكيف نؤمن إذن باليوم الآخر؟ فالיום الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغربّ المعروفات في حساباتنا والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هذا الذي نعرفه، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول. وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية إذن ممّا لا شكّ فيه ستكون لهما نهاية.

حركة الزّمان تماثل حركة الأجسام الفلكية في قوتها وانتظام سرعتها ولهذا تنتظم حركة المواقيت وتتمازج مع حركة الكواكب، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل، بل الكل في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة. فالיום هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وعلى الشمس، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هذا اليوم الذي يماثله من عامنا هذا، الاختلاف بينهما في المحتوى الذي تتضمنه الأيام فمحتوى هذا اليوم قد لا يماثل محتوى العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية، والمحتوى اليومي مختلف بين الحين والآخر، فالיום الذي ولد فيه محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو اليوم الذي توفي فيه، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوى مختلف.

الزّمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنباً إلى جنب مع الحاضر والمستقبل، ولو عدنا إلى الماضي البعيد إلى أن نصل إلى النقطة الآن فلا نجد ماضي على الإطلاق، بل نجد الاثنين معا الآن والمستقبل، ولم نجد الماضي، وذلك لعدم تكوّنه بعد، وبعد أن

قُضيت الآن أصبحت ماضي لوحدها، وكلّ ماعداها مستقبل، ولهذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر، لا بالماضي الذي لم تدخله وتصبح في تعداده إلا الآن الواحدة، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلا اللحظة الآنية. وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها مما يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة، والتي يكون فيها كل الماضي كمحتوى هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا)، ولهذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضي قد فسد، فالزّمان الماضي لم يفسد بل أنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ثقيلة وخفيفة⁶²⁴.

وعليه أتساءل:

هل الزّمان والحركة كيفان لا يشاهدان، أم أنهما كمان يشاهدان، أم أنهما آخر؟

إذا كان الزّمان جسما، فبالضرورة يكون كما، وإذا لم يكن بجسم فهو كيف، ولذلك الكم يشاهد ويلاحظ إلى جانب تداخل الحواس الأخرى في إثباته، أمّا كيف المجرد فيلاحظ ولا يشاهد، وهكذا حال الحركة فهي تلاحظ ولا تشاهد على الإطلاق، ولذلك فهي كيف، حالها حال الزّمان. وإلا هل هناك من يشاهد الحركة؟ في اعتقادنا لا يوجد من يشاهدها، ولكن قد يدعي البعض بأنه يشاهد الحركة، في هذه الحالة أتساءل: هل هناك من يستطيع رسم صورة للحركة أو صورة للزّمان أو حتى تصويرهما فوتوغرافيا؟ إذا لم يكن

⁶²⁴ أرسطوطاليس، الطبيعة. " ترجمة إسحاق بن حنين " القاهرة، الدار القومية للطباعة

والنشر، الجزء الأول، ص 408.

هناك من يستطع إثبات ذلك فلا حجة لأحد علينا ولنا في ذلك حجة.

الحركة والزمان يلاحظان ولا يشاهدان، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، والمتحرك دائما جسم يشاهد ويلاحظ، فالقمر كمتحرك تشاهد وتلاحظ وتلمس ولذلك يمكن تصويرها أو رسمها، أما حركتها فلا تشاهد ولذلك لا ترسم ولا تصور، وهكذا حركة البشر والكائنات والسيارات والطائرات وغيرها من الأجسام المتحركة هي الأخرى لا تُرسم ولا تصور. وبناء على ذلك، لا يُعد الزمان ولا تُعد الحركة، وإلا هل هناك من يستطيع عد شيء لا يراه (غير قابل للمشاهدة)؟ فالليل والنهار والفجر والمغرب، واليوم والشهر والعام هذه مواقيت يمكن عدها، والمواقيت ليست الزمان. يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا﴾⁶²⁵ فالليل والنهار آيتان (علامتان) في الزمان تُمكنان البشر من معرفة عدد السنين ومعرفة الحساب الذي ييسر عملية التأريخ للأحداث والمواقف والمواضيع وكل شيء يمكن عده من خلال معرفة تعاقب الليل والنهار وحركة الكواكب والنجوم فلكنيا، ولذلك ينبغي أن نميز بين المواقيت التي هي علامات دالة على زمان وحركة، وبين الزمان المتصل الذي لا يفصله ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل. فالمواقيت تشاهد (الليل والنهار والفجر والمغرب)، وهي نتاج الحركة الطبيعية للأرض حول نفسها وحول الشمس مع توازن حركة الكواكب الأخرى التي تسبح في فلكها، ولذلك يعرف اليوم، بالليل

⁶²⁵ الإسراء، 12.

والنهار ويعرف الشهر، بحركة القمر من هلال إلى هلال، وتعرف السنة من حركة الأرض حول الشمس. ومع أنّ اليوم، والشهر، والسنة، والدهر مواقيت إلا أن لكل منها زمن يختلف عن الآخر، ومثلما تختلف المواقيت في زمانها كذلك تختلف الكواكب والأجسام في حركتها وأحجامها. وعليه لو كان الليل والنهار هما الزّمان لكانا هما مقياسا الحركة، ولو لم يكن هناك حركة وزمان ما كان هناك شيء متحرك، ولهذا كل متحرك هو في حالة زمان، وكل حركة وزمان هما في حالة اتصال لا انفصال منذ البداية إلى النهاية.

الزّمان والحركة تراكميان: أي أنّهما في حالة تزايد إلى النهاية، فالزّمان في حالة إضافة، والحركة كذلك، ولم يكونا في حالة تناقص، ولهذا قلنا الزّمان في حالة زائد لا في حالة ناقص، ويرمز إلى ذلك بالآتي (ن + لا -).

والحركة هي الأخرى في حالة زائد لا ناقص ويرمز إلى ذلك بالآتي: (ح + لا).

ولهذا الزّمان لا ناقص (ن لا -).

والحركة لا ناقص (ح لا -).

والذي ينقص ويزيد هو المتحرك سواء في وزنه أو طوله وعرضه أو مساحته وحجمه وسرعته، أو عدده وكمه، ويرمز إلى ذلك بالآتي:

(م + أو -).

* متحرك - متحرك = كم من المتحرك.

فإذا كانت كتلة المتحرك الأول 80 كيلو أجرام، وكتلة المتحرك الثاني 50 كيلو أجرام فيكون الفرق بينهما = 30 كيلو أجرام.

$$* \text{متحرك} + \text{متحرك} = \text{كم من المتحرك.}$$

فإذا كان عدد المتحرك الأول 122 متحركاً، وعدد المتحرك الثاني 323 متحركاً، فيكون مجموع المتحركات = 455 متحركاً.

والوقت هو الآخر يكون في حالة زيادة ونقصان سواء في طوله أو قصره أو عدده وكمه، ويرمز إلى ذلك بالآتي:

$$(\text{و} + \text{أو} -).$$

$$\text{وقت} + \text{وقت} = \text{كم من الوقت.}$$

$$30 \text{ ليلة} + 7 \text{ ليالي} = 37 \text{ ليلة.}$$

$$\text{وقت} - \text{وقت} = \text{كم من الوقت.}$$

7 ليالي - 7 ليالي = 0 من الوقت، والوقت 0 هو وقت البداية أو وقت النهاية أو الاستمرارية.

سرعة الحركة والزّمان:

$$\text{سرعة الحركة} = \text{سرعة الزّمان} (\text{س ح} = \text{س ن}).$$

فعندما تكون س ح = 0، تكون من المسلمات س ن = 0. وعليه لا يمكن أن تكون الحركة أسرع من الزّمان ولا الزّمان أسرع من الحركة ولهذا لا نسبية في الحركة المطلقة بل النسبية في الحركة الجزئية والمتجزئة.

$$\text{وكذلك سرعة المتحرك} = \text{سرعة الوقت.}$$

فلو كان المتحرك هو الأرض، والوقت هو الليل، فتكون سرعة الأرض = سرعة الليل، وإذا كانت سرعة الليل = 12 الساعة عندما يتعادل مع طول النهار، تكون من المسلمات سرعة الأرض وهي تتحرك حول نفسها = سرعة الليل أي أنها = 12 الساعة. والليل والنهار هما الزوجان المكونان لليوم، وأمس وغدا، وهذه جميعها مواليد التوأم (الحركة والزمان)، أما إذا تكلمنا بشكل خاص عن القطب الشمالي الذي يختلف فيه توازن الليل مع النهار كما هو في المناطق الغير قطبية فهذا يعود إلى اختلاف مجال الحركة وسرعة المتحرك مما يجعل عدم توازن بين زمن الليل والنهار على الساكنين في المنطقة القطبية. وعليه فالأمس واليوم والغد لم تكن هي الزمان، بل هي مواقيت تقع في الزمان، فبما أن اليوم هو المتكون من الليل والنهار، فإن ليل زمانا يستغرقه من الزمان العام وهو الممتد من الآن الغروب، إلى الآن الشروق، وإلا هل هناك من يعتقد بان الليل والنهار ليس لهما زمان؟ وبما أن لهما زمان، إذن فهما ليس بزمان. وبما أنهما هكذا فما هما؟ هما ولدا التوأم (الحركة والزمان) ولهذا تكون الأيام هي الأخرى مواليد التوأم وليست من مكوناته أو مسبباته وعلل وجوده.

وعندما تكون سرعة الحركة = 0 فمن المسلمات تكون سرعة المتحرك هي الأخرى = 0، وقوته المتحركة = 0، وبما أن سرعة المتحرك = 0 إذن سرعة الزمان بالنسبة لحركة المتحرك = 0. ولذلك يكون كل شيء بالنسبة للحركة العامة هو في حالة توقف، وعندما يحدث التوقف العام فلا تكون الحياة. أما بالنسبة للمتحرك الجزئي إذا توقف عن الحركة المتولدة أو المدفوعة بقوة فلا يمكن أن تكون

الحركة العامة = 0. وذلك لأنها سابقة ومستمرة على المتحرك الجزئي.

فإذا كانت الحركة العامة عند بدء المتحرك الجزئي في الانطلاق من مكانه = 1000000 يوم من الزمان، وسرعة المتحرك الجزئي = سرعة دوران الأرض حول نفسها، وإذا توقف المتحرك الجزئي بعد قضائه 48 ساعة من الزمان، هذا يعني إن التراكم الزمني عندما يتوقف المتحرك الجزئي = 1000002 يوم من الزمان. ولذلك عندما كانت حركة المتحرك الجزئي = 0 كانت الحركة العامة = 1000000 يوم من الزمن، وبعد دوران المتحرك الجزئي 48 ساعة بعدها أصبحت حركته = 0، وزمان حركته هو الآخر = 0، وذلك نتيجة لتوقفه، ويكون زمانه في هذه الحالة هو زمان وجوده (فترة بدايته ونهايته) وهي الفترة التي تحتوي ما قبل صفر بداية الحركة وصفر نهايتها. فإذا كان زمان وجود المتحرك السابق سابقا على زمان حركته المدفوعة بمائة 100 يوم، وهي فترة ما قبل الزمن الصفري (زمن بداية الحركة)، وأستمر مائة 100 يوم بعد زمن نهاية الحركة (بعد صفر النهاية)، ثم انتهى من الوجود (أعدم)، فتكون فترة وجوده = 202 يوم، وهي مجموع 100 يوم ما قبل صفر البداية + 2 يومين (48 ساعة) فترة الحركة المحصورة بين صفر البداية وصفر النهاية + 100 يوم فترة ما بعد صفر النهاية الحركية.

وعليه لم يكن هناك زمان طويل وزمان قصير، ولا زمان سريع وآخر بطيء، بل السريع والبطيء هو المتحرك، فإذا كان المتحرك سريعا كانت الحركة في حالة تساوي مع الزمان بالنسبة للمتحرك، وكلما كان المتحرك بطيئا كذلك يكون حال الحركة والزمان في حالة تساويا بالنسبة للمتحرك. ولا يمكن أن يحتل توازن الزمان مع الحركة،

ولهذا الزّمان والحركة لا يختلفان، بل الذي يختلف بين الحين والآخر هو السرعة (سرعة المتحرك الجزئي)، ولهذا الزّمان لا يُختصر أو يُطوى، وكذلك الحركة لا تطوى ولا تُختصر، فالذي يُطوى ويُختصر هو المسافة بالنسبة للمتحرك الجزئي سواء كان سيارة أو طائرة أو مقذوف صاروخي أو غيرها من المتحركات الجزئية والمتجزئة، وكل منها يقارن بالآخر من حيث السرعة ولا يقارن به من حيث النوع، فالنوع يقارن بنفس النوع، الغزال مع الغزال والزرافة مع الزرافة والذئب مع الذئب ولا يقارن الذئب مع الكلب ولا الغزال مع الزرافة. ولهذا ينبغي مراعاة عناصر المقارنة وهي الخصائص والصفات والنوع والجنس، فإذا كان الهدف من المقارنة هو معرفة عناصر الالتقاء والتقارب فهذا يختلف عن الهدف من معرفة عناصر الافتراق والاختلاف، فالأولي لكثرة معطيات التوحد، والثانية لكثرة معطيات التفرق. فالقمر كمتحرك فلكي يقارن بالشمس كمتحرك فلكي، فكلا منهما يشاهد ويلاحظ ويحس به ويلمس، وبالإمكان أخذ عينات منهما للمعامل والمختبرات. والليل يقارن بالنهار لأنهما من جنس واحد هو اليوم. إنهما يشاهدان ويلاحظان مع أنّهما يختلفان عن القمر والشمس من حيث إنهما لا يلمسان، ولذلك لا تؤخذ منهما عينة للمعامل والمختبرات. وعليه إذن للشمس والقمر حركة زمنية على الأرض وهي حركة الليل والنهار. وليل والنهار حركة مكانية على الأرض وهي حركة الشمس والقمر. ولهذا ليس كل مشاهد ومحسوس ملموس كما هو حال الليل والنهار اللذان يشاهدان ولا يلمسان ولا تؤخذ منهما عينة لهذا الغرض اللمسي.

دائرة التوأم: (الزّمان الحركة).

المستقيم عبارة عن مجموعة نقاط متصلة بداية ونهاية، وتعد كل نقطة بداية لما بعدها ونهاية لما قبلها، وهكذا يستمر المستقيم في اتجاهه إلى أن تتصل آخر نقاطه بأولها فيكوّن المستقيم دائرة، ولكن لا يمكن أن تقفل هذه الدائر ولا أي دائرة إذا لم تكن هناك حركة. وعندما تُقفل الدائرة بأخر نقطة تكون هذه النقطة في منظومة تكوين الدائرة، وتصبح بعد ذلك بداية لما بعدها ونهاية لما قبلها. وعندما يكون وقتها الآن تكون الآن في حالة حركة، وتصبح كل النقاط السابقة لوقتها هي في الماضي، وبعد قفل دائرة الزّمان بأخر نقطة فلا يكون لغيرها من النقاط مستقبل في تكوين هذه الدائرة التي قفلت بها، ولذلك عندما تقفل دائرة الزّمان والحركة فلا يكون في هذه الدائرة مستقبل، ولهذا فمن أراد المستقبل فليعمل عليه قبل قفل دائرة التّوأم التي لم يعد فيها مكانا للمستقبل بعد النهاية، وأصبح اليوم الآخر. واليوم الآخر هو يوم الوقت المعلوم {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} 626، ويوم الوقت المعلوم هو الذي نعلمه، ونعلم إننا لا نعلم يوم حدوثه، ولأن اليوم هو الوقت وليس الزّمان فقال الله تعالى: (يوم الوقت المعلوم) ولم يقل اليوم المعلوم. إذن اليوم هو الوقت، والليل والنهار والشروق والغروب هي أوقات، والوقت يرتبط بالمواقيت وهي العلامات الدالة على الحركة والزّمان {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} 627 بمعنى إنّ الأهله علامات دالة على وجود الحركة والزّمان. ومن خلال حركة الأهله وفق المنظومة الفلكية نتعرف على اليوم وغدا وأمس كمواقيت زمنية تلاحظ ولا تشاهد يحس بها ذهنيا ولا تلمس ماديا، وبما أنها لا تشاهد فكيف إذن تعد. تعد لأن مكوناتها تشاهد

⁶²⁶ الحجر، 38.

⁶²⁷ البقرة، 189.

وتلاحظ، فمكونات اليوم هي الليل والنهار والشروق والغروب، وهذه جميعها تشاهد وتلاحظ، ولذلك تعد الأيام بمواقيتها الحركية (الأهلة) ومواقيتها الزمنية (الليل والنهار). ولذلك تكون (الآن، وقبل، وبعد) مؤشرات لمواقيت حركية وزمنية. أما (أسرع، وأبطأ، ومتساوي) فهي مؤشرات لمتحرك.

وعليه أتساءل:

هل الزّمان يُعد؟ الزّمان لا يُعد، وذلك لأنّه لم يقع تحت سيطرة حواسنا، فهو لا يُلمس ولا يُشم ولا يُذاق ولا يُشاهد ولا يُسمع، ولكنه يُدرك ويُعقل مُجرداً، وبما أن الزّمان لا يُعد، فما هو الذي يُعد ونعتقد بأنه الزّمان؟ الذي يُعد، ويُعد به هو اليوم، والشهر، والعام والدهر، وهذه مواقيت لها بداية ونهاية معلومة ترتبط بحركة الفلك المكونة لليل والنهار والشروق والغروب والأهلة. ولهذا نعرف كم عدد الأيام والشهور والسنين، وبها تُحسب أعمارنا (كم قضينا من العمر) وتُؤرخ أعمالنا وتُسجل. ولكن هل اليوم الذي به تُؤرخ أعمالنا هو اليوم المساوي لأي يوم في حركة الكواكب والنجوم؟ من المسلمات لا. فالיום الذي نعيشه على الأرض لم يكن هو اليوم على الكوكب عطارد، فعدد أيام السنة على الأرض 365 يوم تقريباً، في حين عدد أيام السنة على الكوكب عطارد تساوي 88 يوماً تقريباً، وهذا يعني أن اليوم على الكوكب عطارد أطول بكثير من اليوم على الأرض. والسنة على الكوكب الزهراء تساوي 224.7 يوماً تقريباً، وهذا يعني أن اليوم على الزهراء أطول من اليوم على الأرض وأقصر من اليوم على عطارد. واليوم الذي يعد به الله تعالى يساوي ألف يوم ممّا تُعد على الأرض وذلك لأنها أيام شدائد، وأيام الشدائد بالضرورة تكون مستطالة بالنسبة لمن خفت موازينه وهو في الهاوية،

وكذلك قد يكون المعني بأن خيرات ربك التي لا تُحصى سيكون اليوم فيها كألف سنة مما تُعد على الأرض وذلك جزاء لمن ثقلت موازينه وهي العيشة الراضية، وطبيعا قد تختلف الحركة وذلك من حيث مجال امتدادها، أو من حيث سرعتها، ولهذا بالضرورة تختلف الأيام في الدنيا عن الأيام في الآخرة، ولا ينبغي أن ننسى إن الأيام التي يعد بها الله هي أيام الحركة الكلية للكون، وليس أيام الحركة الجزئية للأرض حول نفسها، { وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } 628.

الزّمان والحركة هما توأم الوجود الحي: وهذا الوجود بشكّله المطلق مادي ولا مادي، ولهذا لا يكون المادي لو لم تكن هناك حركة وزمان مصاحبان له، ولا غير المادي يكون لو لم تكن هناك حركة وزمان مصاحبان له، وفي هذه الحالة لا يكون أحدهما سابق على الآخر { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } 629 فلا الحركة سابقة على الزّمان ولا الزّمان سابق على الحركة، والكل في فلك يسبحون.

ومن خلال دراستنا للزّمان والحركة نلاحظ ما يخالف القول بنسبتهما، فالزّمان مطلق بسبب عدم تحكمنا فيه وسيطرتنا عليه، وهكذا تكون الحركة هي الأخرى مطلقة. ولتوضيح ذلك اعرض المثال الآتي على مطلقة الزّمان ونسبية السرعة: إذا انطلقا متسابقان من النقطة 0 صفر في وقت واحد وليكن 0 الصفر الافتراضي، ووصل الأول نقطة 0 صفر النهاية بعد أن قطع مسافة 100 متر، في زمن 10 ثوانٍ، ووصل المتسابق الثاني نقطة 0 صفر النهاية بعد

628 الحج، 47.

629 الذاريات، 49.

أن قطع نفس المسافة السابقة في زمن 20 ثانية، فماذا يعني هذا الاختلاف مع أن زمن البداية واحد والمسافة المستهدف قطعها واحدة؟

هذا يعني أن في الزمن الواحد قد تختلف السرعة بين المتحركات مما يؤدي إلى اختلاف المسافة المقطوعة في الزمن الواحد، فعندما قطع المتسابق الأول المسافة في 10 ث، قطع الثاني نصف المسافة تقريبا في نفس الزمن الذي وصل فيه المتسابق الأول إلى نقطة النهاية (10 ث)، وعندما سُلمت راية النصر للمتسابق الأول (الفائز) في الزمن 15 ث بعد الزمن الصفري (زمن البداية) لا زال المتسابق الثاني يجري في المضمار لعدم وصوله نقطة النهاية. وعليه فالزمن لم يتباطأ مع سرعة الثاني ولم يسرع مع سرعة الأول، فالزمن هو الزمن تراكمي متصل ولم يختلف، واختلفت السرعة بين المتسابقين، وذلك باختلاف قوة الامتداد لكل منهما مما جعل متوسط سرعة الأول تساوي 10 متر في الثانية، ومتوسط سرعة الثاني تساوي 5 متر في الثانية، ولهذا قلنا الزمان مطلق وثابت، والسرعة نسبية ومتغيرة.

والفرق أيضا يكون بين الحركة والامتداد، فالحركة مطلقة لأنها خارج سيطرتنا وتحكم أدواتنا، والامتداد نسبي حيث أنه متوافق مع قوة الجسم الممتدة، فحركة الكون متصلة طبيعيا ومنتظمة، وحركة الأرض حول نفسها حركة مطلقة، وهي جزء من الحركة العامة، وهي المقدرة باليوم المتكون من الليل والنهار، وحركتها حول الشمس هي الأخرى حركة جزئية مطلقة (خارج قدرة تحكمنا) وهي المقدرة بالسنة المتكونة من فواصل الأهلة الشهرية. ولهذا يتصل الزمان بالحركة كاتصال التوأم بجبل المشيمة في رحم الأم، مما يجعل بينهما ثبات واتصال، فثبات الزمان بثبات الحركة، وثبات الحركة بثبات

الزّمان، ولهذا كل منهما مطلق. أما الامتداد فنسبي، فامتداد الأرض حول نفسها نسبيا بالنسبة لامتدادها حول الشمس، ولذلك يكون زمن امتدادها (دورانها) حول نفسها وامتدادها حول الشمس = 1 - 356 يوم تقريبا، وقد يختلف طول اليوم عن أمس وعن غدا، وذلك نتيجة اختلاف مجال الامتداد ممّا يجعله (الامتداد) هو الآخر مختلفا باختلاف مجاله، ولهذا لا يختلف طول اليوم نتيجة اختلاف الحركة، فالحركة ثابتة ومطلقة، بل الذي يختلف هو مجال الامتداد. وعليه تكون الحركة ثابتة والامتداد متغير.

وقد يتساءل البعض: بما أننا لا نشاهد الحركة فما هو الذي نشاهده عندما يكون الجسم في حالة حركة ذاتية أو مدفوعة وهو منطلق من النقطة أ إلى النقطة ب؟ الذي نشاهده في هذه الحالة هو أولا: المتحرك، وثانيا الامتداد، فالمتحرك هو الجسم، والامتداد هو اندفاع الجسم بين صفر البداية وصفر النهاية، فامتداد الرجل وفق حُطّاها تُشاهد، وامتداد الفراشة من زهرة إلى زهرة تُشاهد، وامتداد الكرة من الهدف إلى الهدف يشاهد، وهكذا امتداد المستقيم وكل متمد بقوة دفع ذاتية أو معتمدة على قوّة. وعليه الامتداد مادي وكل مادي يشاهد.

مجال الامتداد:

لا امتداد ولا حركة إلا في حدود الممكن، ولذلك يكون الممكن هو مجال الامتداد، ومجال الحركة والزّمان، ولأنه ممكن فهو متوقّع الحدوث وبعد حدوثه قد يكون مساويا لما هو متوقّع وقد يكون أكثر أو اقل، وعليه فالممكن ضروري الحدوث، ولكن نسبة حدوثه احتمالية ممّا جعلنا نفترض لها ثلاثة احتمالات وهي:

الاحتمال الأول: يكون الممكن مساويا للمتوقَّع.

والاحتمال الثاني: يكون الممكن أقل من المتوقَّع.

الاحتمال الثالث: يكون الممكن أكثر من المتوقَّع.

وعليه لا يكون الامتداد إلا في مجال الممكن، ولا ممكن إلا في دائرة الزّمان، فما نشاهده أو نلاحظه ونحس به أو نتذوقه أو نشمه أو نسمعه فهو الواقع في حدود الممكن، ولذلك يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجال الممكن بالنسبة لمداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا، فمنا من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا وهذا يعني إن البعض منّا قُدرة تمييزه أقل، والبعض الآخر يساويها.

وعندما نتحدث عن الممكن فلا ينبغي الإغفال عن غير الممكن حيث لا وجود لغير الممكن بالنسبة لله تعالى {وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} 630. أما بالنسبة للبشر فهناك الممكن، وهناك غير الممكن، الممكن في نضج القدرة، وغير الممكن في قصورها، ولهذا قد يتوقع المفكر ما هو ممكن، ولكنه لا يستطيع تحقيقيه نتيجة قصور إرادته وقدرته.

يقع الممكن في الزّمان الحاضر والزّمان المستقبل، ولا يقع في الزّمان الماضي، وذلك لأن الممكن هو افتراض قابل للتحقق وليس افتراضا محققا، فالمحقق هو الكائن أو الكائنة، أما الممكن فهو الذي لم يكن بعد ولكنه سيتحقق في الآن أو في المستقبل، ولهذا يكون الفرق واضحا بين المحقق ككائنة، وبين الممكن الذي سيتحقق. وعليه يمكننا الآن الحوار مع السؤال الذي طرّح منذ زمن بعيد في الفكر الفلسفي والسؤال هو: ما هو الأسبق في الوجود: الممكن أم

⁶³⁰ البقرة، 117.

الواقعي؟ وأجاب أرسطو على ذلك بأن الواقعي اسبق في الوجود من الممكن معلل ذلك بقوله: "إن الممكن يحتاج كي يوجد إلى واقعي يسبقه"⁶³¹ من هذه الناحية نعم لولا وجود مصدر للأمر ما كان للأمر وجود أول، ولكن من ناحية أخرى فالأمر السابق غير مطلق ممّا يجعلنا نقول: لا يمكن أن تتواجد الأشياء ما لم تكن ممكنة. فالله سابق الوجود على الممكن، وكل ما تحقّق من بعده وما سيتحقّق هو الممكن بالنسبة له، والبشر كمتحقّق من هذا الممكن عندما يسعون لتحقيق ما هو ممكن من ناحية عقلية، يكون الممكن في هذه الحالة سابق على المحقّق ذهنياً أو إدراكياً. وهكذا يكون حال الممكن الإلهي الذي لم يحقّق بعد للمشاهدة والإدراك العقلي، {وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون}⁶³² بمعنى عندما يصدر الله أمراً وهو الممكن لا بد وأن يتحقّق في الوقت المحدد له، وفي هذه الحالة يكون الممكن سابق على المحقّق. وعليه يكون الممكن قرار معطياته مثبتة للتحقّق، والتحقّق فعل تنفيذ الممكن وهو الكائن أو الكائنة، والبشر لا يحقّقون إلا الممكن، أما الله يحقّق الممكن والمستحيل فسبحان الله العظيم.

الامتداد الفكري:

هو محتوى لفظي عام في مضمونه حركة، ولهذا لا يمكن أن يكون هناك امتداد بدون حركة سواء كان هذا الامتداد جسمي أو فكري، والامتداد قد يكون طبيعي كما هو عند حالات النمو وقد يكون بالإرادة كما هو في حالات الاختيار، وقد يكون بالقوّة

⁶³¹ عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة. بيروت، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، المؤسسة

العربية للدراسة والنشر، 1984م، ص 448.

⁶³² البقرة، 117.

عندما يكون في مقابله انكماش بالمغالبة، ويعتبر الامتداد مساحي سواء كان فكري أو مادي، وقد يكون ميسرا، وقد يكون بالقوة، وقد لا يكون.

الامتداد في الفراغ ميسرا مثله مثل الامتداد المجالي المسموح به لأنه لم يشكّل أي عائق ولا يمتد خارج حدوده، وامتداد المغالبة بالقوة يؤدي إلى الاستزادة والفقدان بين الأطراف الممتدة، والامتداد المتساوي في الصلابة قد لا يكون. والامتداد خارج الحيز يكون على حساب حيز آخر، وعندما تتلامس الأفكار أو الأجسام الممتدة يحدث الاحتكاك بينها وقد ينجم عنه استيعاب أو صدام يكون له تراض أو مغالبة. وهكذا تمتد الأرقام المستقلة إلى النهاية يُيسر وهي متصلة، وتستقل بالآحاد وتتصل بالجموع. امتداد الواحد إلى ما بعده من أعداد يساوي جموعا، ولهذا لا جموع إلا بالامتداد، امتداد الواحد خارج حدوده يشغل حيزا من المترتب عليه والذي لا يمكن أن يكون إلا به (بالواحد)، ولذلك لا وجود لأي كميات إلا بامتداد الآحاد. فلو رسمنا مستقيم طوله 5 سم، فإن ذلك يعنى امتداد خمسة وحدات متصلة بالجموع تكوّن هذا المستقيم كما في الشكل رقم (1).

أ ————— ب.

الشكل رقم (1).

وبما أنّ الوحدات الخمس منفصلة فكيف تكوّن مستقيما متصلا؟ تكونه بالامتداد، امتداد الواحد إلى خارج قيمه (مجال حدوده) بالإيجاب تجعله يتماس مع مجال القيم للعدد اثنين بالسلب، وهكذا تتصل بقية الأرقام الخمسة مسطرتا ممّا يجعلها ترسم الخط

المستقيم الذي أشرنا إليه. ولو لم تكن للأعداد نهايات بالسلب والإيجاب ما كانت هناك صلة بينها، ولهذا لا يمكن أن تتصل الأعداد بعضها ببعض لو كانت تمتد إلى ما لا نهاية. وعليه يُجمع الأعداد المستقلة، وتُطرح الأعداد المتصلة، والأعداد المتساوية في الكم قد لا تتساوى في المقادير، لقد عرفنا إن جمع $2 + 2 = 4$. ولكن هل الاثنين الأولى تساوى الاثنين الثانية في المقدار؟، ولتوضيح ذلك لو افترضنا إن الاثنين الأولى غزالان والاثنين الثانية أيضا غزالان، ولكن الاثنين الأولى عمرهما سنة واحدة، والاثنين الثانية عمرهما أربعة سنوات، فهل هم في حالة تساوى قيمي أو عمري؟ وحتى من الذهب قد لا تتساوى، فهل 50 جرام من الذهب تساوى 50 جرام من الذهب؟ مع أنّ من حيث الكم نعم إنهما متساويتان إلا أن من حيث القيمة ليس بالضرورة أن تكونا متساويتين، لأن الخمسين جرام الأولى عيارها 18 والثانية عيارها 22. إذن الأعداد المتساوية في الكم ليس بالضرورة أن تتساوى في العمر أو النوع أو اللون أو المقدار. وهكذا لو تحصل أحد الطلبة في مادة الفيزياء على نسبة عالية ولتكن 90% هل هذا يعنى إن كل من تحصل على هذه النسبة هو ممتاز في مادة الفيزياء؟ ليس بالضرورة أن يكون ممتازا في المادة مع أنّه ممتاز في هذا الاختبار، ولو أُعيد له الاختبار باختلاف الأسئلة قد لا يتحصل على هذه النسبة العالية، وتكون النتيجة السابقة في شكّ لفقدانها مصادق الثبات. وعليه ينبغي أن يهتم التحليل العلمي والتفسير العلمي بعناصر الاختلاف والاتفاق بين النتائج المتساوية في الحاصل الحسابي، وألا يقتصر على المجامع الإحصائية فقط، لأن اتصال الأعداد وتساوى حاصلاتها لا يعنى تساويها.

وعند دراسة المواضيع تتصل الأفكار وتترابط في نسجٍ منهجي يُنظم وحدة الموضوع، ويظهره في شكله اللائق ليحل محله بين البحوث الناجحة التي سبقته، وتتصل الأفكار والمواضيع من اجل اكتمالها، وتحلل علميا عندما يتمكن الباحث من معرفة نقاط الاتصال والترابط التي تنقله من الكل، إلى الجزء، ثم إلى المتجزئ، أو منه، إلى الجزء، ثم إلى الكل عند محاولته التعرف على العلل والأسباب الكامنة والظاهرة. ولا يمكن أن يكتمل الموضوع بدون امتداد أفكاره، ولا يمكن أن يحلل بدون معرفة نقاط اتصاله. والباحث كمتقصرٍ للحقائق لا يسترسل في دراسته، أو تشخيصه، أو علاجه للحالات ما لم تكن أفكاره متصلة، وإمامه بالموضوع متكاملًا. وهكذا تتكون الظواهر والمشاكل المستقلة من علل وأسباب متصلة، ومن الصعب أن تحلل، أو تفسر المواضيع قيد البحث ما لم يراع الباحثون ذلك الامتداد الذي يربطها فيما بينها. فعدم التعبير عن الكبت على سبيل المثال قد يؤدي إلى الانفجار السلوكي المتوقع وغير المتوقع ولا غرابة في ذلك، لأن الانفجار السلوكي مرتبط بكبته المفروض، ويحدث الانفجار برغبة الإنسان إلى التنفيس الوجداني الذي يحقق له الرضاء، حتى وأن ترتب عليه ثمن عقابي، وكذلك كبت الغرائز، قد يؤدي إلى عدم الانضباط النفسي، وعدم الانضباط النفسي، قد يؤدي إلى انحراف السلوك، إذن هناك امتداد بين الكبت، وعدم الانضباط، فكبت الغرائز، قد يؤدي إلى التمرد، والثورة على أدوات الكبت، بغرض التخلص من سيطرتها، ويحدث الصراع نتيجة تواجه امتدادين بالقوة تجعل أحدهما يمتد على حساب الآخر إذا انهزم أو ضعف، وعندما تتعادل الكفتان قد تكون بينهما مواجهة بتماس حدود اتصال القوة المتكافئة مما يجعل لامتدادها نهاية.

لا امتداد إلا بحركة وكل كائن أو جماد هو في حالة حركة كلية، أو جزئية، أو متجزئة، فالأرض على سبيل المثال ككل تتكون من أجزاء تتجزأ إلى يابسة، وماء، ونار، وكلها تتجزأ، ولكل منها بداية ونهاية، وكلها في حركة مستمرة، وإذا تساءل أحد: بما أن الكل في حالة حركة، فهل للثبات وجود؟ نعم لكل حركة مستمرة ثبات في الاستمرار، ولكل مستمر نهاية يثبت عندها. وإذا تساءل آخر: لمن يكون الثبات؟ بالتأكيد للحركة. إذن لا ثبات إلا للحركة، وإذا شاهدنا أي شيء ثابت كما يعتقد المشاهد على سبيل المثال للأرض والجبال، فإن ذلك الثبات يعبر على وجود الحركة، "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب" 633 ولذلك لا يوجد الثابت المطلق، بل الذي يوجد السكون، والسكون دليل على وجود حركة كامنة تظهر للمشاهدة عندما تتوفر اشتراطاتها.

الحركة والسكون متلازمين، ويستوعب كل منهما الآخر، ويحمله في أحشائه، وهكذا لكل متحرك حركة، ولكل ساكن سكون، ويترتب كل منهما على الآخر. يبدأ السكون حيث تنتهي الحركة أو تتوقف، وتبدأ الحركة حيث يبدأ السكون أو يتوقف، فلا حركة إلا لسكون ولا سكون إلا لحركة، ويكمن كلا منهما في الآخر كما تكمن البراكين في باطن الأرض، وكما تكمن الحقيقة في صدر حاملها، وكما تكمن الفراخ في البيض (كمون المتحرك في الساكن)، فالبركان لا يمكن أن ينفجر إلا بقوة الحركة الكامنة فيه، ولا يهدأ البركان ولا يتوقف إلا بقوة السكون فيه، وهكذا تكون الحقيقة كامنة في الصدور الواعية بحركتها، إلى أن يتم الإدلاء بها، وبقوة وجودها، ولهذا يعتبر الكندي الحركة هي حالة من التبدل والتغير،

633 النمل، 88.

ولكل حركة بداية، ونهاية⁶³⁴. ويتم الاتفاق معه في هذا القول العلمي، بأن للحركة بداية، ونهاية، وأنها في حالة تبدل كما تبدل الأرقام في مجموعها وطرحها، وبقية حساباتها الرياضية، ولهذا لم يكن السكون عدما للحركة، ولم تكن الحركة عدما للسكون، بل كلا منهما معرضا للعدم، باعتبارهما وجود. وكما يكمن السكون في الحركة، وتكمن الحركة في السكون، كذلك تكمن الحركة في الحركة، ككمون حركة الدم في حركة القلب. ويكمن المتحرك في المتحرك، ككمون الجنين في بطن أمه، وكمون حركة الركاب في السيارة أو الطائرة، أو البالون أو السفينة، وعليه قد تكون الحركة ذاتية، وقد لا تكون (قد تكون مدفوعة، أو محمولة)، وكلها تحدث بفعل قوّة

والحركة الذاتية تنقسم إلى جزأين:

الجزء الأوّل:

حركة واعية بإرادة الاطمئنان، وتحقق أهداف شخصية، أو ذاتية، أو موضوعية، دون أن تؤثر سلبا على الآخرين، مثل إشباع الإنسان لحاجاته وهو راضي، ولا يمس حاجات الآخرين حتى ولو كان بإمكانه تناولها، وهذه الحركة تحقق الانسجام والتراضي، وتؤدي إلى الوحدة.

الجزء الثاني:

حركة واعية بإرادة الخوف، وتحقق أهداف شخصية، أو ذاتية، أو موضوعية، وتؤثر سلبا على الآخرين، مثل إشباع الإنسان لحاجاته على حساب حاجات الآخرين، وهذه الحركة تؤدي إلى

⁶³⁴ حسام محي الدين الألويسي، فلسفة الكندي وآراء القدامى والمحدثين فيه. بيروت،

دار الطليعة، 1985م، ص 195 . 205.

الصراع والشقاق، وتؤدي إلى الفرقة، وكل ذلك يحدث من أجل المستقبل، ممّا يجعل للحركة مستقبل، وللمستقبل حركة. وتعتبر الحركة عن وجود طاقة ظاهرة أو كامنة تجعل الجسم أو الشكل في حالة حركة ثابتة، أو متغيرة، من وقت إلى آخر 635.

حالتا الحركة:

أولاً: الحركة الممتدة:

وهي التي تحدث عندما تتمدد القوّة في مجالها الذي تتمكن من وصوله كلما سنحت لها الفرصة في ذلك، وقد تكون الحركة فكرية، وقد تكون مادية.

1 الحركة الفكرية:

هي التي تحدث عندما تتمدد الأفكار من عقول وصدور حاملها، إلى عقول وصدور أخرى، فتشغل حيناً عندهم نتيجة امتدادها إليهم وهكذا تمتد الأخبار، والإشاعات، وتنتشر بين الناس حسب قوّة تأثيرها سلباً أو إيجاباً وحسب قوّة الفكرة أو الحجّة التي تتضمنها، والأفكار الموجبة عندما تمتد خارج المجال أو البعد الذي يمكنها التأثير فيه قد تحقّق نتائج سالبة، فالمناداة بالوحدة العالمية إنسانياً موجبة، ولكن عندما تتجاوز أهمية البعد القومي في البناء والتنظيم الاجتماعي تكون على حسابه، وتكون نتيجة الجهد المبذول في التنشئة الاجتماعية تساوى صفر في حالتين:

⁶³⁵ هادي العلوي، نظرية الحركة الجهورية عند الشيرازي. بيروت، دار الطليعة للطباعة

والنشر، الطبعة الأولى، 1983م، ص 62 . 75.

الحالة الأولى: مهما بذل من جهد تجاه المجتمع من أجل تحقيق البعد العالمي على حساب البعد القومي لا يتحقق مما يجعل الصفر هو نتيجة الجهد المبذول.

والحالة الثانية: تركيز الجهد التربوي على تنمية أو تطوير الاتجاهات العالمية لدى الناشئين تُضعف وعيهم بأهمية البعد القومي، وتكون النتيجة مستقبل المجتمع يساوى صفر، ويصبح سيره (مشيه) كالغراب الذي كان يعتقد بإمكانه أن يقلد الحمامة في مشيتها فنسى مشيته ومشيت الحمامة.

وقد يوجه المجتمع كذلك فكريا أو سياسيا تجاه تحقيق البعد القومي على حساب البعد المحلي، فتكون النتيجة هي الأخرى صفرية في حالتين:

الأولى: عدم تحقيق الوحدة القومية نتيجة انسلاخ المجتمع عن مكوناته الأساسية للأمة وهي الأسرة والعشيرة والقبيلة.

والثانية: عدم تحقيق الوحدة المحلية على المستوى الاجتماعي نتيجة إهمالها في التربية الاجتماعية.

وكذلك العمل على ترسيخ التكوين الاجتماعي المحلي على حساب البعد القومي تكون النتيجة صفرية في حالتين:

الأولى: تشتت المستوى المحلي لفقدانه مجال التمدد الطبيعي (التربية القومية).

والثانية: فقدان الأمة أو فقدان الإحساس بها يجعل حياة الأفراد في خطر لفقدانهم المظلة الاجتماعية. "فالأمة تكوين اجتماعي علاقته (القومية) والقبيلة تكوين اجتماعي علاقته (القبيلة) والأسرة

تكوين اجتماعي علاقته (الأسرة) وأمم العالم تكوين اجتماعي علاقته (الإنسانية). هذه بديهيات. ثم هناك تكون سياسي يكوّن الدولة هو الذي يشكّل خريطة العالم السياسية، ولكن لماذا تتغير خريطة العالم من عصر إلى آخر؟ السبب هو أن التكوين السياسي هذا قد يكون منطبقاً على التكوين الاجتماعي وقد لا يكون كذلك. فعند انطباقه على الأمة الواحدة يدوم ولا يتغير، وإذا تغير نتيجة استعمار خارجي أو تدني يعود للظهور مرة أخرى تحت شعار الكفاح القومي أو النهوض القومي، والوحدة القومية"636.

2. الحركة المادية:

هي التي تمتد بقوتها الملموسة أو المحسوسة والقابلة للمشاهدة، والملاحظة ويكون لها أثرا إيجابيا، أو أثرا سلبا باختلاف المتأثرين بها، مثل امتداد السيل الجارف في الوادي الذي يقتلع بقوة امتداده كل مهتز منتهيا عندما يقع في طريقه، وهذه قد تكون سالبة أو موجبة، حسب الموضوع، والمقيمين له، وباختلاف الزمان والمكان، ومع أنه قد يحدث سلبيات أو أضرار، إلا أنه قد يحقق العمار، بارتوائه للأرض وإحيائه للأشجار أو للنباتات التي كادت أن تموت أو تختفي637 وقد تكون الحركة نتيجة انفجار بركاني يحدث بعد تمدد القوة الكامنة في بطن الأرض عندما تضعف أمامه مقاومتها، فتفتح له الطريق للخروج إلى النهاية، وحسب مجال قوته ودائرة تأثيره، وهكذا يتمدد الجنين في بطن أمه، وتتمدد النبتة من نواتها إلى

⁶³⁶ معمر القذافي، الكتاب الأخضر. طرابلس، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب

الأخضر، مجلد، الطبعة الحادية عشر، 1986م، ص 138 . 139.

⁶³⁷ هادي العلوي، نظرية الحركة الجوهريّة عند الشيرازي. بيروت، دار الطليعة للطباعة

والنشر، الطبعة الأولى، 1983م، ص 62 . 75.

النهاية، أو تنكمش إلى النهاية. وإذا سألك أحد: هل الحركة تشاهد أم تلاحظ؟ فبماذا تجيب؟ في اعتقادنا أنّ الحركة لا تشاهد، ولكنها تلاحظ. ولكي أجيب أتساءل: بما أنّ الحركة لا تشاهد، إذن ما هو الذي يُشاهده؟ ويُعتبر حركة؟ أنّه المتحرك. إذن الحركة تختلف عن المتحرك، لأنّ المتحرك قابل للمشاهدة والملاحظة معاً، أمّا الحركة تلاحظ فقط، لأنّها غير ملموسة، لافتقادها للمادة التي تتوحد فيها. إذن الحركة هي الكامنة في المتحرك، وهي التي تحدث كلما حدث لها تمدد بالقوّة، يجعلها في حالة ظهور بدلا من حالة الكمون، وهي العلاقة التي تحدث بين المتحرك والمحرك، فإذا اعتبرنا على سبيل المثال كرة القدم هي المتحركة، فمن يكون المحرك لها؟، هل هو الأعب، أم قدم الأعب؟ بالتأكيد لو لم يكن الأعب محرك للقدم ما كان القدم محركا للكرة، إذن هناك محرك مباشر وهو القدم، ومحرك غير مباشر وهو العقل والجسم كوحدة واحدة، وتتداخل العلاقة بين المتحرك والمحرك، باتصال وانفصال، تتصل في الفكرة والدرجة، وتنفصل في الأداء والخصوصية. تتصل حركة الأعب وتتداخل من الفكرة التي تمتد من العقل إلى البدن، والجسد، فتحركه وفق خطة واحدة متناسقة، بخصوصيات كل عضو من البدن، ممّا يجعل لليدين وللرأس والقدم حركات مختلفة، كل حسب وظيفتها، ودورها في أداء المهمة المناطة بها. وحسب هذه الأدوار يشاهد المتفرج حركة الأعب متسقة، ولكنه يشاهد بالتحديد حركة القدم في علاقة مباشرة ومنفصلة مع الكرة أثناء دفعها إلى الأمام، أو الخلف، أو أحد الجانبين، فتمتد الكرة بقوة دفع المتحرك (القدم) إلى نقطة انتهاء القوّة أو المسافة المقطوعة، ولهذا قوّة الحركة هي التي تحدد مسافة الامتداد، وليس المتحرك هو الذي يحددها، مع أنّه لولا المتحرك ما عرفنا الحركة ولا كانت تشغل حيز.

ثانيا الحركة المنكمشة:

هي الحركة التي تطوي حركة الامتداد، أو هي العودة إلى الأصل، كعودة الشجرة إلى النواة التي كانت تكمن فيها، لأن كل شجرة منتهية باعتبارها شيء (وكل شيء منتهى)، ولكن هل ستنتهي الأشجار بعد موت كل ما نبت منها؟، بالتأكيد لا. في عالم الوجود الحي ستنتهي كل الأشجار الموجودة على قيد الحياة، وحسب أعمارها الممكنة لبقائها، وستنمو أشجار أخرى منكمشة في نواها. ولهذا لا امتداد إلا من انكماش، فالانكماش هو أساس كمون القوّة الممتدة. قوّة النهار لا يمكن أن تمتد إلا إذا انكماش الليل، وقوّة الليل هي الأخرى لا تمتد إلا إذا انكماش النهار، وقوّة انبساط اليد لا يمكن أن تتم إلا إذا انتهت قوّة انكماشها، ونتيجة الانكماش، والامتداد تسبح الكواكب في فلكها، وهكذا امتد الكون لحظة الانفجار العظيم، وهي نقطة البداية، وسيعود الكون إلى الانكماش عند نقطة النهاية، مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} 638. أي يوم أن تنكمش السماء، يكون الله قد أعادها إلى حالتها التي كانت عليها. وكما أن الامتداد لا يقتصر على المادة المشاهدة، أو الملاحظة، كذلك الانكماش لا يقتصر على ذلك، لأنّ كلّ ممتد لا بدّ وأن ينكمش سواء كان ماديا، أو فكريا، فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول والصدور، ثم تمتد من خلال الاتصال، بالتبشير والترشيد، والتحريض، والتنظير، وبالجدل ترسخ، أو تصحح، وتكون في حالة شكّ إلى أن تثبت، أو تُنفي. وقد تمتد أفكار وتنتشر بقوّة حجتها، ثم تعود إلى الانكماش عندما تضعف حجتها. وكل من الانكماش

⁶³⁸ الأنبياء، 21.

والامتداد يتضمن قوّة، ففي مرجحة القدم أثناء ضرب الكرة تنكمش بقوّة في حركة إلى الخلف، لتمتد بقوّة إلى الأمام لضرب الكرة ودفعها إلى الهدف، وإذا انكمشت القدم بقوّة إلى أعلى وإلى الأمام يتم دفع الكرة بقوّة إلى الخلف، وهكذا في حالة الجانبين، لأن القوّة هي التي تظهر في حالي الامتداد والانكماش، وهي التي لا تقاس إلا بعد الظهور من الكمون إلى الحركة.

في الفرحة والبهجة قوّة تمتد إلى أن تملّي الصدور بها، وتنكمش الأحران أمامها، وإذا انكمشت الفرحة والبهجة امتدت الأحران والاضطرابات، ففي حالة العلاج ينبغي أن يهتم الباحث بامتداد حركة الإيجابيات، وطوى حركة السلبات.

وبما أننا نتكلم عن الامتداد والاتصال الاجتماعي علميا، فما هو الامتداد الاجتماعي؟ هل هو المتكوّن من المفرد والمثنى والجمع والمكان والزّمان؟ أم هو أكثر من ذلك؟ فلو كان المتكوّن من امتداد الأفراد المتزايدين عن المثنى كان المجتمع في هذه الحالة كمّا، وإذا كانت الجموع من كل شيء تكوّن كمّا، فهل المجتمع هو الآخر مجرد كمّا؟ وهل الكمّ المجتمعي يُبين صورةً للمجتمع، أم يبين صورةا للبشر المتجمعين؟ في اعتقادنا لا تكتمل صورة المجتمع الذهنية إلا إذا تم اللقاء بين عناصره، وأن يكون بينهم تفاعل، وأن يكون لهم امتداد (امتداد ثقافي وحضاري). إذن المجتمع هو التقاء وتفاعل امتداد مجموع الأفراد والجماعات المتفاهمين على أهمية المكان والزّمان لكل واحد منهم (انه مجتمع الأمة الواحدة)، أما المجتمعات الأخرى عبارة عن حشود مؤقتة تلتقي على مصلحة وتنفرد على مصلحة. أذن امتداد الأفراد بأعداد هائلة بدون تفاعل الأهداف الخاصة والعامّة عبارة عن حشود (كمية) لا تعطي معنى للمجتمع، فالمجتمع

كَمَا وكيفا، كَمَا من البشر، وكيفا من القيم. ولهذا المجتمع كمفهوم يُصَوَّر ذهنيا ولا يرسم، لأنّه لم يكن مثلثا ولا مربعًا ولا أي شكّلا من الأشكال الهندسية. وهكذا التطور كالمجتمع لا يُرسم مع أنّ دلالاته تُرسم بيانيا بالمنحنيات والمضلعات والأشكال الهندسية الأخرى. ويتضح التطور بمقارنة أثر المتغيرات على الموضوع عبر الزمن سواء كان الموضوع قابلا للمشاهدة أو الملاحظة.

المكان:

هو حيز تشغله الأجسام ويمكن ملاحظته وقد يكون من الصعب مشاهدته، والمكان سابق على الجسم أو الشكل، كأسبوعية القلب على المقولب فيه، وبالمشاهدة قد يصعب على المشاهد الفصل بين المكان والجسم الذي يملأه، ولكن باستخدام وسيلة الملاحظة يمكن التمييز بينهما. إذن المكان هو الإطار العام الذي يحتوي الأشكال والأجسام، فلولا وجود مكانا للأرض ما كانت. ولكن ما هو مكان الأرض؟ هو الإطار الخارج عنها والذي يشكّل محيطها الحسابي، ولذلك فالمحيط لا يمكن أن يكون جزءا من المحيط، محيط الأرض لا يمكن أن يكون جزءا منها، ولا هي تكون جزءا منه. وفي اعتقادنا لا يمكن أن يكون للمحيط شكل ثابت أو قالب محدد، بل دائما المحيط متباين، ولم يقتصر على الأشكال المستطيلة والمربّعة والمثلثة أو الدائرية، بل يتعداها إلى كل شكل وكل جسم، فللطائر محيطه وللإنسان محيطه الذي يحدد معالمه، وهكذا لكل شكل محيط خاص به. ولهذا أتساءل: هل هذا الإطار أو المحيط يمكن مشاهدته؟ في اعتقادنا من الصعب مشاهدته، ولكن بالإمكان ملاحظته، فالمشاهدة لا يمكن أن تتم إلا للأشياء المحددة والمحصورة كالأجسام والأشكال الهندسية، أما الملاحظة فتتعدى

ذلك إلى ملاحظة الظواهر، فالمكان ظاهرة، والزّمان ظاهرة، والطلاق ظاهرة، والزواج ظاهرة، والحركة ظاهرة، وهذه الظواهر وغيرها لا يمكن أن تشاهد بالعينين ولا بوسائل تقنية حديثة، ولكن جميعها تلاحظ، وإلا هل هناك من يستطيع مشاهدة الحركة أو الزواج أو الزّمان؟ إنه من غير الممكن.

الحركة لا تشاهد، ولكن الذي يشاهد هو المتحرك، فرفع القدم إلى الخلف ودفعه إلى الأمام لضرب كرة القدم تشاهد، ولكنها لم تكن هي الحركة، بل الذي يشاهد هو المتحرك (القدم)، ومن خلال مشاهدة القدم تلاحظ الحركة، حركة القدم وحركة الكرة. إذن الحركة هي ربط العلاقة بين المتحركات من الذهن إلى الهدف وهذه كلها لا تشاهد، ولكنها تلاحظ، ولذلك يكون الفرق واضحا بين المتحرك والحركة، والفرق بينهما هو إن المتحرك لا بدّ وأن تكون له صورة أو شكّل، ولهذا يشاهد، أما الحركة فلا يمكن أن يكون لها صورة أو شكّل، ولهذا لا تشاهد. فالحركة قوّة تندفع أو تُدفع، والقوّة لا تشاهد ولكنها تلاحظ (تُدرك)، وهكذا الزواج لا يشاهد والزّمان لا يشاهد، ولكن كل منهما يُدرك كالأبوة والعمومة والمحبة، وإلا هل هناك من يشاهد الزواج؟ بالتأكيد لا، الذي يشاهد هو الرجل والمرأة، والبشر المشاركين، والوسائل المستخدمة، والوثيقة التي وقع عليها من قبل الطرفين والشهود، وهذه لم تكن الزواج، فالزواج هو الذي يلاحظ من خلال اكتشاف العلاقة بين عناصره الكامنة والظاهرة والتي تجعل من الزوجين لباسا لبعضهما البعض نتيجة وجود ألفة ووجود قوّة وحركة تجاذب.

كل الأشكال الهندسية لا يمكن أن تكون أشكالا إلا ولها أماكن فالمكان هو القالب الذي تتشكّل فيه الأجسام والأشكال

الهندسية، فالأرض كشكل هندسي تتكون في مكان ومن مادة، المكان بالنسبة لها هو الإطار الخارجي أو المحيط الخارجي الذي تُحملُ فيه، والأرض هي المادة الداخلية المحاطة بدائرة مكانية، ولهذا من الصعب على البسطاء في المعرفة والبحث العلمي أن يدركوا الفارق أو يفصلوا بين الأرض كمادة وبين محيطها الخارجي، أما الملاحظ العلمي يمكنه إدراك الفارق بينهما ويمكنه الفصل بينهما، حيث أنه يعرف إن المادة التي تتكون منها الأرض لم تكن المادة التي يتكون منها محيطها الخارجي. وعليه لا يتم الاتفاق مع رأي الفيلسوف ديكارت في قوله "الأجسام لا تختلف عن المكان الذي يحتويها" 639. فالمكان كما سبق وأن بينا شيئاً، والجسم الذي يملأه شيئاً آخر، فالأجسام عندما تشغل حيزاً تتحد مع المكان من حيث التماس المحيطي، فعلى سبيل المثال: كمية الماء في الخزان الذي طوله 6 ستة أمتار، وعرضه 4 أربعة أمتار، وارتفاعه 2 مترين، يكون حجمها يساوي $6 \times 4 \times 2 = 48$ متراً مكعباً، وهو حجم الشكل الرباعي السابق الذكر، وعندما يتم تفريغ الماء من الخزان الرباعي يكون حجم المكان هو المحيط بالماء وهو الجدران السداسية المكونة للشكل الرباعي، ولهذا يكون الماء هو الجسم، والمحيط ذو الستة أوجه هو المكان الذي ينفصل عنه الجسم المائي عندما يفرغ منه، فيكون حيزاً خالياً من الجسم المشاهد والملموس، فهو حيز مكاني يمكن ملئه بأي جسم آخر يمكنه أن يحتويه بالشكل السابق. وللمكان الخارجي المشاهد مكان يحتويه هو الآخر فمكان الخزان المائي السابق هو أعلى سطح المسكن، قاعدته السطح ومكانه في الهواء وهو الحيز الذي يشغله منه، والذي لا يمكن مشاهدة المكان

⁶³⁹ الموسوعة الفلسفية العربية. معهد الإنماء العربي، المجلد الأول، الطبعة الأولى،

إلا به (بالخزان كجسم)، والذي يمكن ملاحظته بدونه. فعندما يزال الخزان من مكانه، فهل يمكن لأحد أن يشاهد المكان الذي كان فيه الخزان؟

إذن المكان يمكن ملئه بجسم، سواء كان جسما صلبا أو غير صلب وأي جسم إذا لم ينتظم مع الحركة أو يتزن معها لا بد وأن يصيبه الخلل، ولهذا كان للهندسة ضرورة في البناء والتصميم، لأنها هي التي تجعل للمكين مكانة، ولذلك ينبغي أن تكون مكانة أي جسم متزنة على الأرض، أو في مجال حركتها الذاتية أو المدفوعة إليها، كاتزان مكانة الود في الصدور، فالمكانة حيز، والحيز قد يكون مكين وقد لا يكون، يكون مكين كحيز الجنين في بطن أمه الذي يجعل للجنين مكانة عاطفية عند أمه وهي تحمله وهن على وهن {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} 640، وعندما يكون المكان غير مكين، يكون غير مأسوف عليه إذا ما غُيِّرَ أو أُزِيلَ من الوجود.

المكان المجرد:

المكان المجرد هو الحيز السابق على كل شكل مشاهد، والذي يمكن مشاهدته بعد انشغاله بجسم، والفرق بين المكان والمكانة، هو أن المكان يمكن أن يكون مشاهدا، ويمكن أن يكون مجردا، أما المكانة فهي دائما مجردة تلاحظ ولا تشاهد، كمكانة الحبيب في فؤاد حبيبه، ومكانة الأبوة والأمومة بين البشر، والعلاقة بينهما (بين المكان والمكانة) هو إنَّ المكانة مع أنَّها مجردة إلا أنَّها تشغل حيزا مما يجعلها تنتقل من المجرد إلى المشاهد، فعندما تكون للمؤمن مكانة

640 المؤمنون، 13.

بين النَّاسِ فقد تدفعهم هذه المكانة إلى الدفع به إلى مكان بينهم، فمكانة محمد عليه الصَّلَاة والسَّلَام هي التي جعلت له مكانا بين المسلمين، وهكذا مكانة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى من بعده رضي الله عنهم، فمكانتهم هي التي حرَّضت مجتمعهم بأن يجعل لهم أماكن الصدارة وتحمل المسؤولية من بينهم. {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} 641. بمعنى أعملوا على أن تكون لكم مكانة واعتبارا لكي تأخذوا حيزا لتتواجدوا فيه، ولكن أية مكانة هذه؟ هل هي مكانة عليا أم مكانة دنيا؟ ولأنَّ هذه الآية تشير إلى الكافرين والظالمين فهي تشير إلى المكانة الدنيا، أما المؤمنين فمكانتهم عليا، ولذلك ينبغي أن يعملوا عليها لكي يكون لهم اعتبار. إذن المكان سواء كان مجردا أو غير مجرد يختلف عن المكانة. المكانة اعتبار ورضا نتيجة تقدير نفسي، والمكان المجرد هو الذي لا يشاهد ولكن يحس به ويلاحظ، كمكان الخليفة والقائد والرئيس والملك في تحمل المسؤولية، ولهذا الخلافة والقيادة والرئاسة والملكية لا تُرسم ولا تشاهد ولكنها تلاحظ ولها قوانين ونظم. إذن المكانة هي المنزلة التي تشغل حيزا، فمكان المنزل من الحديقة قد يعطيه مكانة رائعة لدى المشاهدين والملاحظين، بمعنى يشغل حيزا من مجال تفكيرهم، ويجعل الانسراح في صدورهم، ويخرج الكلمات من أفواههم، ولذلك قد لا يكون الفرق بين المكانة والمكان حيث أن جمع مكانة مكانات وعندما يتمكن الشيء من مكانه فهو مكين.

الفراغ المكاني:

641 الأنعام، 135.

الفراغ وجود قوّة جذب، ومثير يحفز المتحرك على الحركة والإقدام وهو مكان الاستقرار للأجسام المشاهدة والملاحظة، فلو لم يكن الفراغ سابق على الأجسام، ما كانت. فالأرض افتراضاً، لو أخرجت من مكانها الذي تشغله آلا يكون مكانها مصدر جذب لأجسام أخرى تشغله؟ أو لو كان مكان الأرض مشغولاً بجسم آخر، فهل يمكن أن تكون الأرض؟ فلو دخلت إلى الفصل الدراسي ووجدت جميع المقاعد مشغولة بالجلوس فهل يمكنك الجلوس على مقعد أم تكون واقفاً إلى حين خروج أحد الطلبة من الفصل؟، وبعد خروج أحد الطلبة من الفصل آلا تحس بأن المقعد بالنسبة لك مصدر جذب للجلوس عندما يتوفر لك الفضاء المكاني أو الفراغ المناسب؟

المكان هو حيز للامتداد والحركة المتناهية، وهو المجال المتكون من تفاعل الحركة مع السكون كتفاعل البلورات في الماء وتفاعل الأكسجين في الهواء، ولهذا طبيعياً يكون المكان سابق على المكين فيه، أو المتمكن منه. ولو لم يكن المكان قابل للانشغال أمام القوّة المتحركة تجاهه، ما كانت الحركة. وتحدث الإزاحة للأجسام عندما تختلف القوّة الضاغطة في اتجاهين مختلفين، حيث يحدث الامتداد في اتجاه الحركة الأضعف.

ونتيجة تداخل الأجسام مع الفراغات أو التصاقها في نسيج تداخل المشاهد مع الملاحظ يكون المجال الحركي أكبر للأجسام الأكثر صلابة والأكثر قوّة. وإلا هل يُعتقد أن تكون الحركة لو لم تكن الفراغات في نسيج والتصاق مع الأجسام؟ فهل يمكن أن نمشي على أقدامنا لو خليت الدنيا من الفراغات غير المشاهدة؟ وهل يمكن أن تطير الطائرة لو كانت السماء عبارة عن أجسام متصلة؟ وهل يمكن أن تكون للمدفع فوهة لو لم يكن للفراغ وجود؟

وإلى جانب ذلك لا يمكن أن تكون الحركة الذاتية لو لم تكن هناك قوّة حتى وإن توفر الفراغ المنسوج، فما معني العاجز عن الحركة؟ معناه فاقد القوّة الدافعة للحركة والامتداد. ولماذا البشر يمشون ويقفزون ويجرون؟ لأنهم ذو قوّة حركية في مجالات نسيج الأجسام مع الفراغات التي تسمح لهم بالحركة، وهي مثل المجالات التي تسمح للمقذوف من إصابة الهدف والطائرة من الطيران في الهواء. ولهذا تشاهد الطائرة متحركة في الجو ولا يشاهد ممرها أو طريقها الذي قد تتجمع فيه قطرات الماء مؤقتا وتتلاشى، فالطريق الذي نُسج بالأجسام الدقيقة والفراغات المتداخلة هو أضعف من أن يكون عائقا (مانعا) في طريقها، ولهذا كلما زادت كثافة الأجسام وقلت الفراغات كلما قلت الحركة، وكلما زادت الفراغات زادت الحركة.

وتتساوى الأجسام في الحركة عندما يكون الفراغ التام وتنعدم الجاذبية، فالسرعة والحركة والحجم تتأثر بالجاذبية، والتي عندما تنعدم تتساوى الأجسام في حركتها، ولهذا زيادة الوزن هي عبارة عن زيادة قوّة اجتذاب وبالتالي عندما تنعدم الجاذبية أو أن يكون الجسم في فراغ تام فإن حركة الأجسام تتساوى.

وقد يتساءل البعض: هل للفراغ مكان، أم أن الفراغ مكانا في حد ذاته؟ فإذا كان مكونا طبيعيا فلا بدّ وأن يكون له مكان، وإذا كان مكونا ميتافيزيقيا فهو المجرد من المكان، وبالتالي مجردا من المشاهدة. ولكن بما أننا نتكلم عن فراغ فهذا يعني إننا نتكلم عن موجود، وبما أنّه موجود بيننا، إذن بالضرورة يشغل حيزا، وبما أنّه فراغ، إذن هو المحصور بين أجسام قوية التماسك، ولهذا من المسلمات أن يكون له محيط وله مساحة يشغلها. ومع أنّه يشغل

مساحة وهو فراغ، إذن من المسلم به أيضا أن يكون معرضا لأن يملئ بغيره من الأجسام كلما توفرت لها شروط ملئه. وعليه يكون الفراغ مكانا له مكان، وهو في حالة حركة. والفراغ مكان ضعيف أمام قوة الامتداد.

يقع الفراغ بين المشاهد والمجرد والمحسوس، فيكون في حالة مشاهدة عندما يكون خاليا من جسم يشاهد، ومحسورا بين محيط يشاهد، كفراغ خزان المياه من الماء. ويكون محسوسا عندما لا يحصره مشاهد كالفراغ في الهواء الذي يسمح بالحركة لكل متحرك قادرا على الحركة. ويكون مجردا عندما يكون خاليا من معطيات الحياة فيه وعندها تتساوى فيه سرعة الأجسام بغض النظر عن قوتها، وهكذا عندما يكون مفهوما مجردا ليس إلا.

الفرق بين الفراغ والخلاء:

الفراغ التام هو المتخلص من الأجسام، ومن السوائل والغازات، وهو غير صالح للحياة الطبيعية لمعظم الكائنات. أما الخلاء هو مكان قد يكون صالحا للحياة الطبيعية عندما يكون على كوكب صالح للحياة، وقد لا يكون عندما يكون على كوكب غير صالح للحياة الطبيعية. والفراغ لا يشاهد، أما الخلاء فقد يشاهد أو يحس به. في الفراغ التام تتساوى سرعة الأجسام، أما في الخلاء فلا تتساوى. وتختلف الحركة هي الأخرى في الفراغ عنها في الخلاء، الحركة في الخلاء طبيعية، أما الحركة في الفراغ غير طبيعية، تطير الفراشة بين الحين والآخر في الخلاء، ولا يمكنها أن تطير في الفراغ التام، وذلك لعدم توفر اشتراطات الطيران بالنسبة لها، وهي عدم توفر هواء للحياة ولتبسط الفراشة عليه جناحيها لتتحرك، إلى جانب ذلك عدم وجود مكان للحياة في الفراغ التام. ولهذا الفراغ غير التام

ميسر للحركة، أما الفراغ التام فمعسر لها. وبناء على ذلك تكون الحركة في الأرض (في داخلها كجسم) أصعب من الحركة في الماء، وذلك لقلة الفراغات بين مكوناتها عن الفراغات التي تتخلل الماء، فشدة تماسك مكونات الأرض أكثر من شدة تماسك مكونات الماء، وهكذا تكون الحركة في الماء أصعب من الحركة في الهواء، وذلك نتيجة وجود فراغات أكبر في الهواء من الفراغات الموجودة في الماء⁶⁴². وعليه تزداد سرعة المتحرك كلما زادت قوّته، وكلما كبرت مساحات الفراغات المتحرك فيها.

المكان بين المشاهد والملاحظ:

هناك مكان يلاحظ أولاً ويشاهد ثانياً، وهناك مكان يشاهد أولاً ويلاحظ ثانياً، فالمكان الملاحظ أولاً والمشاهد ثانياً، هو الذي لا يعتمد على غيره من المخلوقات في الوجود والحركة، كمكان الطائر في الهواء، ومكان الشجرة وخزانات المياه المرتفعة عن الأرض.

والمكان الذي يشاهد أولاً ويلاحظ ثانياً، هو الذي يشغل حيزاً قبل ملئه بجسم، كالبالون والقوارير والخزانات، ولهذا، فلشجرة النخيل كغيرها من الأشجار مكان فوق الأرض وهي المسافة الخارجة عنها (عن الأرض) والذي لا يشاهد بدونها، حيث أنها إذا سقطت، سقطت المشاهدة عن المكان الذي كان يحتويها، وهذا المكان هو المكان الملاحظ أولاً. أمّا المكان المشاهد أولاً فهو الخزان الذي صنع في مكان ملاحظ. ولذلك تشاهد الأرض ولا يشاهد مكانها، وتشاهد النخلة ولا يشاهد مكانها المشار إليه (مكانها من الجذر إلى الجذع إلى الأغصان والأوراق والثمار) فلو كان مكان النخلة سطح

⁶⁴² أرسطوطاليس، الطبيعة. "ترجمة إسحاق بن حنين، تحقيق عبد الرحمن بدوي،

القاهرة، الجزء الأول، الدار العربية للطباعة والنشر، 1964م، ص 372.

الأرض فقط، ما كان للنخلة ظل عليها (على الأرض)، ولهذا مكان النخلة يختلف عن مكان النبع، فمكان النخلة من سطح الأرض حيث الجذر إلى أعلى من سطحها، في حين مكان النبع من قاع الأرض إلى سطحها. والأماكن التي تشاهد أولاً، هي كالمعدة لتجميع الطعام، والجهاز التنفسي لاستخلاص الأكسجين من الهواء الجوي، أو المسكن للساكين والفصل للدارسين وغير ذلك كثير.

لكل مكان أبعاد وأحجام يمكن قياسها عند الثبات ويمكن مشاهدتها وملاحظتها أثناء الحركة، سواء بالعين المجردة أو بوسائل الاختراع العلمي، مثل حركة المسير والقفز عند البشر وحركة الفراشة وحركة السيارة وحركة الطائرة وحركة المقذوف الصاروخي، وكل حركة متناهية وإن اختلفت المسافات المقطوعة والسرعة. فمكان الأرض متناه بجم الأرض وحركتها متناهية بنهاية فلكها، وسرعتها تقاس بالزمن الذي تقطع فيه المسافة الفلكية، وما اختلف سرعة الكواكب في قطع المسافات المختلفة وهي تدور في فلكها إلا دليلاً على اختلاف المقياس اليومي على كل كوكب من الكواكب والنجوم واختلاف المسافة الفلكية بين الكواكب والنجوم. فإذا كان اليوم هو نتيجة دوران الأرض حول نفسها، فإن العام هو نتيجة دوران الأرض حول الشمس مما جعل العام بالنسبة للأرض هو 365 يوم تقريباً، والعام بالنسبة لكوكب الزهراء 224.7 يوم، والعام بالنسبة لعطارد 88 يوم تقريباً وهكذا بقية الكواكب في حالة اختلاف نتيجة اختلاف السرعة والمجال الحركي لكل كوكب، وصدق الله العظيم في قوله تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} 643.

643 الحج، 47.

ومع أنّ الكواكب يمكن مشاهدتها وهي في حالة حركة إلا أنّها من غير الممكن مشاهدة أماكنها وأماكن حركتها التي يمكن ملاحظتها. وبما أنّ لكل كوكب بداية ونهاية ولكل جسم بداية ونهاية، فإنه من الممكن إذن قياس ومعرفة مساحة كل جسم أو حجمه ومحيطه أو أبعاده.

وأتساءل: هل الطائر وهو في حالة طيرانه يشغل حيزا مكانيا؟ نعم. لو لم يكن هناك مكانا للطيران ما طار طائر وارتفع. ولو لم يكن هناك نسيج من الفراغ والخلاء والامتلاء ما تيسرت الحركة، وما شغل الطائر أثناء طيرانه حيزا مكانيا وهو في حالة حركة وامتداد. والطائر لا يشغل إلا حيز جسمه فقط، ولهذا أثناء الحركة والطيران يشغل بما يساوي حجمه آلاف الأماكن كلما امتد من مكان لآخر. وهكذا الريشة المتطايرة في الهواء تشغل حيزا مكانيا.

المكان قد يكون مشاهدا وملاحظا، وقد يكون ملاحظا فقط عندما يكون مجردا، فالأماكن المشاهدة وضّحت كثيرا، أما الأماكن المجردة فقد تحتاج لتوضيح، فإذا تساءل أحد: هل خيالنا تشغل حيزا أم أنّها لا تشغل حيزا؟ في اعتقادنا بكل وضوح تكون الإجابة بنعم، إنّها تشغل حيزا من تفكيرنا ومن السعة الاستيعابية لمداركنا عندما تنطلق من المشاهد إلى المجرد، أو عندما تنتقل من المجرد إلى المشاهد. فعندما ننظر إلى القمر كمشاهد، فقد نتساءل: عما هو المبدع الذي خلقها؟ وعندما نعرف الإجابة بوضوح يتأكد لنا إنّ الذي خلقها الله الذي لا يشاهد. وعندما نفكر في قانون الجاذبية كمجرد، نعرف لماذا سقطت التفاحة كمشاهد من الشجرة إلى الأرض، ممّا يجعلنا تنتقل من المجرد إلى المشاهد.

وكما سبق وإن قلنا ليس كل مكان يشاهد، كذلك يمكن القول ليس كل شيء يشاهد، فالعين كمكان للنظر تشاهد والنظر كشيء لا يشاهد، وهكذا الأذن كمكان للسمع الذي لا يشاهد واللسان بالنسبة للذوق، والجلد بالنسبة للمس، والأنف بالنسبة للشم. ولهذا أماكن الإدراك تشاهد، والأشياء ذات العلاقة تلاحظ.

وهناك أماكن لا تشاهد وأجسام لا تشاهد مع أنّها ذات علاقة واحدة لوظيفة واحدة، كالعقل بالنسبة للإدراك والتمييز، الذي هو مكان لا يشاهد، والإدراك الذي هو الآخر لا يشاهد، ولكن يتم التعرف على كل منهما بالملاحظة.

مكان الموضوع:

لا تتم الحركة الفكرية إلا بتوفر مكان مناسب لها، وفراغ يسمح للمعلومات أن تتمكن منه لتحل محلها بين معلومات أخرى سواء كانت سابقة أو ستكون لاحقاً، وإذا لم يتوفر الفراغ كمكان للمعلومة الجديدة لا يمكن لها أن تُفهم أو تُستوعب من قبل الذي تُقال له، وبالتالي لا يتم استقبالها من المرسل، وتمتد المعلومة من عقل إلى عقلٍ كلما هياً لها المستقبل المكان المناسب لاستقرارها، وتبقى خارجه إلى أن يتهيأ لاستقبالها، ولا يتهيأ لها إلا إذا كان غير مشغول بغيرها، ولهذا يملُّ الطلبة من تلقي المعلومات كلما انشغلوا بغيرها سواء وهم في حالة تذكّر أو هم في حالة تفكير، ومتى تخلصوا من الانشغال كان الفراغ وتمكنوا من الفهم.

وبما أنّنا حاولنا الإجابة على المكان وتحديدته بشكل عام، فإنّه من المفيد أن نحدد الموضوع وذلك من خلال تحديد مكانه وعناصره المتأثرة به سلباً أو إيجاباً، والمتغيرات التي أثرت على ظهوره أو كموّنه،

والأسباب التي كانت وراءه، والعلل التي كونت الأسباب. وبما أن الموضوع جزء من المعرفة وللمعرفة أماكن منها ما يشاهد على الأرض كالزخرفة والآثار والنقوش والصحف والمخطوطات ومنها ما يلاحظ بالعقل وبما تدركه الحواس الخمس. وكما إن المكان في حالة حركة كذلك المعلومات في حالة حركة، فهي تتحرك بين البشر وتُحرك من قبلهم من عقل لآخر، ومن مجتمع لآخر وهي في حالة تبادل وتغير وتطور. فعند دراسة أي ظاهرة أو موضوع علميا لابد من تحديد مكانه وزمانه الذي تميز به، وتحديد المجتمع الذي تأثر به أو عانى من جرائه المتاعب والمشاكل، وذلك بدراسة من كانوا على علاقة مباشرة أو شبه مباشرة بظهوره. ولا يُفضل التمثيل العيني في دراسة الظواهر والمواضيع التي تهم المجتمع بأسره، لأن العينات لا يمكن أن تمثل المجتمع لا أحسن تمثيل ولا أسوأ تمثيل، ولكنها تمثل نفسها فقط، ولا تفيد إلا لإعطاء مؤشرات Indicators عن المجتمع وظواهره ومشاكله.

وكذلك تحديد مكان الدراسة أو البحث يستوجب من الباحث أن يحدد أولاً: موضوع البحث. وثانياً: تحديد مجتمع البحث أو الدراسة، فإذا كان موضوع البحث هو الانحراف، ونوعه السرقة بالإكراه وفقاً للحالات الموثقة بسجلات الشرطة والنيابة، وإذا قَصَرَ الباحث مجتمع بحثه على الحالات التي أصدرت ضدها أحكام، فبعد أن يطلع الباحث على السجلات قد يلتجئ إلى تصنيفها وفقاً لمكان الميلاد أو الجنسية أو الدين، وإذا استبعد أو استثني الأجانب من الدراسة، ثم صنف المحليين إلى أماكن ميلادهم، ثم حدد مدينة بعينها، فيكون تحديد المدينة كمكان للبحث والدراسة مترتباً على تحديد الموضوع وتحديد مجتمع الدراسة. ولهذا العلاقة ثابتة بين مجتمع

الدراسة والمكان المدروس. وبناء على ذلك نلاحظ إنّ المكان يستوعب الأجسام كما يستوعب المواضيع.

والمكان دائما سابق على المتمكن فيه أو الممكن منه سواء كان جسما أو موضوعا، فالأرض سابقة على من سكن فيها، ومكانها سابق عليها، فهي مثل السفينة تزيح وزنها من الماء لتحل محله، فالبحار والمحيطات أولا، ومكان السفينة ثانيا، والسفينة ثالثا. هكذا كانت الأرض ثالثا، ومكانها ثانيا، والوجود أولا. فبعد أن كان الوجود، كانت الأرض التي أزاحت وزنها منه كما أزاحت السفينة وزنها من البحار والمحيطات وحلت محلها في حركة ذاتية تتفق تماما مع قانون الطفو، فهكذا كانت الأرض، وهكذا تكون المواضيع.

ومع أنّ الأماكن تشغلها الأجسام كما يشغلها الفراغ إلا أنّ الأجسام دائما تشغلها المواضيع، وذلك لأن المواضيع دائما مجردة ليست لها شكّل ولا صورة، فعلم الفضاء مجرد، والحرية مجردة، والديمقراطية كذلك، وكل موضوع هو مجرد في أساسه، وما التطبيقات إلا وسائل لنقل الموضوع من المجرد إلى المشاهد والملاحظ أو المحسوس، وبما أن الوسائل المستخدمة في ذلك هي بشر أو من صنع البشر، والبشر لهم مكان فينبغي أن يحدد البشر المستهدفين بالبحث والدراسة بحدود مكانهم الذي جمعهم.

وتتداخل الأماكن مع بعضها البعض وهي في حالة حركة كما تتداخل أجهزة الإنسان في بدنه، فلكل إنسان مكانه سواء أثناء الحركة الذاتية أو الحركة المدفوعة أو أثناء السكون، وعندما يركب الناس السفينة يصبح الناس بأماكنهم في مكان وهي السفينة التي هي الأخرى في مكانها، ولهذا إذا كان الرحم هو مكان الجنين فتكون البطن هي مكان الرحم، ويكون البدن مكانها جميعا. وهكذا

تتداخل المواضيع مع بعضها البعض في المكان الواحد من خلال
تداخل العلاقات بين عناصره سواء كانوا مؤثرين أو متأثرين.

والخليفة الكريم هو من لا ينتظر طلب محتاج إذا علم بحاجته،
وإذا لم يعلم بوجود بعد علم ومعرفة، ولذا فالفرق كبير ودون مقارنة
فقط للتبيان، الفرق كبير بين الكريم والجواد المطلق وبين الكريم
والجواد بالإضافة، الأول جلّ جلاله في الحالتين هو عليم، ولذلك
فهو يعلم من هو في حاجة ويكرمه بمكرمة، ومن هو مؤمن به
ويتوجه إليه بالطلب والدعاء ويستجيب له بالجود الواسع. وعليه
الخَيْرُ الكريم يعطي خلقه دون طلب سواء أكانوا بشرا أم حيوانا أم
طيورا أم سمكا أم نباتا وكل من هو في حاجة للحياة التي يعلمها
الكريم جلّ جلاله.

فللخليفة أن يكون معرضا عن تصرفات اللئام متصرفا تصرف
الكرام لتظهر مكرماته فيعمل المستخلفون بعمله فيكون طبقا لما قال
الشاعر:

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرّما

والخليفة الذي يريد الله أن يكون خليفة له في الأرض هو فاعل
الخيرات وهو الكريم الذي يجود على من هم في حاجة كلما علم
بحاجتهم دون أن ينتظر طلب منهم ودون أن ينتظر وجاهة أو
مقابلا مهما كان، إنّه كريم لوجهه الكريم عزّ وجلّ. قال تعالى:
{قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَلِيمٌ} 644. في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

644 البقرة 263.

الأولى - قوله تعالى: (قول معروف) أي قول معروف أولى، وهو القول الذي أعتاده الناس وتعارفوا عليه بأنه مملوء بالأفعال الحسان المرغوبة من قبلهم وهي في درجات التفضيل القيمي عندهم مما جعلها محبة إليهم ويرغبونها أن تسود وهم يتوادون بها في كل خير.

والقول المعروف هو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند الله خير من صدقة هي في ظاهرها صدقة وفي باطنها لا شيء، لان ذكر القول المعروف فيه أجر وهذه لا أجر فيها. قال صلى الله عليه وسلم: "الكلمة الطيبة صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق"645. فيتلقى السائل بالبشر والترحيب، ويقابله بالطلاقة والتقريب؛ ليكون مشكوراً إن أعطى ومعدوراً إن منع. وقد حكى أن رجلاً قصد بعض الوزراء في حاجة لم يقضها وظهر له منه ضجر فقال شاعراً:

لا تدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك أن ترى مسئولاً

لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولاً

تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلاً

واعلم بأنك عن قليل صائر خيرا فكن خيرا يروق جميلاً

645 صحيح مسلم، ج 13، ص 69

النبي

ذو الكفل من السنّة

كما سبق أن بيّنا أنّ ذي الكفل هو نبيا من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلّاة والسّلام، ويقال أنّ ذو الكفل هو ابن أيّوب عليه السّلام، واسمه الأصلي بشر، وقد بعثه الله بعد النبي أيّوب وسماه ذو الكفل، لأنّه قام بتكفّل بعض الطاعات، وهو عند الجمهور نبي مرسل وكان من شأنه أنّه جابه الظلم وتصدّى لأولئك الفجرة الذين طاردوا عدداً كبيراً من أنبياء بني إسرائيل وتعقبوهم ليقتلوهم؛ فكفّلهم ذو الكفل وآواهم غير مبالٍ بعسف الظّلمين وكيدهم، وقيل أنّ ذا الكفل اسمه والأسماء لا تعلق 646.

وقال ابن عبّاس: كانّ ذو الكفل "في بني إسرائيل نبي، وكانّ مع ذلك ملكاً" 647.

ويقول الشعراوي: الكفّل هو: "الحظ والنصيب، وذو الكفل هو: ابن أيّوب عليه السّلام، ويظهر أنّ أولاد أيّوب كانوا كثيرين، إنّما اختص الله ذا الكفل بالرسالة، وكان هذا حظّه دون غيره من أبناء أيّوب؛ ولذلك سُمّي ذو الكفل" 648.

أمّا ابن كثير فقال: "إنّ النبي ذو الكفل هو من سلالة إسحاق عليهما الصلّاة والسّلام، وزعم قوم أنّه ابن أيّوب. ثم استظهر ابن

⁶⁴⁶ التفسير الوسيط، مجمع البحوث، 8، ص 511.

⁶⁴⁷ تفسير السمعاني، 3، ص 401.

⁶⁴⁸ تفسير الشعراوي، 15، ص 619.

كثير أنّه نبي. وأيوب، وذو الكفل أرسلوا إلى أهل دمشق في الشّام 649.

كما وقع خلاف في "ذو الكفل" فقيل: إنّما هو رجل صالح، وتوقف في ذلك ابن جرير، وظاهر سياقه مع الأنبياء أنّه منهم 650

ولأنّ ذا الكفل اسم ومعنى فهو: نبي من بني إسرائيل بعثه الله تعالى إلى ملك يقال له كنعان فدعاه إلى الإيمان وكفل له الجنّة وكتب له معه كتاب ذكر حقّ على الله، وآمن الملك وأوصى بأنّ يدرج ذلك الكتاب معه في طي أكفانه، ففعلوا ودفنوا الملك؛ فرد الكتاب إلى ذي الكفل، وقيل له: إنّ الله يُقرئك السّلام وقد وفي للملك ما كتب في ذمتك 651.

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} 652 جاء في تفسير مقاتل بن سليمان "هم من بني إسرائيل أُلُوفٌ (ثمانية آلاف) حَذَرَ الْمَوْتِ؛ يعني حذر القتل، وذلك أنّ نبيهم حزقيل بن دوم، وهو ذو الكفل ابن دوم، ندهم إلى قتال عدوهم، فأبوا عليه جبنوا عن عدوهم واعتلوا؛ فقالوا: إنّ الأرض التي نبعث إليها لنقاتل عدونا هي أرض يكون فيها الطّاعون؛ فأرسل الله - عزّ وجلّ - عليهم الموت فلَمَّا رأوا أنّ الموت كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت؛ فَلَمَّا رَأَى

⁶⁴⁹ التفسير الوسيط، مجمع البحوث، 8، ص 511. طال لنظرية الخلط بين دين

الإسلام وغيره من الأديان، ص 66.

⁶⁵⁰ منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، ص 694.

⁶⁵¹ درج الدرر في تفسير الآي والسور، 3، ص 123.

⁶⁵² البقرة 243.

ذَلِكَ حَزْقِيلَ قَالَ: "اللَّهُمَّ رَبَّ يَعْقُوبَ وَإِلَهَ مُوسَى قَدْ تَرَى مَعْصِيَةَ عِبَادِكَ، فَأَرْهَمَ آيَةَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا فِرَارًا مِنْكَ. فَأَمَّهُلَهُمُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهِيَ قَرْيَةٌ تَسْمَى دَامِرْدَانَ فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُمْ: فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُؤْتُوا عِبْرَةً لَهُمْ فَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَتْ دَوَابُهُمْ كَمَوْتِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ النَّاسُ فَعَجَزُوا عَنْ دَفْنِهِمْ حَتَّى حَضَرُوا عَلَيْهِمْ وَأَرْوَحَتْ أَجْسَادُهُمْ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَحْيَاهُمْ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ وَبَهَنَ نَتْنٌ شَدِيدٌ ثُمَّ إِنَّ حَزْقِيلَ بَكَى إِلَى رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَقَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهَ مُوسَى لَا تَكُنْ عَلَيَّ عِبَادَكَ الظَّلْمَةَ كَأَنْفُسِهِمْ، وَادْكُرْ فِيهِمْ مِيثَاقَ الْأَوَّلِينَ فَسَمِعَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوهُمْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَامُوا كَقِيَامِ رَجُلٍ وَاحِدٍ كَانَ وَسَنَانًا، فَاسْتَيْقِظَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ" 653.

ذو الكفل وإيمان الملك:

كان ذو الكفل يعبد الله عز وجل سرا منه، ويكتفم إيمانه، وهو في مملكته؛ فقيل للملك إن في مملكتك رجلا يفسد عليك أمرك، ويدعو الناس إلى غير عبادتك؛ فبعث إليه ليقته، فأتى به، فلما دخل عليه قال له الملك: ما هذا الذي بلغني عنك أنك تعبد غيري؟ فقال له ذو الكفل: اسمع مني ولا تعجل، وتفهم ولا تغضب، فإن الغضب عدو النفس، يحول بينها وبين الحق، ويدعوها إلى هواها، وينبغي لمن قدر أن لا يغضب فإنه قادر على ما يريد، قال: تكلم، قال: فبدأ ذو الكفل فافتتح الكلام بذكر الله عز وجل والحمد لله ثم قال: تزعم أنك إله، فإنه من تملك، أو إله جميع الخلق؟

653 تفسير مقاتل بن سليمان، 1، ص 202.

فإن كنت إله من تملك، فإنّ لك شريكا فيما لا تملك؛ وإن كنت إله الخلق فمن إلهك؟ فقال له: ويحك! فمن إلهي؟ قال: إله السماء والأرض وهو خالقهما وهذه الشمس والقمر والنجوم، فاتق الله واحذر عقوبته، فإن أنت عبدته ووحدته رجوت لك ثوابه، والخلود في جواره؛ قال له الملك: اختر ثم أخبرني، من عبد إلهك ما جزاؤه؟ قال: الجنّة إذا مات، قال: فما الجنّة؟ قال: دار خلقها الله بيده فجعلها مسكنا لأوليائه يبعثهم يوم القيامة شبابا مردا أبناء ثلاث وثلاثين سنة، فيدخلهم الجنّة في نعيم وخلود، شبابا لا يهرمون، مقيمين لا يظعنون، أحياء لا يموتون، ونعيم وسرور وبهجة؛ قال: فما جزاء من لم يعبده وعصاه؟ قال: النار، مقرونين مع الشياطين، مغلغلين بالأصفاد، لا يموتون أبدا، في عذاب مقيم، وهوان طويل، تضربهم الزبانية بمقامع الحديد، طعامهم الرّقوم والضّريع، وشراهم الحميم؛ قال: فرق الملك وبكى لما كان قد سبق له فقال: إن أنا آمنت بالله فمالي؟ قال: الجنّة، قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك الكفيل على الله عزّ وجلّ، وأكتب لك على الله كتابا، فإذا أتته تقاضيته ما في كتابك وفي لك، فإنّه قادر ماهر، يوفيك ويزيدك. ففكر الملك في ذلك، وأراد الله به الخير فقال له: اكتب لي على الله كتابا؛ فكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب كتبه فلان الكفيل على الله لكنعان الملك، ثقةً منه بالله ألا يضيع أجر من أحسن عملا، ولكنعان على الله بكفالة فلان إن تاب ورجع، وعبد الله أن يدخله الجنّة، ويثويه منها حيث يشاء، وإنّ له على الله ما لأوليائه، وأن يجيره من عذابه، فإنّه رحيم بالمؤمنين، واسع الرحمة، سبقت رحمته غضبه"654.

654 مختصر تاريخ دمشق، 8، ص 232.

ثم ختم على الكتاب ودفعه إليه، ثم قال له الملك: أرشدني كيف أصنع؟ قال: قم فاغتسل والبس ثيابا جددا، ففعل؛ ثم أمره أن يتشهد بشهادة الحق وأن يتبرأ من الشرك، ففعل؛ ثم قال: كيف أعبد ربِّي؟ فعلمه الشرائع والصلاة؛ ثم قال له: يا ذا الكفل، استر هذا الأمر ولا تظهره حتى الحق بالنسك. قال: فخلع الملك وخرج سرا فالحق بالنسك؛ فجعل يسبح في الأرض. وفقده أهل مملكته وطلبوه؛ فلما لم يقدروا عليه قال: اطلبوا ذا الكفل فإنه هو الذي غرر إلهنا؛ قال: فذهب قوم في طلب الملك، وتوارى ذو الكفل؛ فقدروا على الملك على مسيرة شهر من بلادهم، فلما نظروا إليه قائما يصلي خروا له سجدا، فانصرف إليهم فقال: اسجدوا لله عز وجل ولا تسجدوا لأحد من الخلق، فإني آمنت برب السماوات والأرض والشمس والقمر. فوعظهم وخوفهم. قال: فعرض له وجع وحضرة الموت فقال لأصحابه: لا تبرحوا فإن هذا آخر عهدي بالدينا، فإذا مت فادفوني؛ وأخرج كتابه فقرأ عليهم حتى حفظوه وعلموا ما فيه، وقال لهم: هذا كتاب كتب لي على ربِّي أستوفي منه ما فيه، فادفونوا هذا الكتاب معي. قال: فمات، فجهزوه ووضعوا الكتاب على صدره ودفنوه؛ فبعث الله عز وجل ملكا فجاء به إلى ذي الكفل فقال: يا ذا الكفل، إن ربك قد وفي لكنعان بكفالتك، وهذا الكتاب الذي كتبه له، وإن الله يقول: إني هكذا أفعل بأهل طاعتي. فلما أن جاءه الملك بالكتاب ظهر للناس، أخذوه فقالوا: أنت غررت ملكنا وخذعتنا؛ فقال لهم: لم أغره ولم أخدعه، ولكن دعوته إلى الله وتكفلت له بالجنة، وقد مات ملككم اليوم في ساعة كذا وكذا، ودفنه أصحابكم، وهذا الكتاب الذي كنت كتبه له على الله الوفاء، وقد أوفاه الله حقه، وهذا الكتاب تصديق لما أقول لكم، فانتظروا حتى يرجع أصحابكم؛ فحسبوه حتى قدم أصحابهم،

فسألوهم فقصوا عليهم القصّة؛ فقالوا لهم: تعرفون الكتاب الذي
دفنتموه معه؟ قالوا: نعم، فأخرجوا الكتاب فقرأوه،

فقالوا: هذا الكتاب الذي كان معه، ودفنناه في يوم كذا وكذا،
فنظروا وحسبوا فإذا ذو الكفل كان قد قرأ عليهم الكتاب وأعلمهم
بموت الملك في اليوم الذي مات فيه؛ فأمنوا به واتبعوه؛ فبلغ من آمن
به مئة ألف وأربعة وعشرين ألفاً؛ وتكفل لهم مثل الذي تكفل
ملكهم على الله؛ فسماه الله ذو الكفل "655".

وهنا قيل: "كان ذو الكفل يكتب الكفالات على الله بالوفاء
لمن آمن به" 656.

حديث الشيطان مع ذا الكفل:

قال مجاهد: لما كبر اليسع (عليه السلام) قال: لو أنّي استخلفت
رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى انظر كيف يعمل،
قال: فجمع الناس فقال: من يتقبّل لي بثلاث استخلفه:

يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، فقام رجل تزدرية العين
فقال: أنا فردّه ذلك اليوم. وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس،
وقام ذلك الرجل فقال: أنا فاستخلفه، قال: فجعل إبليس يقول
للشياطين: عليكم بفلان فأعياهم فقال: دعوني وإياه فأتاه في صورة
شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة- وكان لا ينام بالليل والنهار
إلا تلك النومة- فدقّ الباب فقال: من هذا؟ قال:

شيخ فقير كبير مظلوم، فقام ففتح الباب فجعل يقصّ عليه
فقال: إنّ بيني وبين قومي خصومة وإنّهم ظلموني وفعلوا ما فعلوا؛

⁶⁵⁵ مختصر تاريخ دمشق، 8، ص 232.

⁶⁵⁶ مختصر تاريخ دمشق، 8، ص 236.

فجعل يطوّل عليه حتى حضر الرّواح وذهبت القائلة، قال: إذا رحّت
فإنّني آخذ لك بحقّك، فانطلق وراح، فكان في مجلسه فجعل ينظر
هل يرى الشّيخ، فلم يره فقام يتبعه، فلمّا كان الغد جعل يقضي بين
النّاس وينتظره فلا يراه، فلمّا رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه
فدقّ الباب فقال: من هذا؟ قال: الشّيخ المظلوم، ففتح له فقال: ألم
أقل إذا قعدت فأنتي قال: إنهم أحبّ قوم، إذا عرفوا أنّك قاعد
قالوا: نعطيك حقّك، وإذا قمت جحدوني، قال: فانطلق فإذا رحّت
فأنتي، ففاتته القائلة فراح فجعل ينظر ولا يراه وشقّ عليه النعاس،
فقال لبعض أهله: لا تدعنّ أحدا يقربّ هذا الباب حتى أنام فإنّي
قد شقّ عليّ النّوم.

فلمّا كان تلك السّاعة جاء فلم يأذن له الرّجل فلمّا أعياه نظر
فرأى كوة في البيت فتسوّر منها؛ فإذا هو في البيت، وإذا هو يدقّ
الباب من الدّاخل؛ فاستيقظ الرّجل فقال: يا فلان ألم أمرك؟

فقال: أمّا من قبلي فلم تؤت والله، فانظر من أين أتيت؟ فقام
إلى الباب فهو مغلق كما أغلقه وإذا الرّجل معه في البيت فقال له:
أتنام والخصوم ببابك؟ فعرفه فقال: أعدوّ الله؟ قال: نعم أعييتني في
كلّ شيء ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله منّي، فسّمّي ذا
الكفل لأنّه تكفل بأمر فوفي به 657.

وقيل: كان ذو الكفل رجلا صالح وقد تكفل بشأن رجل وقع في
بلاء فأنجاه الله على يديه 658.

657 تفسير الرازي. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، 22، ص 177.

658 تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 6، ص 300.

ولاية ذو الكفل:

ذو الكفل نبيا كريما واسع الصدر لا تضيق نفسه إلا من ظلما وممن يكون وعلى من يقع، وهو الذي تولّى تخلص مجموعة كبيرة من أنبياء بني إسرائيل من القتل، وتكفل بكل ما يمكنه من العمل الصالح. وقيل: ذو الكفل؛ "لأنّه تكفل بأمر سبعين نبيا فخلصهم من القتل. وقيل: تكفل بعمل صالح فوقى به". ولهذا كان ولي لمن يقع عليه ظلما، حتى اتصف بالعدل، وهذه القيمة هي التي تأسس ملكه عليها. وهنا؛ فالولاية قيمة حميدة كونها اعتراف بواجب أو حمل مسؤوليّة واجب حمل أعبائها.

ومن ثمّ؛ فالولاية مناصرة للحقّ وأصحابه، وهي قيمة حميدة تتمرّز معاييرها على المودّة والمحبة والإخلاص وإلا ستكون فاقدة لدلالاتها الشرعيّة والقانونيّة، ذلك لأنّ الولاية ذات عُرى لا تنفصم.

وللولاية أنواع منها:

1 . ولاية الأبوة والأمومة للأبناء من أجل موجبات العناية والرعاية والتربيّة الحميدة.

2 . ولاية الأخوة للأخوة بموجبات شرعيّة في حالة فقدان الوالدين أو أحدهما.

3 . ولاية الأقارب شرعا لمن تربطهم بهم علاقات صلة دم، وفقا لِمَا يُقرّه الشَّرْع.

4 . ولاية السُلطان الذي تمّ اختياره إرادة من قبل الذين لهم الحقّ في اختياره، وهذا السُلطان لا طاعة له إلاّ وفقا لِمَا تمّ اختياره من أجله، أمّا إذا خالف ذلك فلا طاعة له فيما يعتقد أنّه وليّا عليه

وهو ليس كذلك بأسباب عدم أهليّته، ممّا يستوجب تغييره شرعا وقانونا أو دستورا.

5. ولاية المهنة والحرفة؛ فالذين ينتمون لمهنة معيّنة أو حرفة من الحرف يكوّنون نقابة مهنيّة أو حرفيّة تتولّى التنسيق بين علاقات أصحاب المهن أو الحرف، وذلك من أجل تطوير المهنة والحرفة وتمثيلها في المحافل التي من خلالها يمكن لها أن تمارس حقوقها المهنية والحرفية أو أن تؤدّي واجباتها المناطة بها، وهكذا يكون أصحاب المهن والحرف مشاركين في حمل المسؤوليات المهنية والحرفيّة.

6. ولاية الحقّ بغض النظر من يكون أصحابه، وهذه ولاية ذو الكفل عليه السّلام.

وعليه: فإنّ الولاية تستوجب حُسن معاملة وإدارة وتنظيم وحُسن علاقات، ولذا فالولاية تقارب وتلاحم عن إرادة بين الذين لهم من العلاقات ما يستوجب ظهور الولاية شكّلا وموضوعا، والولاية النّاجحة هي التي تؤسّس على الاحترام المتبادل والاعتراف المتبادل والتقدير المتبادل مع عدم الإغفال عن أهميّة المشاورة في الأمر الذي يتعلّق أمره بالجميع.

والولي المطلق الله ومن يتّبعه إيمانا وطاعة وهداية يكون ولي بالإضافة متخلّقا بأخلاق هذا الاسم العظيم، فيتداخل المعني الإلهي بوجه الإطلاق مع المعنى الإنساني بوجه الاستحقاق إن أطاع الولي بالإضافة الولي المطلق، ومن هذا التداخل الذي لا يصعب على صاحب الذوق السليم والفكر المستنير أن يعرف الفروق بين المطلق والمضاف.

والولي من العباد: هو المستخلف في الأرض وهو من يحبّ الله عزّ وجلّ ويحبّ أوليائه وينصره وينصر أوليائه ويعادي أعداءه، ويحقّ الحقّ ويعمل على إزهاق الباطل⁶⁵⁹.

إذن الولاية مناصرة والولي هو النصير. وفي القرآن العزيز: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} 660، والولي بالإضافة المطيع، وهو التابع إيماناً لمن أولى أمره إليه.

والولاية هي ما يستوجب الطاعة في غير معصية الله تعالى، والولي بالإطلاق هو الذي يوالي من ينصره، ولا يوجد من يوالي الله مثل الخليفة سيد الخلق صلّى الله عليه وسلّم الذي أوقف حياته لنصرة الحقّ ولنصرة الدين الحنيف، لذا فالله ينصر من ينصره، وإن ظن البعض أنّ الله لن ينصر النبي صلّى الله عليه وسلّم فهذا الظن وهم محض، يقول الله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} 661.

والولي هو المتولي لأوامر الولي المطلق (الله) سبحانه وتعالى وهو الخليفة الذي أخذ على عاتقه حمل الأمانة؛ فيدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر.

ومعلوم أنّ البشر كثيرون ولكن الذي حمل الأمانة وتولّى مشقّتها وأحد وهو الإنسان الذي يتّسم بصفات الإنسان الأمثل أو

⁶⁵⁹ المقصد الأسنى، ج 1، ص 130.

⁶⁶⁰ آل عمران، 68

⁶⁶¹ الحج 15

النموذج الأصوب وهو بهذا المعنى إنسان وأحد فرد في كلّ زمان يصلح الله به فساد المفسدين من جنسه، ويمكن أن يتبعه آخرون على درجات متفاوتة من صلاحه ورغبته في التعمير بشكل إنساني يؤدّي الأمانة التي استخلفه الله عليها، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا} 662 فالأمانة هي مجموع أوامر الله ونواهيه التي لم يقدر على حملها المخلوقات العظيمة من سموات وجبال وأراض؛ فحملها الإنسان وتولّى أمر الإصلاح فيها والإعمار؛ فتولاه الله بالعناية والرعاية والحفظ والنصرة وكان سميعاً قريباً، لأنّه سبحانه الولي النصير، فمن ظلم نفسه بكفره ونفاقه فلن يتولاه الله لأنّه خالف معنى الأمانة، ومن آمن فسيؤيّده الله ويرحمه ويغفر له تقصيره إن قصّر وينصره ويقويه مع كلّ توفيق.

فالله ينصر من ينصره في الدنيا وهذا من المتوقع المشاهد مشاهدة عينية نصرًا ملموساً مادياً، أمّا التصرّ في الآخرة فكيف يكون وما هيأته؟ بالتأكيد سيكون نصرًا مؤزّراً، وهذا في تصورنا سيكون بالمقام المحمود الذي لا ينبغي إلّا لعبد من عباد الله، وبالجنّة التي ترضى من تولّى الله ونصر دينه في الدنيا؛ فيكون المقام المحمود للنبي صاحب المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ورضا الله بحسن ثوابه لمن اتّبع ذلك المنهج وعمل به في إصلاح الأرض محلّ الخلافة رغم الشدائد والمصاعب التي واجهت من أراد أن يتصرّ الله.

ولذا فالولي هو المؤيد والناصر بالحق للحق في الشدائد، وعند تأزم المواقف عندما تبلغ القلوب الحناجر تنتزل أسباب الولي الذي لا تمنعه أسباب، ولا توصل أمام نصره أبواب، وهذه كلمته لمن يواليه يطمئنهم ويثبت قلوبهم: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ} 663 وهذا الارتباط التلازمي بين المولى والنصير يدل على التمكن واكتمال الفعل، وهذا نجده في عموم القرآن ليدل دلالة لا لبس فيها على أن نصر الولي لا انفكاك فيه لأولياء الولي الذين أتبعوه ونصروه، وهذا الوعد هو ما جعل المؤمنين الذين طردوا وشردوا ونهت أموالهم يلوذون بجانب الولي، حتى أن الناس قد جمعوا ليكيدوهم وبهزموهم فما زادهم ذلك إلا ثباتا وإيمانا، قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} 664 وهذا الموقف الثابت لا يفسره إلا الإيمان بقوله تعالى الذي يخاطب به المؤمنين: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} 665 فالتنفي والاستثناء بما وإلا يؤكدان في صرامة أن الله هو الولي الذي ينصر المؤمنين به المنقذين لمنهج المتبعين لنبيه صلى الله عليه وسلم.

فالمنهج الواضح البين الذي لا شك فيه ولا لبس في معانيه هو الذي ارتضاه الله منهجا لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض بعد الزيف الذي لحق بما أرسل به الأنبياء إلى الأمم السابقة، لذا يؤكد الله على هذه الجزئية ويخاطب الأمة جميعها من خلال خطابه للمثل الأعلى والقدوة الحسنة للأمة (النبي صلى الله عليه وسلم) فيقول

663 الأنفال، 40

664 آل عمران 173.

665 البقرة، 107

موجِّها ومؤكِّدا على عدم الانحراف ولو قليلا نحو المناهج السابقة؛
لأنه لا فائدة فيها ولن يتحقَّق من ورائها صلح بين المناهج، ولن
يرضى أصحاب تلك المناهج حتَّى بإتباع مناهجهم، قال تعالى:
{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ
هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} 666.

ولذا فالولاية اتباع من أجل هداية وإصلاح وإعمار وبناء وليس
من أجل فساد وسفك دما بغير حقّ، ولا ولاية لمفسد وضال وظالم
وطاغية؛ فالله الولي ينصر من اتبع المنهج الصحيح الذي أنزله على
الأنبياء الذين اجتمع أمرهم في سيدنا إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام
أبو الأنبياء، لذا ستكون الحجّة الواهية لمن خالف وأفسد أهم
يتبعون ملّة إبراهيم، لكن الله الولي يبطل حجّتهم ويقول: {إِنَّ أَوْلَى
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ} 667 فالذين يتبعون النبي الخاتم هم أولى الناس بإبراهيم
لأنهم يقيمون التوحيد الخالص، وهو أوّل وأهم ركن لوجود الإنسان
على الأرض، وهذا الركن لن يتحقّق بصفاء ونقاء إلّا بإتباع المنهج
الصحيح الذي يتأتّى بالإيمان المطلق بالله وليّا للمؤمنين الذين آمنوا
بالتّبي الخاتم.

ولأنّ الله ولي من والاه ونصير من نصره فهو يبعد الظالمين عن
مدار رحمته لأنهم ظلموا أنفسهم؛ فليس لهم بسبب ظلمهم من وليّ
ولا نصير، لذا يبطل السؤال لماذا لم يجعل الله الناس أمة واحدة؟

666 البقرة 120.

667 آل عمران 68.

وعليه: فالولاية تدبّر لشؤون الرعيّة، والولي هو من يتولّى بالرعيّة شؤون من تولّى عليهم بولايته وفقاً لاختيار أو مبايعة عن إرادة حيث لا ينبغي أن يكون لأيّ ضغط أيّ مبرراً.

ولأجل نجاح الولاية الحقّ يجب على الولي أن يتدبّر شؤون من وُيّى عليهم سياسة واقتصاداً وقيم اجتماعية وفضائل إنسانية خيرة، فليستبع ببصره في ملك الله، ليتبين أن الله الذي تولّى أمر الكون قد جعل كلّ ما فيه بحكمة قال الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَؤُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} 668 يا لها من قدرة تدعو إلى السجود الرّوحي والقلبي والجسدي لمن يتأمل ويستشعر برهبة وعظمة وجلال حكمة الله وتدييره لأمر الكون وما فيه من خلق، فلن تجد العيون نقصاً تلحقه بتدبير الولي القدير الحكيم، ومحتّم عليها أن تعود حسيرة طائعة لربّ العالمين إن كانت لأصحاب قلوب مؤمنة أو تعود صاغرة ذليلة إن كانت لأصحاب القلوب الكافرة.

ومن تتوهم نفسه أنّ العالم ليس له مدبّر يتولّى أمره فلن يعود ذلك عليه إلّا بالألم والتعب البدني والنفسي والحسرة، فولي الكون ومدبّره قال وقوله الحقّ: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} 669 سنري هؤلاء

668 الملك 4.1

669 فصلت 53، 54

المشركين دلائلنا على صدقك، وأنت وعد الله لعباده جميعا، وذلك بأن نطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء. فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها، وعن النظام الشمسي وما فيه، وأن هذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرات صغيرة في الكون العظيم، وأن كل المعلومات المتعارف عليها والاكتشافات ما هي إلا ذرة من علم الله الواسع. { وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } 670. وكذلك سنري هؤلاء المشركين وقائعنا بالبلاد والفتوحات التي تمت على يدي الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه، وعلى يدي خلفائه وأصحابه الكرام { حتى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } 671 وأن كل ما جاء به الرسول الكريم هو الحق. { أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } كفي بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وعلى صدق محمد فيما أخبر به عنه، ألم تكفيهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها سبحانه في هذه السورة وفي كل القرآن، وفيها البيان الكافي لإثبات واحديته، وتنزيهه عن كل نقص! ثم بين الله سبب عنادهم واستكبارهم بعد كل ما تقدّم من حجج وبيّنات فقال تعالى: { أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ } إنهم في شكّ عظيم من البعث والجزاء ولقاء ربهم، ولذلك كفروا، والله تعالى محيطٌ بكلّ صغير وكبير، لا يفوته شيء في هذا الكون الكبير، وإليه مردّ الجميع.

والولي من الناس: هو من ينصر الله وينصر شرعه على الأرض؛ فهو الذي يتولّى بالحقّ من أجل إحقاق الحقّ ولا يظلم أحدا، وإذا حكم بين الناس في أمرٍ عدل.

670 الإسراء، 85

671 فصلت 53.

والولي المطلق ينصر وليه الذي من صفاته موافقة ما أمر به الله، واجتناب ما نهى عنه الله قريب الذات والفعل، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 672. والسؤال الوارد في الآية إمّا أنه كان سؤالاً عن ذات الله تعالى، أو عن صفاته، أو عن أفعاله.

* أمّا السؤال عن الذات: فهو أن يكون السائل ممّن يجوز التشبيه، فيسأل عن القرب والبعد بحسب الذات.

* وأمّا السؤال عن الصّفات: فهو أن يكون السائل سأل عن الله تعالى هل يسمع دعاءنا فيكون السؤال واقعا على كونه تعالى سميعا، أو يكون المقصود من السؤال أنه تعالى كيف أذن في الدعاء، وهل أذن في الدعاء، وهل أذن في أن ندعوه بجميع الأسماء، أو ما أذن إلا بأن ندعوه بأسماء معينة، وهل أذن لنا أن ندعوه كيف شئنا، أو ما أذن بأن ندعوه على وجه معين، كما قال تعالى: {وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الدُّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا} 673.

* وأمّا السؤال عن الأفعال فهو أن يكون السائل سأل الله تعالى أنه إذا سمع دعاءنا فهل يجيبنا إلى مطلوبنا، وهل يفعل ما نسأله عنه فقله سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 674

672 - البقرة 186

673 - الإسراء 110، 111.

674 البقرة 186.

هذا الأمر يحتمل كلّ هذه الوجوه، إلا أنّ حمله على السؤال عن الذات أولى لوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ ظاهر قوله: (عَيِّي) يدلّ على أنّ السؤال وقع عن ذاته لا عن فعله.

والوجه الثاني: أنّ السؤال متى كان مبهما والجواب مفصّلا، دلّ الجواب على أنّ المراد من ذلك المبهم هو ذلك المعين، فلمّا قال في الجواب: (فِيَّيِّ قَرِيبٌ) علمنا أن السؤال كان عن القرب والبعد بحسب الذات 675.

ولأنّّه الولي فهو القريب، أي لو لم يكن قريبا ما كان وليّا، ولهذا دائما من أراد أن يكون وليّا ناجحا فعليه بأن يكون قريبا من الرعيّة أو من هم تحت ولايته.

أمّا الولي المطلق فهو القريب بالمطلق حيث لا حصر ولا عدد لشواهد قرّبه التي منها:

1- علمه قريب: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} 676، أي المختصر المفهوم من الكلام (مَنْكُمْ) من أولئك الذين يظنون أنّهم أقرب إلي المختصر، والأقرب دائما هو الله جلّ جلاله بأمره وبقدرته وبجنده المسحّرون الذين يرونا ولا نحن نراهم، وهو على كلّ شيء قدير، والمراد بالقرب أيضا علمه الكامل بكلّ شيء، وما يلم بالشيء من معاناة ومن حساب وعذاب وثواب، سبحانه أنّه الولي الأقرب، قال تعالى:

675 - تفسير الرازي، ج 3، ص 109

676 - الواقعة 83-85

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُؤْسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} 677.

2- علمه بأمر الساعة: قال تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} 678، لما بين حالهم في الدنيا أنهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم في الآخرة فذكرهم بالقيامة، وذكر ما يكون لهم فيها فقال يسألك الناس عن الساعة أي عن وقت القيامة (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) علمها لا يتبين، ولذا فإنَّ الله أخفاها لحكمة هي امتناع المكلف عن الاجترار وخوفهم منها في كلِّ وقت. ثم قال تعالى: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) إشارة إلى التخويف، وذلك لأنَّ قول القائل الله يعلم متى يكون الأمر الفلاني ينبئ عن إبطاء الأمر، ألا ترى أنَّ من يطالب مدينا بحقه فإن استمهله شهرا أو شهرين ربَّما يصبر ذلك، وإن قال له اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجيء فلان، ويمكن أن يكون مجيء فلان قبل انقضاء تلك المدَّة فقال ههنا: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) يعني هي في علم الله فلا تستبظئوها فرِّبًا تقع عن قريب 679.

3 - قريب الإجابة: والولي قريب الإجابة لكلِّ عباده المحسن منهم والمسيء لأنَّه ربُّ العالمين وليس ربُّ الصَّالحين فقط، وتكون الإجابة قريبة متى حصل من العبد ما يقرِّبها ويحببه الولي عزَّ وجلَّ وهو الاستغفار والتوبة، يقول جلَّ وعلا: {وَالِي تُمُودَ أَسَاطِينِ صَالِحًا قَالِ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

677 ق، 16.

678 - الأحزاب 63

679 - تفسير الرازي، ج 12، ص 383

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ {680، وكلّ من يدعو الله مخلصا تكون له الإجابة، وخاصّة المضطر الذي يعرف لا مُفرج للكربّ غيره، حتى وإن كان غافلا، ثمّ عاد بعقله لعقله وأدرك أنّه لا إله إلا هو القادر على كلّ شيء فتكون له الإجابة الشافية، قال تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِنَّهٗ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} {681، سبحانه لا إله إلا هو الولي القادر.

وعليه فإنّ الولي جلّ جلاله دائما قريب بدعوة أو بدون دعوة وهو المجيب لمن دعاه واستغفره وتاب إليه، ومن هنا ينبغي أن يقتدي الولي على المستوى البشري ليكون رحيما ووفيا ومخلصا وصادق الوعد وقادر على حمل المسؤولية المناطة به.

4 - نصره قريب: وذلك لمن آمن بالله ونصره حقّ الإيمان ولم ينفذ إلى عقيدته شيء من الشكّ في نصر الله: {يَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} {682، أمّا إذا دخل الشكّ في نفس المؤمن فإنّ النصر ثابت القربّ بقدر الولي، وهذا ما حصل في غزوة الخندق فالنصر كان حاصلًا وقريبا، ولكن شكّ بعض من المؤمنين

680 - هود 61.

681 النمل 62.

682 - الصف 12 . 14.

أبعدهم عن الشعور به قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} {683، فمعنى الكلام: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورُسُله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتبتلوا بما ابتلوا واختبروا به من ابتلاءات واختبارات.

5. قريب المرحمة: الولي سبحانه رحمان رحيم بجميع خلقه يثيبهم على أعمالهم الصالحة ويبدل لهم سيئاتهم حسنات: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} {684 فلا بد أن تكون رحمته قريب بمصداق قول الولي عز وجل: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} {685. والمعنى إن الرحمة القريبة هي رحمة الله، ولأن الله قريب مجيب الدعاء فهو يعلم بحركتنا وسكوننا، لذا فلو لم يكن قريب ما كان مجيب، ولأنه ذو المرحمة فهو القريب المجيب بها على دعوة الداعي واستغفاره وتوبته. الله قريب من الداعين بلسان ذاكر شاكر وقلب حاضر طاهر.

6 – عذابه قريب: ولأنه الله تعالى ولي أمرنا وحالنا فهو القريب الذي لا يغيب وهو السميع للقريب والبعيد، أعني مجيب قريب للمؤمن، وقريب من الكافر والمشرك وهو سميع عليم بكل سر

683 – البقرة 214

684 – الأعراف 95

685 – الأعراف 56

وعلائية، ولأنه كذلك فهو القريب الذي يملك الإجابة متى ما شاء أجاب. ولذلك كان مع المؤمن رحيم، ومع الكافر والمشرک شديد العذاب، ولهذا فكما أن رحمة قريبة كذلك عذابه قريب، وأكثر ما يكون العذاب القريب مع المصرين على المعصية وهي معادلة طردية مفادها كلما كان الاستغفار والتواب كانت الرحمة، وكلما كان الإصرار والعند كان العذاب، قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} {686، أما في قوله تعالى: {إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} {687، فالتقدير أن الإنسان مهما عاش وعمر فإن زمن الحياة قصير بالقياس إلى الخلود في العذاب، فعذاب الكافر قريب وإن عمر وهو عذاب الآخرة وقربه لتحقق إتيانه فقد قيل ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت، ولأن العذاب نتيجة عقاب على أفعال وأقوال كاذبة، فإن الذين يظنون بأنه لن يلحقهم العذاب في الحياة الدنيا، غفلوا عن زمانها إذا ما قورنا بالزمن الذي سيقضونه في يوم العذاب الشديد، وأعني باليوم، اليوم الدائم يوم يكون المنافقون والكفرة الفجرة في النار ويكون الخلفاء الكرام مع الولي الدائم جلّ جلاله.

7 . سمعه قريب: الولي هو من يتولى الأمر مباشرة، وهو الذي يعلم السرّ والعلائية، وهو الذي يعلم الحال وما هو عليه وما سيكون عليه قبل أن يعلمه صاحبه، ولأن الإنسان حواسه شاهدة عليه، فهل يمكن أن يكون هناك شيء بعيد؟

686 - هود 64

687 - النبأ 40

وإذا كانت حواسه جميعها شاهدة مع الله الحق على كل قول وفعل يبدى من الإنسان، فكيف لله أن يكون بعيدا عن مسمعه؟ قال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ الْحَسِيئَاتِ لِلْحَسِيئِينَ وَالْحَسِيئُونَ لِلْحَسِيئَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {688، قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} {689.

8 . ثوابه قريب: الثواب لا يكون إلا من ولي قادر مُحسن، ولا يكون إلا من سميع، ولا يكون إلا من مجيب، ولا يكون إلا من غفور ودود وفعل لما يُريد، والمثوبة لا تكون إلا في الحياة الدنيا، فمن لا يثوب الولي عليه في الحياة الدنيا، لن يجد ثواب عليه من بعدها، والثواب فعل مترتب على أفعال تحقّقه من صاحب الفضل الكبير، قال تعالى: {فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {690.

688 النور 24 . 26.

689 سبأ 49، 50.

690 النساء 16 . 18.

9. أجله قريب: الولي هو الكفيل بالأمر وهو الذي بيده القرار، وهو الذي بيده أمر الحياة في الوجود الحي وأمر الممات في عالم السكون، وهو الذي بيده أمر الانبعاث من جديد والحركة الدائمة، وهذه آجال لا يعلمها إلا هو، قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} {691}، وقال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} {692}.

إذن الأجل بيد الله الولي الحي الدائم، ولأنَّ أمر الأجل بيده، لذا فإنَّ الأجل لم يكن ببعيد، إنَّه بيده وحده جلَّ وعلا. قال تعالى: {وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْمًا تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} {693}.

10. إحسانه قريب: الولي بعباده رؤوف رحيم، يغفر الذنوب ويتوب على من يُقدِّم حسنة في مرضاته جلَّ جلاله، ولذلك فهو المكافئ بالحسنات في مقابل الحسنة الواحدة، وهو لا يجازي السيئة

⁶⁹¹ الأعراف 34.

⁶⁹² النحل 61.

⁶⁹³ إبراهيم 44 . 47.

إِلَّا بِمِثْلِهَا قَالَ تَعَالَى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} 694.

ولذا فبرضا الوالدين ينال الأبناء رضا الله عليهم، وبطاعة
الوالدين في غير معصية الله ينال الأبناء رضا الله عليهم، بإعطاء
الصدقات وإيتاء الزكاة ينال الإنسان رضا الله عليه، وبإحقاق الحق
وإزهاق الباطل ينال الخليفة أجره حسنات مرضاة من الله تعالى،
وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينال الخليفة رضا الله عليه،
وبحكمه العدل إذا حكم بين الناس ينال رضا الله عليه، وبقول الحق
ينال رضا الله عليه، وبالفعل الحق والعمل الحق والسلوك الحق ينال
الخليفة رضا الله عليه. لذا إلا يكون إحسانه قريب من المحسنين؟
قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ
بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ
فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 695.

ولأنَّ الولي على المستوى البشري ينبغي أن يعلم أمر ولايته ووفقا
لدائرة الممكن إلا أنه لا يعلمه بالمطلق مهما علم، فهذا الأمر لا
يكون إلا للولي المطلق الذي يعلم الأمر المطلق كونه لا أمر إلا أمره.
فهو يعلم بالأحوال قبل أن تحل بأصحابها كما يعلم بالنصر قبل
تحققه، قال تعالى: {نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ
أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي

694 الأنعام 160.

695 الأعراف 56، 57.

إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} 696، وقال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} 697.

ولأنَّ الولاية لا تكون إلا عن محبة؛ فهي لا تستمر إلا بها، ولهذا فالولي هو من يتولى الأمر رعاية وعناية وودًا، قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} 698، بل أنَّ الولي جلَّ جلاله يجازي المذنب المستغفر رحمة وودًا منه: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ نُوْحًا أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَعْفِفُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُوْدٌ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَدَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَاذْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} 699، ولو تأمَّل المتأمل في حال الولي سبحانه لأدرك أنَّ ما من محبٍ ودود يدنو من حدود ودِّه لعباده، فهل تجد من أحد يعفو عن إنسان وينسى ما اقترف بحقه من ذنب نسيانا تامًا مطلقًا؟ إلا الولي سبحانه لأنَّه مترفع عن صفات البشر من ثار أو غل أو غيظ، وهل لك أن تتخيَّل أحدًا

696 الصف 13، 14.

697 الفتح 18

698 النساء 147

699 هود 89 . 94.

يقبل التوبة ثم يحسب لك ما اقترفت من الذنوب حسنات مبدلاً
 إيها لصالحك وداً منه ومحبة؟ سوى الله المولى سبحانه وتعالى عما
 يصفون قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
 النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا
 يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ
 وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ
 غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ
 لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ
 رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
 أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ
 بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا
 وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ
 لِزَامًا {700، والتبديل إما يكون في الدنيا، فيبدل الله تعالى قبائح
 أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الإسلام فيبدلهم بالشرك
 إيماناً، ويقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عقبة وإحصاناً، فكأنه
 تعالى يبشّرهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها
 الثواب، وأمّا السيئة بعينها لا تصير حسنة، ولكن التأويل أنّ السيئة
 تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله
 ويثبت عليه السيئات، وأمّا إنّ الله تعالى يمحو السيئة عن العبد
 ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية الكريمة.

ولأنّ الولاية على المستوى الإنساني تستوجب ولياً، إلا أنّ الولي
 المطلق سابق على كلّ ولاية، أي لو لم يكن الولي واجداً ما كانت
 الولاية في دائرة الوجود المشاهد والملاحظ.

ولأنَّ الله هو الولي على كلِّ ولاية؛ فهو الذي جعل الأبوة والأمومة ولاية على الأبناء، والأخوة ولاية على الأخوة، والجيرة ولاية على الجيران والوطن ولاية على المواطنين، ولهذا جعل في كلِّ ولاية مودّة.

ومودة الولي لعباده واسعة ومنها الآيات التالية:

- 1 . جعل من الأنفس أزواجاً.
- 2 . وجعل بين الأنفس سكناً ووداً.
- 3 . وجعل بين الأنفس مودّة ورحمة.
- 4 . خلقه للسموات والأرض نعمة على المخلوقين بالحركة والسكون التي تنقل السحب والرياح التي بها تتلاقح النعم التي فاض بها الولي على عباده في الأرض.
- 5 . جعل الاختلاف في الألسن والألوان آيات إعجازية لتبيان قدرته العظيمة التي أظهرها بين الذين خلقوا من نفس واحدة، وفي هذه الاختلافات رحمة بين الناس ليحمدوه على فضله ونعمة وحسن خلقه لهم جميعاً، واختلاف الألوان والألسن علامات دالة على التنوّع ولم تكن دالة على الفروق التي بها يتمّ التفريق بين الذين في أساس خلقهم حسن التقويم، ولذا كيف يكون ذلك والله تعالى يقول: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ} 701. وقوله الحقّ قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} وهذه صبغة الله في

خلقه الذين استخلفهم في الأرض وأورثهم فيها وفي الجنة، ولأنَّ الاستخلاف والتوريث بالأعمال الحسنة والأفعال الحسان، اختلف النَّاس فمنهم من هو مؤمن مستخلف ومنهم من هو كافر ومشارك وضال، ولهذا فالذين هم في أحسن تقويم هم الذين أبقوا على طبيعة خلقهم في أحسن تقويم، إمَّا أولئك الذين كفروا وظلوا كانوا هم في أسفل السافلين حيث لا ولاية لهم في الإصلاح، وذلك بأسباب ضلالتهم، وبأسباب تفريقهم بين العباد باللون واللغة، فاستعبدوا النَّاس وقهروهم وهؤلاء هم الذين ردّوا النَّاس في أسفل السافلين، ولكن المؤمنين حقًا هم الذين جاء استثنائهم من الذين ردّوا إلى أسفل السّافلين، وهذا الرّد جاء من عند الله. أمَّا الذين ردّوا النَّاس أو أشاروا إليهم بالتقيصة بأسباب اللغة أو اللون فهؤلاء هم الباقون في أسفل السافلين، وليس أولئك الذين نُعتوا بما لم يكن فيهم بما أُتهم حافظوا بإيمانهم على أحسن تقويم الذي هو أساس خلق الإنسان الذي كرمه الله بهذا الفضل الكبير.

ومع أنّ غيرنا شرح وفسّر بأن أسفل سافلين يتعلّق بالكبر والشيخوخة، إلّا أنّنا لا نتفق مع ذلك كثيرًا، فأعتقد أنّ الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم يريد أن يكون كذلك، إلّا إذا استثنى نفسه بكفر أو شرك أو ضلالة من هذا الحظ العظيم الذي عليه وبه خلق، وإلّا سيظل كبر العمر مرحلة عدائية بين حسن التقويم وبين الحفاظ عليه بحسن خلق وقيم وفضائل حميد وحسن طاعة وحسن هداية وحسن سيرة وحسن قول وحسن فعل. كيف يكون المؤمن الحقّ في مرحلة من عمره وهو يزداد في البقاء على الحقّ يكون على غير حسن تقويم، ولنعلم جميعاً أنّ حسن التقويم هو: حسن صنعة وحسن قول وحسن فعل وحسن سيرة، والكبار المؤمنون حقًا في

معظمهم لا يفقدون ذاكرة من ذكرتهم حتى يودّعون الحياة وهم على أحسن تقويم بالطاعة والشهادة.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} 702.

6. ومن مودة المولى جلّ جلاله جعل الليل سكنا للنوم والراحة مودة من الولي العظيم فقال: (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) ولهذا جاء الليل سكنا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} 703، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} 704، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِيَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا} 705.

7. ومن آياته العظام وواسع رحمته بوّده على المستخلفين في الأرض وذلك بإعطائهم من فضائله الكريمة مصداقا لقوله تعالى: (وَإِيتِعَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ) والابتغاء مطلب وعمل وهو ما يكون في الظروف الطبيعية نهارا، قال تعالى: {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ

702 فصلت 30 . 34

703 الأنعام 95، 96.

704 يونس 67.

705 الفرقان 47.

لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ {706، وقال تعالى: {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ
مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ
شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا {707، وقال تعالى: {وَجَعَلَ النَّهَارَ
نُشُورًا {708.

8 . ومن مودّته لعباده جعل من آياته البرق علامة دالة على
قدوم الرحمة ونزول الخير، وخوفهم من حدوث غير المتوقع من سيول
جارفة قد تنقل حيواناتهم فيتخذون الحيطه خوفا من الهلاك وطمعا
في غيئه قال تعالى: (وَمِن آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ).

وعليه فإنّ الولي هو مخلص المودّة في الولاية التي هو وليّها،
وإخلاص الولي يتمثل في دوام الودّ وسلامة الولاية، فبالإضافة إلى
الودّ والرعاية في الدنيا يأتي الودّ الخالد إذ يمنح الولي الودود المطلق
لمن صدقوا الودّ فأخلصوا الطّاعة جائزته قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا
يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ {709.

ولأنّ الولاية لا تقوم إلا على أمرٍ من الأمور، فكانت الولاية في
الحياة الدنيا مقيدة بالاستخلاف الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة

706 يونس 67.

707 الإسراء 12.

708 الفرقان 47.

709 المائدة 119

إلا بالإصلاح والفلاح والأعمار والبناء مع المودّة المحقّقة للاطمئنان والسكينة.

وفي القاموس الفقهي الولي: كلّ من وليّ أمرا، أو قام به فهو القائم بالأمر⁷¹⁰، الله سبحانه قائم بأمر الدنيا والآخرة فهو المبدأ والمعيد وهو المحيي والمميت، أمّا أمر الدنيا فقيامه به يتجلّى لكلّ عاقل يدرك تلك القوانين البديعة التي تسيّر الكون؛ فالسماء لها قانونها الذي قدره الولي تباركت أسماؤه لصالح البشر وذلك بتناسب ثلاثي الأجرام الأرض والقمر والشمس مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمَنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 711، وهذا القانون لصالح البشر فهو يحقّق لهم منافع تدل على حسن قيام الولي بالأمر، منها الوقت الذي يمثل أهمية قصوى للبشرية من حيث تنظيم الحياة بما يوفّر لها مقومات إعمار الأرض قال تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} 712، ومنافع أخرى فولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإنّ نعمها لا تظهر لكلّ أحد مثل ما تظهر نعمتهما، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغيّر ولو كانت الشمس

⁷¹⁰ القاموس الفقهي، ج 1، ص 390

⁷¹¹ الرعد 2-3

⁷¹² الرّحمن 5

ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق
لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء الأمر على الفصول.

ومن المنافع التي انعم بها الولي القائم بأمر الدنيا على الإنسان
ليساعده على إعمار الأرض الضوء وهو مقدر على حاجة الإنسان
فهو قويّ مشع في النهار ليتمكن الإنسان من الاستفادة القصوى
منه، وهو خافت قليل في الليل بما يسهم في إراحة الإنسان وتسهيل
تنعمه بالراحة والنوم: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} 713 فالسراج ضوءه
عرضي وضوء القمر عرضي متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولى من
تشبيه الشمس به والجواب: الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس لما
كانت سببا لزوال ظل الأرض كانت شبيهة بالسراج، وأيضا فالسراج
له ضوء، والضوء أقوى من النور فجعل الأضعف للقمر والأقوى
للشمس 714.

وجعل الليل سكنا مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ} 715، وجعل النهار للمعيشة: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ
رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا لَهُ

713 نوح 15 . 20.

714 تفسير الرازي، ج 16، ص 57

715 يونس 67

تَفْصِيلاً {716، وقد سخر الولي لعبده الكثير، ومن ذلك البحر وما فيه من نعم رحمة لبي آدم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {717، ومعنى تسخير الله تعالى إياها للخلق، جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها إما بالركوب أو بالغوص، ومنافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها في هذه الآية ثلاثة أنواع:

المنفعة الأولى: قوله تعالى: {لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}، واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحا، لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري؛ فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد والحمد لله على نعمه وفضائله ومودته ورحمته وولايته.

المنفعة الثانية: من منافع البحر قوله تعالى: {وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} {718، والمراد: بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم؛ فكأنها من زينتهن ولباسهن.

المنفعة الثالثة: قوله تعالى: {وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} قال أهل اللغة: مخر السفينة شقها الماء بصدرها، وعن الفراء: أنه صوت جري الفلك بالرياح 719.

716 الإسراء 12

717 النحل 14

718 الرحمن 22

719 تفسير الرازي، ج 9، ص 363

والتسخير شامل وكامل لكي يكون القيام بما يليق بالولي عز وجل، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ} 720، وفي إرشاد العقل السليم المراد به إمّا جعل المسخّر بحيث ينفع المسخّر له أعم من أن يكون منقادا له يتصرّف فيه كيف يشاء ويستعمله كيف يريد كعامّة ما في الأرض من الأشياء المسخّرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك، بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما في السماوات من الأشياء التي نيّطت بها مصالح العباد معاشا أو معادا، وأمّا جعله منقادا للأمر مذلا على أن معنى (لَكُمْ) لأجلكم فإنّ جميع ما في السماوات والأرض من الكائنات مسخّرة لله تعالى مستتعبة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخّرا له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخّر لله عز وجل (وَأَسْبَغَ) أي أتمّ وأوسع (عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ) جمع نعمة وهي في الأصل الحالة المستلذة، وذلك فإنّ بناء الفعلة كالجلسة والركبة للهيئة ثمّ استعملت فيما يلائم من الأمور الموجبة لتلك الحالة إطلاقا للمسبّب على السبب، وفي معنى ذلك قولهم: هي ما ينتفع به ويستلذ، ومنهم من زاد ويحمل عاقبته، وقال بعضهم: لا حاجة إلى هذه الزيادة لأنّ اللذة عند المحقّقين أمر تحمد عاقبته، وعليه لا يكون لله عز وجل على كافر نعمة، وكما يقال: النّعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، والمنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير قالوا: وإمّا زدنا قيد الحسنة لأنّ النّعمة يستحقّ بها الشكر وإذا

كانت قبيحة لا يستحقّ بها الشكر، والحقّ أنّ هذا القيد غير معتبر لأنّه يجوز أن يستحقّ الشكر بالإحسان وإن كان فعله محظورا، لأنّ جهة الشكر كونه إحسانا وجهة استحقاق الدم والعقاب الحظر فأبى امتناع في اجتماعهما، وهنا ألا ترى أن الفاسق يستحقّ الشكر لأنعامه والدم لمعصية الله تعالى فلم لا يجوز أن يكون الأمر ههنا كذلك، أمّا قولنا: المنفعة فلان المضرّة المحضة لا تكون نعمة، وقولنا: المفعولة على جهة الإحسان لأنّه لو كان نفعا وقصد الفاعل به نفع نفسه لا نفع المفعول به لا يكون نعمة.

وقوله تعالى: (ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ) أي محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة، ولذلك فالولي على الولاية المطلقة محيط بكلّ أمر لأنّه الخالق للأمر والخالق للولاية والقادر على ولايتها ولا مقارنة له في هذا الأمر العظيم ولا مثال سبحانه أنّه الولي القادر.

وعليه: الولي هو الحافظ لولايته التي تشمل كلّ مخلوقاته، فالأرض ألقى فيها رواسي حفظا لها، قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوُهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} 721، بيان لصنعه تعالى الولي البديع في قرار الأرض إثر بيان صنعه عزّ وجلّ في قرار السماوات أي ألقى فيها جبالا شوامخ أو ثوابت كراهة (أن تميد) أو لثلا تميد أي اضطرب (بكم) حركة؛ فلو لم يلق سبحانه وتعالى فيها رواسي لمادت بكم طوفانا وغرقا وعاصفة أو ما هو على نحو ذلك.

721 لقمان 10

وهكذا الولي حفظ السماء فقال: { إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ
الْكُوكَبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ } 722، أي زيناها بها للزينة
وللحفظ من كل شيطان أي بعيد عن الخير محترق.

وعليه فالولي المطلق هو الولي بالآتي:

1. ولي بخلقه: بحسن الخلق كان الإنسان مستخلفا في الأرض
بغاية الإصلاح فيها، ولأنه المخلوق في أحسن تقويم أدرك خالقه
فكان له عابدا وطائعا؛ فقال تعالى: { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ
الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } 723، وقال تعالى ترسيخا
لما جاء به على لسان يوسف: { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّيَ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعِيبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ
وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } 724. من هذه الآيات الكريمة نلاحظ
الطاعة التامة للولي جل جلاله، ونلاحظ الاتكال عليه في تنفيذ
الأمر، ونلاحظ الإيمان التام بما انزل، ونلاحظ الفارق الكبير بين
الطائعين وبين العصاة والمشركين، ونلاحظ أن القلة هم المؤمنون حقا
والكثرة هم الفاسقون والظالمون والمنافقون، وبرغم كل ذلك يثبت الله
الذين استخلفوا في الأرض بالقول الثابت فيها.

722 الصافات 6-7

723 الأعراف 196 .198.

724 يوسف 101 .103.

ولأنّ الولي هو النصير والمعين، فهو قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وداعي الولي هو المؤمن به والمسلم أمره وما يملك إليه، ولهذا فالقرب قربان:

قرب من السميع الحكيم الخبير إلى عبده المستخلف في الأرض، وقرب من الخليفة إلى عبده بالطاعة التامة لولايته الكريمة.

وعليه، فالخليفة هو الذي أدرك قول الحق وآمن به هو كما هو، قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} 725، وقال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 726.

2. ولي برزقه: خالق كل شيء هو ولي أمر كل شيء هذا قول المؤمن المستخلف في الأرض، وبذلك فهو لم يكن غافلا عن سر خلقه وما ينبغي عليه أن يقوم به، إنّه الطائع له والشاكر له، والحمد له، فالحمد لله رب العالمين على خلقه ورزقه وفضائله التي لا تحصى، ولأنّ الرزق من عند الله فالطاعة من المحتاج لا ينبغي أن تكون إلّا لمن يملك مشبعات حاجاته المتطورة والمتنوعة والمتعددة، ولذا فلو لم يكن رزاقا ما كان وليا، ولأنّه الرزاق الكريم فهو الولي الذي يطاع ولا يعصى، ولو لم يكن الرزق ما كانت الحياة، ولأنّه المالك المطلق للرزق فهو الولي الذي يحمد على نعمائه ومكارمه وحفظه وولايته.

725 البقرة 107، 108.

726 البقرة 257.

والخليفة هو الذي يرتزق من رزقه ويرزق آخرين منه طاعة بالتصديق والتركية والإحسان قال تعالى: { وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } 727.

أما أولئك الجاحدون سينالهم العذاب الشديد ببحودهم ونكرانهم للولي وكفرهم به ونفاقهم؛ فقال تعالى فيهم: { يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَعْمُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } 728. ولأنه الرزاق بدون منة قال تعالى: { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللَّهُ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } 729.

3. ولي بحفظه: لقد خلق الإنسان ضعيفا في حاجة للعناية والرعاية والرزق، ولذا لا راعي له إلا هو؛ فكان له راعيا وحافظا ورازقا، وهكذا تستمر العناية والرعاية، قال تعالى: { وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } 730.

إذن لا ولاية بالمطلق إلا للولي المطلق تعالى؛ فهو ولي بذاته، وولي بكتابه، وولي برسله وبملائكته، وهو الولي المطلق بشأن كل ولي، قال تعالى: { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ

727 التوبة 75، 76.

728 التوبة 74.

729 الذاريات 55، 58.

730 سبأ 21، 22.

حَفِظْتُ بَلْنَ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ
مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً
وَدُكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ
جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ
وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ
وَقَوْمُ ثُبَعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ
فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ {731.

ولأنَّ الله قال أني جاعل في الأرض خليفة؛ فكان يوسف خير
خليفة حافظا له قولا وعملا وإخلاصا وطاعة وخشية فنال منه
الأجر الكبير والكريم فقال: { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى
خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظْتُ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } 732.

4 . ولي برعايته: الرعاية تحمّل مسؤولية بكلّ اهتمام ومحافظة
على النوع والجنس مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلَيْكُمْ رَقِيبًا وَاتُّوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا
تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا

731 ق، 4 . 15.

732 يوسف 54 . 57.

فِي الْيَتَامَى فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ
فَإِنْ حِفْتُمْ إِلَّا تَعَدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا
تَعُولُوا وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا
فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا
وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ
إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا
تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ
فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا {733}.

ولأنه ولينا برعايته فكان شافيا من المرض ورازق ومعزّ وذالا لمن
يشاء كيف يشاء قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ
مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ
بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {734}، وفي الهداية والإطعام
والإشفاء من المرض قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي
هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} {735}.

والولي هو الذي لا يتولى أمرا إلا بالحقّ، ممّا يجعل الولاية بالنسبة
له غير مغتصبة كما هو حال الولايات السلطانية التي يتم اقتناصها
بالانقلابات العسكرية أو الخيانات التي تتم فيها التضحية بالرّفاق
دون النظر للحقّ وما يجب أن يكون وفقاً له، ولذا فالولي بالإضافة
هو من يتّقي الولي المطلق في نفسه وفي الآخرين، ولا يعمل إلا
صالحاً يرضاه قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا

733 النساء 1 . 6.

734 آل عمران 26.

735 الشعراء 78 . 80.

يَفْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا {736}.

5. ولي بهيمته: الهيمنة سيطرة تأمة لا تفلت منها فالتة، ولا يحدث فيها سهو أو غفلة، ولهذا فهيمنة الرحمن على المستخلفين في الأرض هيمنة رحمة، لأجل المحافظة عليهم من كل شر، ولأجل العلم بحالهم وما يلم بهم، ولأجل كتابة ما يقولون من حق وما يفعلون من حق، ولهذا فالمهيمن المطلق لا يغفل عن حال الآخرين الذين لم يستمدوا صفاتهم منه؛ فكانت لهم الصفات غير الحسان هم وما يملكون وما يفعلون عليهم كتبة كرام يهيمنون عليهم وعلى ما يقولون ويفعلون وما يظهرون وما يبطنون إنَّه الولي علام الغيوب سبحانه لا إله إلا هو. قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {737}.

736 الفرقان 68 . 76.

737 الحشر 22 . 24.

ولذا فإنَّ المهيمَن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لا تخرج هيمنته عن دائرة النسبيَّة، ممَّا يستوجب منه العودة إلى الولي المطلق من خلال ما أنزل على الرُّسل من آيات بيِّنات جمعت في الرِّسالة الخاتمة للنَّاس كافَّة على يد محمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام.

6 . ولي بحسابه: الولي بحسابه يكافئ فيجازي بالثَّواب أو العقاب ولكلِّ قول وفعل حقٌّ، جزاء حقٌّ فيه أجر كريم، ولكلِّ قول وفعل بهتان وزور له حساب وجزاء يعاقب به، ولذلك فما ربَّك بظلام للعبيد، قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا إِلَّا نُوْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} 738، وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبَّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 739.

ولأنَّ لكلِّ حساب، فالخليفة مع أنَّه مؤمن إلاَّ أنَّه هو الذي يخشى الله ويخافه، إمَّا المشركين والكفرة لا يخافونه؛ فالخوف تقوى وهم لا تقوى لهم، ولهذا لكلِّ حساب، قال تعالى {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} 740.

ولأنَّه الخالق فهو الذي يحاسب خلقه، ولأنَّه هو الرِّزاق فهو الذي يحاسب عباده على ما فعلوا بما رزقهم به، ولأنَّه العادل فهو

⁷³⁸ آل عمران 182 . 184.

⁷³⁹ فصلت 46.

⁷⁴⁰ المؤمنون 117، 118.

الذي سيحاسب عباده العادلين بالاستخلاف أو غير العادلين بالمعصية، ولكلِّ جزاؤه فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد. قال تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {741}.

وعليه: لا ينبغي أن يغفل الولي الذي يتم اختياره لإدارة ولاية من الولايات في الحياة الدنيا عن بقائه غير الدائم حتى يتفكر ويتدبّر ويتدبّر الأمر الذي من أجله أصبح واليا، حتى يتمكن من العدل في كل قول أو فعل أو عمل، وألا يغفل عن وضع الخطط ورسم الاستراتيجيات التي في كل مرحلة منها حساب للأمر السياسي والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بأمر الرعية.

7. ولي بتوايه: قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ} {742}، من كثرة ما يمنحه من توبة اتصف جلّ جلاله بصفة التوّاب، ولهذا فهو الذي يتولّى الخلق وأمرهم في الدارين وهذه الولاية هي فضل منه، فلولاها لكان الهلاك هو الصفة السائدة، ولأنّه الولي بعبادة وما يعملون فكانت الرحمة والعناية والرعاية والولاية صفات حسان سائدة في الحياة الدنيا التي تكثر فيها المفسدات والمغريات التي تجعل من بني آدم منحرفين عمّا يجب وهم في وجهتهم تجاه ما لا يجب. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

741 النور 37.39.

742 الحجرات 10.

اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ {743}، وقال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {744}، وقال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَخْرُونَ مُرَجَّوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {745}.

8 . ولي بعقابه: أمر العقاب بيد الولي المطلق، الذي لا يعاقب إلا على باطل أرتكب أو ذنب أقترف أو معصية وشرك وكفر به وبما أنزل وبمن أرسل، ولهذا لا معاقب على ذلك إلا هو، ولذا فهو الولي الذي بيده العقاب لمن يشاء كيف يشاء وهو الرحمن الرحيم. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كِدَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَفَتَا فِئَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ

743 الحجرات 12.

744 البقرة 127، 128.

745 التوبة، 103 . 106.

رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي
 الْأَبْصَارِ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ
 الْمُمَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ
 مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ
 ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {746.

والخليفة هو من يطيع الولي بتولي ما أمر به أخذا بما يجب،
 وانتهاء عمّا يجب الانتهاء عنه، وهو الذي يعلم أنّ ما يقوم به من
 حسنات سيضاعفها الولي المطلق له بعشرة أمثالها، ويعلم أنّ الذي
 يضاعف الحسنات لا يمكن أن يجازي السيئة إلا بمثلها، ولذا
 فالخليفة الذي اتقى ربه يعلم أنّ صلاته ونسكه هي لله رب العالمين.
 قال تعالى: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة
 فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون} قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ
 صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ
 أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْعِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ
 وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
 مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ
 الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ
 رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ {747

9. ولي بمناصرته: ولأنّ الولي هو الحقّ، فالحقّ لا يحقّ إلا حقًا،
 ولأنّه لا يحقّ إلا حقًا فهو بذاته لا يناصر إلا من يحقّ حقًا، ولهذا

746 آل عمران 10 . 15.

747 الأنعام 160 . 165.

جاءت مناصرته للمستخلفين في إحقاق الحق وإزهاق الباطل قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّكُمْ لَكُم وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} {748، إذن فليعلم العباد أنه لا ولي لهم إلا هو جلّ جلاله، قال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبَنِي مِصْرَ وَمِصْرَ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} {749.

والخليفة هو الذي يؤمن ويعلم بأن الله هو وليه وهو نصيره ولا ناصر له في إحقاق الحق إلا هو عز وجل. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} {750، وقال تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ

748 الأنفال 7، 8.

749 الحج 40، 46.

750 التوبة 116، 117.

وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ
فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ
مُضِلٌّ مُبِينٌ {751}.

10 . ولي بإماتته: الولي جلّ جلاله هو الذي بيده أمر كلّ شيء
أمر الحياة وأمر الممّات وأمر البعث وهو على كلّ شيء قدير لا إله
إلا هو، ولأنّ أمر الموت بيده فهو الذي يتولّى به من خلق، ثمّ في
النهاية يتولّى أمر إماتته كما أمات المخلوقات، إي يوم لا يجعل على
ظهرها دابة يعلم الجميع وخاصّة الذين كفروا وأشركوا إنّ اليوم الملك
بحقّ هو لصاحب الحقّ لله الواحد القهار. قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} {752}، وقال
تعالى: {أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِن
تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ
مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ
نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفِي بِاللَّهِ شَهِيدًا} {753}.

وعليه فالموت موتان:

الأولى: موت المخلوقات التي خلق الموت من أجلها لتكون
الناهية لحياتها.

751 القصص 15.

752 آل عمران 185.

753 النساء 78، 79.

والثانية: موت الموت وهو حقّ من أجل حياة جديدة دائمة تنفيذاً للأمر (كن). وتكون من بعدها الحياة السرمدية التي لا موت فيها، فقد ولى زمن الموت ولا تجد موتة أخرى غير تلك الأولى التي كانت مصداقاً لقوله تعالى: {لَا يَدُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {754}. والموتة الأولى لا تعني أنّ هناك موت ثاني أو موت آخر، بل تعني لا وجود لموت غير الذي قضى نجبه والحمد لله الحي الدائم.

11 . ولي بيعته: البعث هو الكائن في الزّمن المستقبل وفقاً لعلم الغيب الذي لا نعلم منه إلاّ أنّه سيأتي لا محالة، ونحن نأمل أن نكون فيه من الوارثين في الجنّة والحمد لله ربّ العالمين إننا من المؤمنين. ولأنّ الولي المطلق هو من يتولّى أمر البعث، فهو بيد أمينة حافظة وقوية وقادرة بالمطلق ولا أحد يوقفها يوم تنفذ أمرها (كن). قال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} {755}، وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَجِيرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا

754 الدخان 56، 57.

755 النمل 65.

الْعِلْمِ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ
الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ
مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ كَذَلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا
يَسْتَحْفِظَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ {756}.

وللولي في حفظ البشر شمول تام لأنه خالقهم وهو العارف بما
يكنون وما يعلنون: {وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}
757، والحِفظُ هو رعاية تامة مع فطنة وعدم غفلة، وأول وجوه
هذا الحفظ الشامل إرسال الحفظة قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدِكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ
أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} {758، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، فالمراد أن من جملة
حفظه لعباده إرسال الحفظة عليهم وهؤلاء الحفظة هم المشار إليهم
بقوله تعالى: {لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهِ مِنْ أَمْرِ
اللَّهِ} {759، وقوله تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}
760، وقوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ} {761
والمقصود من حضور هؤلاء الحفظة ضبط الأعمال وتسجيلها

756 الروم 55 .60.

757 - القصص 69

758 - الأنعام 61-62

759 - الرعد 11

760 - ق 8

761 - الانفطار 10-11

وحفظها إلى يوم يبعثون لتكون دليلا موجبا أو دليلا سالبا على أصحابها بأسباب الطاعة لموجبات الولاية أو عدم طاعتها.

ولأنَّ الولي عادل في ملكه؛ فهو لا يظلم أحدا كان، كتابه لا يغادر كبيرة ولا صغيرة من أجل الحقِّ وإحقاقه وفقا لكلِّ قولٍ ولكلِّ فعلٍ، قال تعالى: {مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُخْصَاهَا} 762.

وذكروا في فائدة جعل الملائكة موكلين على بني آدم وجوها منها:

الوجه الأول: أنَّ الله جاعل فوق كلِّ ذي علم عليم.

والوجه الثاني: أنَّ الولي له المشيئة في أن يعمل ما يشاء كيف شاء.

والوجه الثالث: ليكون الشهود من خارج النوع لا يتأثرون بصلة وهم على منظومة عقلية لا تعمل مع منظومة البشر وإن عملت عليها.

الوجه الرابع: ليترك الإنسان مخيرا فيما آتاه الله من نعم جعل الملائكة في دائرة انعدام الرؤية البشرية حتى لا يجعل الرقيب عليه مجانيا للمشاهدة والحركة وشغل الحيز الذي ستتم فيه الأفعال المرضية أو غير المرضية.

ومن وجوه الحفظ في الدنيا نصره الأنبياء بحفظهم، والأمثلة كثيرة ولكن لتأمل حفظ الولي لخاتم الأنبياء والرسل عندما تأمر عليه عتاة

الكفر ليقتلوه: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} 763.

ومن وجوه حفظ الولي سبحانه لعباده بيانه لحدود الطاعة والمعصية ليتعلم المؤمنون فيحافظوا على عدم تجاوز الحدود حفظا لهم من العذاب الأدنى والأكبر، يقول الولي: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} 764، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} 765.

أما حفظ الولي للمؤمنين في الآخرة فهو من أعظم وجوه الحفظ في يوم تشخص فيه الأبصار، وآياته كثيرة منها قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} 766 وهذه الآية معجزة في بيان صورة الحفظ وذلك للمبنى العلائقي الدقيق بين هول جهنم وغضب نيرانها وهيجانها وبين حفظ الولي للمؤمنين حيث أبعدهم الله عنها حتى أنهم لا يسمعون أخف أصواتها وهو الحسيس، ولفظة حسيس من صور الإعجاز القرآني لما حملت من قدرة تعبيرية عالية فالإضافة إلى دلالتها اللغوية نستشعر دلالتها الصوتية الموافقة للدلالة اللغوية فمقطع السين والياء فيه خفوت في الصوت لا يخفي

763 يس 9

764 المعارج 32 . 35.

765 المؤمنون 5

766 - الأنبياء 101-102

على اللبيب مما خلق منابه عظيمة بين الفظة وأدائها وهذا من بعض صور الإعجاز القرآني.

والولي هو معين المستخلفين فيها، كما نصّ سبحانه وتعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} 767، وقد جعل الولي التعاون بمثابة النظام الأساسي للعلاقة بين البشر: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 768.

وقد أعان الولي عباده في كلِّ وقت وضرب لنا أمثلة لتكون عبرة لذوي الألباب، ففي معركة بدر أعان الولي عبادة بملائكة لم يروها قال تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ} 769، وهذا هو العون المباشر، وهناك الكثير من صور العون غير المباشر وذلك بتهيئة أسباب العون كما حدث مع سيدنا موسى في قوله تعالى: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ} 770، أي نقويك ونعينك بأخيك، تقول العرب إذا أعزَّ رجل رجلا وأعانه ومنعه ممن أراد به بظلم: قد شدَّ فلان على عضد فلان، وهو من عاضده على أمره إذا أعانه 771.

ومثال آخر للعون غير المباشر ويتمثل في قصّة ذي القرنين كما جاء في قوله تعالى: {ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ

767 - آل عمران 68

768 - المائدة 2

769 - آل عمران 124

770 - القصص 35

771 - تفسير الطبري، ج 19، ص 578

مَنْ دُوغِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ
يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ
تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ
أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا أَتُونِي زُرًّا الْحَدِيدَ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ
الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا
فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا {772}.

والإنسان وإن علا وان كان من الصابرين المؤمنين فلا غنى له
عن عون الولي سبحانه لأنّ الضعف فيه غالب ولا مقارنة له مع
القوة المطلقة لله تعالى، ولذا فلا بدّ له من طلب عون الولي سبحانه،
وتبقى قصة سيدنا يعقوب من أنصع الأمثلة على ضعف الإنسان
وحاجته الدائمة إلى عونه سبحانه: {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى
مَا تَصِفُونَ} {773}. إنّ إقدامه على الصبر لا يمكن إلاّ بمعونة الولي
تعالى، لأنّ الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوّة
والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنّه وقعت المحاربة
بين الصنفين، فما لم تحضر إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة {774}.

وطلب عون الولي جلّ وعلا أمر تطلبه الفطرة السليمة المؤمنة
التي تعرف أنّ الولي سبحانه قادر وحده على تقديم العون لمن يطلبه
منه لأنّه الولي الذي لا ولي غيره ولأنّه قادر على تقديم العون دون
أن يحصل نقص في قدرته أو ملكه أو أن يأبى إجابة من يطلبه
بالعون، فهو وحده من يستحقّ أن يطلب منه العون وهذا ما حصل

772 - الكهف 92-97

773 - يوسف 18

774 - تفسير الرازي، ج 9، ص 11.

مع كلِّ الأنبياء والرُّسُل فقد طلبوا العون من الولي سبحانه ومنهم سيدنا موسى عليه الصلّاة والسّلام: { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } 775، أمرهم أولاً بالاستعانة بالله وذلك لأنَّ من عرف أنَّه لا مدبّر في العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنَّه يرى عند نزول البلاء أنَّه إمّا حصل بقضاء الله تعالى وتقديره 776.

أمّا أمور الدنيا والآخرة فالولي يعلم كل مؤمن طريق العون عليهما بقوله سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } 777، وإمّا خصّهما بذلك لما فيهما من المعونة على العبادات، أمّا الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكارِه في ذات الله تعالى وتوطئتها على تحمُّل المشاق وتجنُّب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمُّل مشاق العبادات، وتجنُّب المحظورات ومن النَّاس من حمل الصبر على الصوم، ومنهم من حمّله على الجهاد لأنَّه قال تعالى: { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } 778 وأيضا فلأنَّه تعالى أمر بالتثبُّت في الجهاد

775 - الأعراف 128

776 - تفسير الرازي، ج 7، ص 220

777 - البقرة 153

778 - البقرة 154 . 57.

فقال: { إِذَا لَقَيْتُمْ فِئَةً فَاتَّبِعُونَهَا وَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } 779 وبالتثبت في الصلاة أي في الدعاء فقال: { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } 780، إلا أن القول الذي اخترناه أولى لعموم اللفظ وعدم تقييده، والاستعانة بالصلاة لأنها يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له؛ فيجب أن يتدبر الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات ولذلك قال: { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } 781، ولذلك نرى أهل الخير عند النوائب متفقيين على الفرع إلى الصلاة، وأنّ الولي الحق لا بد له أن يتدبر الأمر كي لا تكون التهلكة ولا يحدث الألم والضرر، ولذا فينتقي الله ربه ويتقدم لأفعال الخيرات وهو متوكّل على الولي المطلق جلّ جلاله. وهكذا فمن يولي أمره إلى الله سلم من كلّ ألم وكلّ كيد ومكر.

ولأنّ الأمر كذلك فمن أراد مناصرة في أي أمر حقّ؛ فله من النصارى من بني جنسه ومن ورائهم الناصر الأعظم جلّ جلاله، ولهذا لا غالب إلا الولي تعالى؛ فالوليّ: الناصر ينصر عباده الصالحين المستخلفين في الأرض لإصلاحها وإعمارها دون فساد ولا سفك دماء فيها بغير حقّ، قال الله عزّ وجلّ: { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

779 - الأنفال 45

780 - آل عمران 147

781 - العنكبوت 45

يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {782، إِنَّهُ النَّاصِرُ بِالْقُوَّةِ الْحَقِّ الَّتِي تَدْمَغُ الْبَاطِلَ حَتَّى تَزْهِقَهُ، وَنَصْرَةَ الْوَلِيِّ هِبَةٌ مِنْهُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَبَشِّرُهُمْ بِهِ لِتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ: {وَأُخْرَى تُحِبُّوهَا نَصْرًا مِنَ اللَّهِ وَفَتْحًا قَرِيبًا وَبَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ} 783.

ونصر الولي للمؤمنين ظاهر لكل ذي لبٍّ، أمَّا المعاند فيكفي قول الولي بحقه: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} 784، فالمعنى أنَّه تعالى ناصر لرسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته وإدخال من صدقه جنات تجري من تحتها الأنهار. وفي مقابل ذلك الانتقام ممن كذبه وإذاقته عذاب الحريق، لا يصرفه سبحانه عن ذلك صارف، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} 785 أي فليمدد حبلًا إلى السماء إي إلى أعلى ثم ليقطع، أي ليختنق. وقيل المعنى ليقطع الحبل بعد الاختناق على أنَّ المراد به فرض القطع وتقديره كما أنَّ المراد بالنظر في قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} تقدير النظر وتصويره وإلا فبعد الاختناق لا يتأتى منه ذلك، أي فليقدر في نفسه النظر هل يذهبن كيده غيظه أو الذي يغيظه من النصر، ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنَّه إن فعل ذلك هل يذهب ما

782 - البقرة 257

783 - الصف 13

784 - الحج 15

785 الحج 14، 15.

يغيظه، وجوز أن يكون المأمور بالنظر غير المأمور الأوّل ممّن يصح منه النظر، وأن يكون الكلام خارجاً مخرج التهكم.

ولأنّ أمر الولاية يستوجب حُسن التصرف والتقدير الموضوعي لما يجب؛ فإنّ ولاية الحقّ لا تقوم إلّا بحقّ ومن أجل إحقاق حقّ، ومن يغفل عن ذلك فسدت ولايته، ممّا يستوجب الإصلاح حتّى لا يعمّ الفساد وتفسد الأخلاق وتعمّ المظالم ويزداد الانحراف انحرافاً.

أمّا الذين هم على رأس ولاية الحقّ؛ فإنّ الناصر المطلق دائماً ناصر لهم فيما يقولون ويفعلون ويعملون، وبهذا فهم يزدادون ثقة مع ازدياد حسناتهم في الدار الدنيا التي بها يضمنون الجنّة، وهي الغاية العظمى لكلّ مؤمنٍ مهتدٍ بالرسالة الخالدة لخاتم الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً الصلّاة والسّلام.

ونصر الولي لعباده المؤمنين أمر كتبه على نفسه وصدح به في كلّ كتبه ورسالاته قال تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَلَكْتُمْ سَوَامِعٌ وَبَيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} {786}، أما قوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} فقال بعضهم من ينصره بتلقّي الجهاد بالقبول نصره لدين الله تعالى، وقال آخرون: بل المراد من يقوم بسائر دينه، وإنما قالوا ذلك لأنّ نصره الله على الحقيقة لا تصح، وإمّا المراد من نصره الله نصره دينه كما يقال في ولاية الله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} إنّ الوعد الحقّ بالنصر، ونصر الله تعالى للعبّد أن يقوّيه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائماً بإيضاح الأدلّة والبيّنات،

ويكون بالإعانة على المعارف والطاعات، وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعده النصر.

والولي هو من لا يترك أمرا هو منه، وبذلك يتجلى إحسان الولي في كثير من الوجوه منها:

1-الإحسان المباشر: ويتجسد في تويّبه سبحانه العباد بإحسانه رحمة منه، وآياته كثيرة فكلّ إنسان إنّما يعيش على هذه الأرض بإحسان الولي عليه، لكن أكثر الناس لا يشكرون، والقلة من الشاكرين من يعرفون إحسان الولي عليهم كسيدنا يوسف عليه الصلّاة والسّلام: {وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} 787، أي: إنّ الله ربّي أحسن مثواي إذ نجاني من الجبّ، وأقامني في أحسن مقام. وإمّا أن يكون ضمير الشأن وغني برّبّه سيده العزيز فلا يصلح لي أن أخونه، وقد أكرم مثواي فهو بعيد جدّا، إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنّه ربّه، ولا بمعنى السيد، لأنّه لم يكن في الحقيقة مملوكا له، وما أحسن هذا التنصل من الوقوع في السوء. استعاذ أوّلا بالله الذي بيده العصمة وملكوت كلّ شيء، ثمّ نبّه على أنّ إحسان الله أو إحسان العزيز الذي سبق منه لا يناسب أن يجازى بالإساءة، ثمّ نفى الفلاح عن الظالمين وهو الظفر والفوز بالبعيّة، فلا يناسب أن أكون ظلما أضع الشيء غير موضعه، وأتعدّى ما حدّه الله تعالى لي 788.

787 - يوسف 23

788 - تفسير البحر المحيط، ج 7، ص 1

ومن الإحسان المباشر للولي أنه يكون في عون المحسن في الدنيا ولا يتركه وحده جزاءً لإحسانه: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } 789.

2- الجزاء على الإحسان في الدنيا والآخرة: وهو من إحسان الولي لعباده وتقديرًا من الولي المحسن لإحسان عباده وإكبارًا للإحسان قال تعالى: { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } 790، أي هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى في مقابلته بفعل حسن، لكن الفعل الحسن من العبد ليس كل ما يستحسنه هو، بل الحسن هو ما استحسنته الله منه، ولذا فإنَّ الفاسق ربّما يكون الفسق في نظره حسنا وليس بحسن، بل الحسن ما طلبه الله منه، كذلك الحسن من الله هو كل ما يأتي به مما يطلبه العبد كما أتى العبد بما يطلبه الله تعالى منه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ } 791، وقال تعالى: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ

789 - النحل 128

790 - الرحمن 60

791 - الزخرف 70 . 73.

إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} 792، وعليه فكلّ فعل خير شأنه من حالة الحسن إلى ما هو أحسن منه، ولذلك فهل جزاء من أثبت الحسن في عمله في الدنيا إلا أن يثبت الله الحسن فيه وفي أحواله في الدارين، وبالعكس هل جزاء من أثبت الحسن فينا وفي صورنا وأحوالنا إلا أن نثبت الحسن فيه أيضا، ولهذا فإنّ الأفعال والصفات الحسان بالمطلق هي لله تعالى الذي يتولّى أمورنا في الدارين رعاية وحفظا.

وعليه: فمن ولاية الله الولي المطلق يستمد الولي بالإضافة صفاته التي تمكّنه من أن يكون وليّا من أولياء الله في الأرض، ليكون من المصلحين المفلحين فيها الأمرين المعروف والناهين عن المنكر.

ولذا فالمؤمن لا شكّ في أنّه يثاب بالجنة فيكون له من الله الإحسان جزاء له ومن جازى عبدا على عمله لا يأمره بشكره، ولأنّ التكليف لو بقي في الآخرة فلو ترك العبد القيام بالتكليف لاستحقّ العقاب، والعقاب ترك الإحسان لأنّ العبد عبد الله في الدنيا ما دام وبقي يليق بكرمه تعالى وأن يحسن إليه في الآخرة ما دام وبقي، فلا عقاب على تركه بلا تكليف، وقد عبدنا الله تعالى في الدنيا لنعم قد سبقت له علينا؛ فهو الذي أعطانا ابتداء نعمة وإحسانا فله علينا شكره وحمده؛ فيكون نفس الإحسان من الله تعالى في حقّهم سببا لقيامهم بشكره.

وقد جعل الولي سبحانه الإحسان من دواعي الأمن في يوم الفزع الأكبر جزاءً منه على إحسانهم في الدنيا: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ

وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {793}.

3- الأمر بالإحسان: لأنه ولي محسن لعباده فقد أمرهم به وحثهم عليه فقال: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} {794}، ومعلوم أنّ وصية الله هي أمر واجب التحقيق وليس لمؤمن إذا أمر الله أن يعصي أمره سبحانه: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} {795}.

والإحسان عند الولي سبحانه من أسس العمل الصالح الذي ينجي، وخلاف الإحسان عنده الفساد؛ فمن أحسن فهو مصلح، ومن يعمل غير الإحسان فقد أفسد، وإذا أفسد عصى أمر ربّه بأن لا يفسد في الأرض ولا يسفك الدماء فيها بغير حقّ، قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} {796}.

793 - البقرة 112.

794 - الأحقاف 15.

795 - الأحزاب 36.

796 - القصص 77.

ولذا فإنَّ الولي لا بدَّ أن يكون مُحسناً وإلا سيلاقي مواجهة من الذين هو وليّ عليهم، سواء أكانت ولاية أمر أبوة وأمومة، أم ولاية أخوة، أم ولاية سلطان؛ فالإحسان صفة حسنة مرضية لكلِّ من يتمُّ الإحسان إليه، ولهذا ينبغي أن يسود الإحسان بين الناس قيمة حميدة، وليحسن الإنسان دائماً كما يُحسن إليه، ومن يعصي هذا الأمر فقد ضلَّ ضللاً كبيراً، قال تعالى: (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ).

والإحسان الذي يأمر به الولي المحسن على نوعين هما:

الأوّل: إحسان قولي: إحسان القول فهو ما ذكره الولي في محكم كتابه في قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} {797، أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فبليّتي هي أحسن حتى تحببهم فيما أمر الله تعالى، والإحسان دائماً وجهه حسن، مع الرِّفق واللين وحسن خطاب؛ فلا إكراه في الدين بعد أن تبين الرُّشد من الغي، كذلك قوله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} {798، فأمر الله تعالى نبيه أن يوصي المؤمنين بالرفق بالكفار واللفظ بهم في القول، وأن لا يعاملوهم بمثل أفعالهم وأقوالهم، اعتماداً لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {799.

797 - النحل 128

798 - الإسراء 53

799 البقرة 256.

والثاني إحسان فعلي عملي: إنَّه الإحسان الكبير فهو كلُّ ما يرضاه الله سبحانه وتعالى ويأمر به من الأفعال فهو من الإحسان، فالأنفاق في سبيله دون منٍّ أو أذى من الإحسان: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 800، وإحسان العمل له عظيم الجزاء عند الولي جل وعلا: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} 801.

إذن الإحسان العملي أن يقدم الخليفة على أداء الأفعال التي ترضي الله فيصلح ولا يفسد، ويعمّر الأرض ولا يدمّر فيها شيئا، وإذا حكم بين الناس يحكم عدلا، وإذا كسب تصدّق وزكّى، وإذا جاء الاعتداء على الدين جاهد بماله ونفسه في سبيل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، وهكذا يكون له في كلّ فعل حسنات مضاعفات، وله أجرٌ كريم من الولي الذي لا يفارق أبدا.

وهنا فالولي في دائرة الممكن هو من يتولّى إدارة أمرا لا يمكنه التحكم فيه بالطلق، ولهذا فهو دائما في حاجة لولي يحفظه من الانزلاق في المحذور، وينهاه عمّا يجب الانتهاء عنه، ويبيّن له المحرّم والمجرّم كي يسلك سلوكا يمكنه به أن يكون قدوة حسنة لغيره من الذين هو وليّا عليهم عن إرادة، ولهذا لا ولاية لولي كرها وغصبا، ومن تولّى ذلك فليس له بدّا من المواجهة والمغالبة كما واجهة الثورة الشعبية الطاغية في تونس ومصر وأسقطتهما إحقاقا للحقّ، وهكذا

800 - البقرة 262

801 - النجم 31

توجه الشعوب الإنذارات كلَّ يوم لولاة أمورها كي يتعظون وينتهوا
ويستقيمون بالتي هي أحسن وإلا سيقومون بالقوّة.

أمّا الولي المطلق فهو المتوّليّ لأُمور الكون كلّها وهو مالكُ
الأشياء جميعها المتصرّفُ فيها كيف شاء ومتى ما شاء، ووليُّنا
سبحانه وتعالى مالك الملك كلّ، وهو المتصرّف فيه، يهبه لمن يشاء،
وينزعه ممن يشاء، وما أكثر الأمثلة على هذه الإرادة فهل من معتبر:
{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ
تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ} 802، مالك الملك معناه القادر على القدرة وبيده كلَّ
خير وكلّ نعمة، والمعنى إنّ قدرة الخلق على كلِّ ما يقدرون عليه
ليست إلاّ بأقدار الله تعالى؛ فهو الذي يقدر كلَّ قادر على مقدوره،
ويملك كلَّ مالك مملوكه، ملكه مطلق ولا شيء خارج عن ملكه،
ومهما عدّنا لن نبلغ إحصاء ملكه، ولهذا كلَّ شيء عنده، وكلّ
شيء منه سبحانه إنّّه الولي الملك المتعال. ولذا فالملك ملكه مادة
وروح ونفس وحكمة ورسالة وكتاب سبحانه مالك الملك الذي لا
يُحصى ولا يعدّ. قال تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} 803، والرُّوح والنَّفْس والنبوّة من أعظم
مراتب الملك؛ فأمر الرُّوح بيده لا يعلمه إلاّ هو، وأمر النَّفس كذلك
ليس بهين، وأمر النبوّة أمر عظيم، والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن
والظواهر بإرادة الولي الذي تولاهم رعاية وعناية ونبوّة ورسالة.

802 - آل عمران 27

803 النساء 54

وقد يكون المراد من الملك، ما يسمى ملكا في العرف، وهو عبارة عن مجموع أشياء أحدها: تكثير المال والجاه، أمّا تكثير المال فيدخل فيه ملك الصامت والناطق والدور والضياع، والحرث، والنسل، وأمّا تكثير الجاه فهو أن يكون مهيبا عند الناس، مقبول القول، مطاعا في الخلق، وهكذا فهو يكون بحيث يجب على غيره أن يكون في طاعته، وتحت أمره ونهيه.

أمّا تكثير المال فقد نرى جمعا في غاية الكياسة لا يحصل لهم مع الكدّ الشديد، والعناء العظيم قليل من المال، ونرى الأبله الغافل قد يحصل له من الأموال ما لا يعلم كمّيّته، وأمّا الجاه فالأمر أظهر، فإننا رأينا كثيرا من الملوك بذلوا الأموال العظيمة لأجل الجاه، وكانوا كلّ يوم أكثر حقارة ومهانة في أعين الرعية، وقد يكون على العكس من ذلك وهو أن يكون الإنسان معظما في العقائد مهيبا في القلوب، ينقاد له الصّغير والكبير، ويتواضع له القاصي والداني.

ولذا فالولي المطلق بيده الأمر الذي به يشرف من يشاء في مرضاته بولاية أو بدون ولاية، وهكذا تكون الولاية ولاية مناصرة؛ وذلك لأنّ مصدر ملك الولي سبحانه من ملكه المطلق، ولكن من يولّى على شيء قليل منه فولايته مؤقتة حيث لا ديمومة إلاّ لملكه تعالى؛ فمن يؤتى ملكا ليتولّى أمره ويرعاه خير رعاية فعليه أن يعلم أنّ ولايته له زائلة، ولهذا وجب الانتباه والاتعاظ، وأخذ الحيطة والحذر حتى لا يكون الاغترار مفسدة لمن تولّى على ما وُي عليه، قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا
أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ {804.

وعليه: إِنَّ الْمَلِكَ مُؤَقَّتٌ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٌ:

الأمر الأول: أَنَّهُ يَزُولُ بِسَلْبِ الْوَلِيِّ هَذَا الْمَلِكِ: {وَاصْرَبْ لَهُمْ
مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَمَنْ تَظَلَّمَ مِنْهُ شَيْئًا
وَفَجَّرْنَا خِلَاهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ
مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ
تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ
خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ
يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأَحْيَطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ
كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ
أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَمَنْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا {805.

والأمر الثاني: حين تحضر الوفاة ويذهب بهذا الملك إلى حفرة
فهل يحمل معه من ملكه شيء؟ يومها لا ينفعه ملك ولا يدفع عنه
بشر يومها الكل يعرف أن الله وحده هو النافع فمن ثقلت موازينه
في عيشة راضية ومن خفت فأمه هاوية، ولهذا جاء قوله تعالى:

804 الشورى 36. 39.

805 - الكهف 32- 44

{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ
الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ
مَنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُونَ
وَجُنُودٌ إِيَّائِهِمْ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا
لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {806}.

والأمر الثالث: يوم تقوم الساعة فهل يبقى من ملك غير الولي
سبحانه مناديا: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ
الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ {807}.

وملك الولي خالص له لا يشترك معه أحد في ملكه: {تَبَارَكَ
الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ
وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا {808}.

وملك الولي من صنعه فهو الخالق؛ فكيف يكون الملك لغير
صاحبه يا أولي الألباب؟ قال تعالى: {حَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي
الصُّورِ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ {809}.

806 - الشعراء 88، 107.

807 - غافر 16

808 - الفرقان 1-2

809 - الأنعام 73

والولي عارف بإسرار ملكه ودقائقه وهو تحت قدرته محكم أمره، وليس لأحد غيره أن يدانيه في ذلك ولو بقليل: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} 810، أي ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فطر السماوات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه، فإذا كان له الملك كله فلا بد أن تكون له العبادة كلها، ثم بين ما ينافي صفة من له الولاية الحقّة، قال تعالى: (والذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ).

ولأنّ الولي هو النافع؛ فهو الوليّ الحميد، ولأنّه الولي الحميد فهو المعزّ لمن يشاء والمذل لمن يشاء، ولذا فهو الولي على من تولاهم رعاية وعناية ونفعا، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْقُلُوبِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 811، وهذا نفع الدنيا أمّا نفع الآخرة فهو ما نصّ عليه الولي سبحانه وتعالى بقوله: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

810 - فاطر 13

811 - البقرة 164

قَدِيرٌ}812، والصدق الذي قابله الولي بالنع صدق كلي بمعنى أن المصطلح لا يقصد به الصدق ضد الكذب فحسب، وإنما يقصد به كل الصدق في القول والفعل، أما صدق القول: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيًّا وَسَفَرًا فَاصِدًّا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّكَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}813، وسيحلفون أي المتخلفون عن الغزو أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك بالله قائلين (لو استطعنا) أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا لفعلنا، وقيل: لا حاجة إلى تقدير القول لأن الحلف من جنس القول وهو أحد المذهبين المشهورين، والمعنى لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتيهما معا814.

وأما صدق الفعل؛ فهو العمل بما يرضي الولي ويقرب إليه: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ عَافُوًّا رَحِيمًا}815.

وعليه: فمن يتولى ولاية أفرادا أو جماعات أو وطن أو أمة واسعة الحدود والمعالم إن لم يكن صادق فيما يقول ويفعل ويسلك ويعمل، سينكشف حاله أمامهم، وسيكون في مواجهة تستوجب إحقاق

812 - المائة 119، 120

813 - التوبة 42، 43

814 - تفسير الألويسي، ج 7، ص 243

815 - الأحزاب 24، 23

الحق وإزهاق الباطل، والقضاء على الذين ناصروا ظلماً أو ضلالاً. ولذلك لا مُنْجِي من الخطأ إلا الاستغفار والتوبة، أي الاعتراف مع وافر النية على العودة إلى الحق من أجل الإصلاح.

فالولي هو الوكيل، والولي الوكيل يتولى كلّ أمور العبد، إلا أنّ العبد قليل ما يتفكّر في ذلك، فهو الذي يرزق مصداقاً لقوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} 816، فالرزق أمر تُوكَل به الولي فلا بدّ للعبد من الانشغال بأمر أخطر من التفكير بالرزق إلا أنّ بعض الناس ينشغل بغير ذلك فيأخذه واهم الأفكار إلى النظر في شؤون الناس والاعتراض على توزيع الولي للأرزاق بين عبادته؛ فيسأل:

. لماذا أنا فقير وفلان غني؟

. لماذا فلان يولى فلان الأمر وأنا لا؟

كلّ هذه الأقوال تُنبئ عن الغفلة وضعف الإيمان مصداقاً لقوله تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةَ رَبِّكَ حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} 817.

إذن الولاية تنظيم علاقات وتسيير أمور، وصناعة مستقبل أفضل، وإيمان بحقوق الآخرين وواجباتهم ومسؤولياتهم وما يجب تجاه كلّ منها، ولذلك لا ينبغي أن يغفل الولي عن ولايته في حدود الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا ينسى نصيبه من الدنيا وأن يعمل من أجل حياة دائمة الولاية فيها الجنة، قال تعالى: {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ

816 - طه 132

817 - الزخرف 32

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ {818، وقال تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا} {819، فَنَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ تَدَلُّ عَلَى انْعِدَامِ الْغَيْرِ، وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ أَي أَحْكَمْنَا رِبْطَ مفاصلهم بالأعصاب والعروق والأسر في الأصل الشدّ والرّبط وأطلق على ما يشدّ به ويربّط.

إذن الولي هو الوارث لملكه من سماوات وأرضين ومن فيهنّ وما بينهنّ يقول الولي تعالى: {والذين آمنوا ولم يُهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء} {820 والولي الوارث هو المالك المتصرّف في خلقه؛ فهو عائد إليه فلا ملك إلاّ ملكه، وعليه يرث الولي كلّ شيء، فهو يرث الأرض ومن عليها من كلّ أصناف المخلوقات وما فيها من موارد قال تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} {821.

والولي يرث الأشياء كلها وذلك يكون بإعادتها إلى أصلها قبل الخلق: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} {822.

وهكذا يجب ألا يضل الولي عن حقّ من يتولّى عليهم في الوطن، وأن لا يجعل نفسه ضعيفة متوهّم أنّه لا غيره يقدر على إدارة أمور

818 - فصلت 31

819 - الإنسان 28

820 - الأنفال 72

821 - مريم 39. 40.

822 - القصص 58

البلاد والمواطنين غيره، كما هو حال الذين طغوا في الأرض فسادا حتى ظنوا أنهم وحدهم القادرون. ومن يغفل عن ذلك فعليه أن يتذكر ما جرى مع زين العابدين بن علي في تونس الثورة التاريخية، وحسني مبارك في مصر الثورة التاريخية، وما يجري مع غيرهم من بعدهم وما سيجري من ثورات تاريخية نأمل لها النصر المؤزر.

وعليه: ينبغي أن يكون الولي على المستوى البشري منقذ للوطن لا مدمر له، كما هو حال الذين عبثوا في أوطانهم فسادا، منقذ له سياسيا واقتصاديا وعلاقيا ونفسيا وثقافيا وذوقيا، وإلا سيجد نفسه في المواجهة مع الحقّ والمحققين له من بني وطنه الذين رضوه وليا عليهم عدلًا لا ظلم، ولذا فبتغييره من كفة العدل إلى كفة الظلم أوجب تغييره إرادة أو ترحيله كرها.

ولذا فالولي هو الله المعتق الذي بيده أمر الخلائق، فهو المعتق من النار في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا فقد ترك لنا عبرة في قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} 823، والقصة شديدة الأثر على المعتبر لعنق الولي لعباده الصالحين،

أما عتق الآخرة فليس لأحد غير الولي أن يعتق أحدا وإن كان حبيب، قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} 824.

823 - الأنبياء 69

824 - عبس 33-37

ومع ذلك قد الولي كتب على نفسه عتق عباده المتقين من نار
نعوذ بنور وجهه من نفحات لهيها فكيف بها؟ قال تعالى: {أَوْلَا
يَذُكَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكُ شَيْئًا فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرُهُمْ
وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ
أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا
وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} 825.

وعليه، فالوليُّ هو المتَّوَلَّى لأُمور الكون وما فيه من الخلائق، ما
نعلمه ونعرفه، وما لا نعلمه ولا نعرفه، ومن يتمكن من معرفة
صفات الولاية فعليه أن يستمدَّ صفاته من صفات الولي المطلق،
وإلا لن تكون ولايته على العدل والحق في شيء؛ فالولي هو النصير
للمؤمنين. {والله ولي المؤمنين} 826.

والنَّاصِر بالإطلاق هو الله سبحانه وتعالى الذي ينصر من يواليه
ومن ينصره، ولا يوجد من يوالي الله مثل سيد الخلق صلَّى الله عليه
وسلم الذي أوقف حياته لنصرة الحق ولنصرة الدين الحنيف، لذا فالله
ينصر من ينصره، وإن ظن البعض أنّ الله لن ينصر النبي صلَّى الله
عليه وسلم فهذا الظن وهم محض، يقول الله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ
أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ
لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعْتَظُّ} 827.

فالولي هو النَّاصِر في الشدائد، والنَّاصِر في إحقاق الحق، وعندما
تبلغ القلوب الحناجر عندما تتوقف أسباب الأرض، تنزل أسباب

825 مريم 63-72

826 آل عمران، 68.

827 الحج 15

الولي النَّاصر الذي لا تمنعه أسباب ولا توصلد، قال تعالى: {فَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ} 828.

وهنا فإنَّ نصر الولي لا انفكاك فيه لأولياء الولي الذين اتبعوه
ونصروه، وهذا الوعد الذي يأتي من قدير كبير جليل هو ما جعل
المؤمنين الذين طردوا وشردوا ونهبت أموالهم يلوذون بجناح الولي،
حتى أنَّ النَّاس قد جمعوا ليكيدهم ويهزمهم فما زادهم ذلك إلاَّ
ثباتا وإيمانا، قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا
لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} 829.

ولذا فإنَّ الولي من النَّاس: هو من ينصر الله وينصر شرعه ويقوم
العدل المرجو على الأرض. والله الولي المطلق ينصر وليه الذي من
صفاته موافقة ما أمر به الله، واجتناب ما نهى عنه.

وكالة ذو الكفل:

ذو الكفل لأته تكفل سبعين نبيا وأنجاهم من القتل، وقال لهم:

اذهبوا فإنِّي إن قتلت كان خيرا من أن تقتلوا جميعا، فلما جاء
اليهود وسألوا حزقيل عن الأنبياء السبعين، قال: إنهم ذهبوا ولا أدري
أين هم، ومنع الله ذا الكفل من اليهود، فلما مرَّ حزقيل على أولئك
الموتى وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم متعجبا منهم، فأوحى الله
إليه: يا حزقيل تريد أن أريك آية، فأريك كيف أحيي الموتى؟ قال:
نعم، فأحياهم الله. هذا قول السدي وجماعة من المفسرين 830.

828 الأنفال، 40

829 آل عمران 173.

830 تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 2، ص 203.

وقال هلال بن يساف وجماعة من العلماء: بل دعا حزقيل ربّه أن يحييهم، فقال: يا ربّ لو شئت أحييت هؤلاء فعمرّوا بلادك وعبدوك، فقال الله: أتحب أن أفعل؟ قال: نعم، فأحياهم.

وقال عطاء ومقاتل والكلبي: بل هم كانوا قوم حزقيل أحياهم الله تعالى بعد ثمانية أيّام، وذلك أنّهم لما أصابهم ذلك خرج حزقيل في طلبهم فوجدهم موتى وبكى وقال: يا ربّ قوم يحمّدونك ويسبحونك ويقدّسونك ويهللونك ويكبّرونك فبقيت وحيدا لا قوم لي، فأوحى الله إليه: إنّني قد جعلت حياتهم إليك، فقال حزقيل: أحيوا بأمر الله، فعاشوا 831.

وقال: وثمّ أصابهم بلاء وشدة من الزّمان؛ فشكّوا ما أصابهم وقالوا: ما لبثنا، متنا واسترحنا ممّا نحن فيه فأوحى الله تعالى إلى حزقيل: إنّ قومك قد صاحوا من البلاء وزعموا أنّهم ودّوا لو ماتوا واستراحوا وأيّ راحة لهم في الموت، أيطنون أيّي لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت، فانطلق إلى جبّانة كذا فإنّ فيها قوما أمواتا، فأتاهم فقال الله: يا حزقيل قم فنادهم، وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرّقت، فنادى حزقيل: أيتها العظام إنّ الله يأمرك أن تكتسي باللحم، فاكنت جميعا باللحم، وبعد اللحم جلدا ودما وعصبا وعروقا وكانت أجسادا، ثمّ نادى أيتها الأرواح إنّ الله يأمرك أن تعودى في أجسادك، فقاموا جميعا وعليهم ثيابهم التي ماتوا فيها، وكبّروا تكبيرة واحدة 832.

وروى المنصور بن المعتمر عن مجاهد أنّهم قالوا حين أحيوا: سبحانك ربّنا وبحمّدك، لا إله إلّا أنت، فرجعوا إلى قومهم بعد ما

⁸³¹ المرجع السابق 204.

⁸³² المرجع السابق 205.

أحياهم الله، وتناسلوا وعاشوا دهرًا يعرفون أنّهم كانوا موتى، سحنة الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوبًا إلا عاد دسما مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت عليهم.

وعليه:

فدو الكفل فاعل الخيرات الحسان وهو الذي أوكل أمره إلى الله الوكيل الدائم، ومن هنا كان ذو الكفيل وكيلا لمن لحقته مظلمة، سواء أكان من الأنبياء الذين تعرّضوا للقتل لولا تدخل ذو الكفل وكفالة حمايتهم وحفظهم، أم أنّهم من غيره، ولهذا فالوكيل هو من يتولى الأمر سواء أكان موكّلا به أم أنّه عند الضرورة وإنقاذ أرواح يتولّى هذا الأمر وكيلا من نفسه، ولهذا فالوكالة في مجملها في طاعة الله هي شرعية. أي أنّ الوكالة ضمان متعارف عليه يمكن أن يوثق عقدا وشهودا، ويمكن أن يكون وفقا لقاعدة التوريث في الدين الإسلامي حيث الأخ الأكبر يصبح وكيلا لبقية أخوته الذين لم يبلغوا ويدركون ما يجب ويقفون دونه وما لا يجب وينتهون عنه.

ولذا فالوكالة قيمة حميدة تتكوّن بدايةً بحسن التّوايا، وتنتهي بالتّسامح بين الوكيل ومن كان وكيلا عليهم، حتى لا يبقى ما يؤثّر سلبا في النفس، حيث لا كمال إلاّ الله تعالى.

فالوكالة تفويض عن إرادة عندما يكون الموكل عاقلا ناضجا عارفا بمبررات التوكيل، ومع ذلك يتحمّل ما قد يحدث من دائرة غير المتوقع، ولكن يظلّ القانون والشرائع والأعراف مصدر للأحكام التي يمكن أن يحتكم إليها ويحتكم بها، وقد تكون الوكالة ليس عن إرادة ولا حتى عن دراية، بل لأسباب القصور يجد المكفول مكفولا من

قبل من هو حريص عليه وعلى سلامة ما ورثه من والديه أو ممن له الحق في أخذ نصيب من ثروتهم وراثته.

وهنا فالوكالة قيمة حميدة وهي ضرورة عند الحاجة لأسباب القصور أو لأسباب ظروف قاهرة؛ فانعدام المقدرة يستوجب وكيلا سواء عند صغر السنّ أو عند فقدان المدركات العقلية التمييزية بأسباب الشيخوخة أو المرض، ولذا فالوكالة تتطلّب ضمنا مكتوب، وضامنا قادر على سلامة الوكالة وفقا لما كتب.

إذن الوكالة عبء ومسؤولية على عاتق من قبل أن يكون وكيلا على ما وكّل عليه، وفوض بشأنه تفويضا صريحا موثقا؛ فالوكالة يمكن أن تكون تفويضا بخصوص الحفظ، حفظ ما وكّل عليه الإنسان إلى حين يأتي انتهاء زمن التوكيل في الزمن المستقبل، أو تفويض تصرف فيما تتمّ الوكالة بشأنه استثمارا حرا يجعله في دائرة الممكن معرّضا لما هو متوقّع ولما هو غير متوقّع.

إذن للوكالة معطيات منها:

. الموكلّ.

. الوكيل.

. شيء يستوجب الوكالة.

. عقد يوثق به موضوع الوكالة.

وهنا فالوكيل هو "المتولّي لتدبير خلقه، بعلمه، وكمال قدرته، وشمول حكمته. الذي تولى أوليائه، فيسرهم لليسرى، وجنبهم

العسرى وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلا كفاه"833، فنعم الوكيل الكفيل بنا وبأرزاقنا؛ فهو الذي تُولى الأمور إليه وهو الولي الكريم، ولذا فالتاس المؤمنون الكرام إذا مسهم ضرٌّ من البعض خدعة وضلالا وتأمرا ليس لهم بداٌ إلا أن يولوا أمرهم إلى الوكيل المطلق؛ فهو نعم الوكيل مصداقا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالُوا هُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾834؛ فالمتوكِّل على الله هو الذي يعلم أنَّ الله كافٍ رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكَّل على غيره.

ولذا فالوكيل المطلق رحيم بمن وكل أمره إليه تعالى؛ فليجمع الناس ليرهبوا المتوكِّل على الوكيل، وما على المتوكِّل على الوكيل المطلق إلا أن يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل" نعم أنا المتوكِّل عليه، الآخذ بأسبابه، المنتصر باعتمادي عليه، لا يخيفني جموع أهل الباطل من مفسدين حاقدين، ولا يرعبني عددهم؛ فعددهم بدد، وجند ربِّي لي مدد ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾835.

فمن اعتمد عليه أعزّه، ومن اتخذه وكيلا نصره؛ فجنوده يملؤون الزمان والمكان، وهو القويُّ العزيز الذي لا يحتاج لجنود ينصرونه، ولكن على سبيل طمأنة المتوكِّل عليه، حتى لا يدخل قلبه أقلُّ من ذرة شكٍّ من أن الوكيل يتركه لتوهم أن الوكيل ينسأه؛ فهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا بأنَّه الوكيل ولا يرتابون

833 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 88.

834 آل عمران 172، 173.

835 -الفتح 7.

ولا يقع في قلوبهم الخشية من قوّة الظلم مهما أعدّ، لأنّه ضعيف بتدبيره وعاجز في تفكيره، ومهما جمع فهو قليل بجمعه ذليل بما يتوهم أنّ فيه العزّ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾⁸³⁶، فتعالوا يا أهل الدّل الذين جمعتم لأهل العزّ، أحيبوا علينا:

- هل تعلمون عددا لجنود الوكيل؟

- هل تعلمون مقدارا لقوّة جند الوكيل؟

- هل لديكم عزّة الوكيل التي يهبها للمتوكّل عليه؟

- هل لديكم القدرة في الجمع بين العزّة والحكمة كما هو الحال فيمن نتوكّل عليه (وكان الله عزيزا حكيما)؟

إنّ إجابتكم بالقطع ستكون بالنفي: لا نعم ... لا نعم ... لا نعم.

أمّا نحن المتوكّلون عليه فنعلم عدد جنوده، فهي فوق العدّ وخارج حدود الإحصاء، لذا فنحن مطمئنون بتوكّلنا عليه، ونعلم أن جنود ربّنا لا يعلم عددها إلّا هو. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾⁸³⁷.

وجند ربّنا الوكيل قد تُرى، وقد لا ترى؛ فهي متعلّقة بقوّة الله الذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط بقدرته البصائر؛ فمن جنده المدركة بصرا الرّيح قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾⁸³⁸

⁸³⁶ لسان العرب، ج 11، ص 735.

⁸³⁷ المدثر 31

⁸³⁸ الأحزاب 9.

ومن غير المشاهدة:

{وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} 839.

فالريح تُحسّ ويُرى أثرها في إطفاء النار أو انتشارها أو في نقل السحاب أو تفرُّقه، وفي نقل اللقاح للثمار أو في خلع الأشجار وهدم البنايات، أو في تحريك السفن أو في إغراقها؛ فهي جنود مطيعة تفعل ما تؤمر؛ فهي للسلام والتعمير وقد ذكرها الله في كتابه فقال: {فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ} 840.

فالريح الرِّحَاءُ من جند الله لنشر الخير، ولجلب المسرة في النفوس بم تتركه من أثر طيب لدى المستفيد منها.

وقد تكون ريح ساكنة، ولكنها مدمرة؛ فتمنع حركة السفن في البحار وتجعل الموج راكدا؛ فهل من محرّك لها من دون الله؟ قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} 841؛ فجند الله جند مستعدون متأهبون لأداء ما يطلب منهم في أيّ وقت، وبأيّ كيفية، وفي أيّ مكان في الأرض والبحر والجو، لأنّه سبحانه المهيمن على ملكه الحافظ لمن يتوكّل عليه بتسخير جنوده له كيفما شاء.

ومع فرضية إمكانية النجاة من الرّيح العاصف والوصول على البرّ، فهل النجاة في البرّ مضمونة؟ بالتأكيد لا، لأنّ من يملك الرّيح في البحر يملك الرّيح في البرّ فيرسلها إلى البرّ فيحدث التصدعات فيهلك من على البرّ أو يرميهم بريح حاصب ترميهم بالحصباء أي

839 الأحزاب 9

840 ص، 36

841 الشورى 33.

بالحجارة؛ فبالله هل ينفع معها مصدّات للريح؟ أو مضادات
للحجارة؟ سؤال إجابته كسابقه!!

فهل يفهم من استخلف في الأرض؟ ويتوجه قلبا وقالبا للوكيل
فيتوكّل عليه، وينطلق في ركب الخلافة؛ فيكون خليفة الله متوكّلا
عليه، أو سيقف متكاسلا خذولا لا يأخذ بالمبادرة في الحفاظ على
دوره في خلافة الله وتعمير الأرض، ومحاربة المفسدين مستعينا بالوكيل
الذي عنده جنود السماوات والأرض.

وعليه فالوكالة قيمة حميدة لأنّ من ورائها وكيل مطلق، حلّ
وحرّم ونهى وجنّب وأمر، ولذا فالوكيل: هو من يتولى الأمر، وهو من
يُرجع الأمر إليه، وهو من يتوكّل بأمر من يوليه أمره رعاية وعناية
وحسن عاقبة.

والوكيل هو دائما وكيل أمر، ووكيل حال، أي وكيل للرعاية
والعناية، وكذلك وكيل حسن تصرف وفقا لكلّ حالة وحال، ووفقا
لكلّ مكان وزمان في الخصوص والعموم.

فمن يقف أمام حركة الكون الطبيعية لا يملك إلا أن يتقهقر
وينزوي ويدوب ويذهب أثره، وهذا لا محالة حال من يفسد في
الأرض الذي ضلّت دعوته وضاعت كلمته وتبدّد أثره فلم يجد وكيفا
يتوكّل عليه؛ فتوجّه داعيا للباطل من وثن وصنم، وفكر فاسد لا
يضرّ ولا ينفع، مع العلم الذي لا يرقى إليه شكّ أنّ المنجي هو الله
الذي ينجيهم برحمته إلى البرّ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي
الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى

فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
عَٰلِينَ بِهِ تَبِيعًا} 842 وعند النجاة إلى البر هل يتحقق الأمن من
خسف؟ أو من ربح حاصب؟ أو الانتصار بأيّ وكيل غير الله؟

فلا منجي إلا الله، ولا وكيل بحق غير الله؛ فهو ينصر من ينصره
ويتكفل بمن ألقى إليه همّه وألجأ إليه ظهره؛ فهو بحق نعم الوكيل.

ومن جند الله الرّيح العقيم التي لا تبقي على شيء إلا وجعلته
كالرّميم الذي لا حياة فيه، سيء الشكل كربه الرّائحة، وقد سخر
إليه هذا الجند على قوم من الظالمين، وهي في خزائن ملكه في
كتائب جنده تعمل بأمره وتدمر بحكمته، وتندفع بمشيئته لنصرة من
يتوكّل عليه، ولتأخذ العبرة من قوم عاد ولنستلهم العظة من قوم تركوا
حقهم في الخلافة معتمدين على قوّة واهية وجند مغلوبين لا محالة
لأنهم وقفوا ضدّ حركة الكون وإرادة الله في تحقيق الخلافة على
الأرض قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَدْرُ
مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ} 843 وما تزال الرّيح العقيم
موجودة لا يمنعها إلا رحمته، وهي من أدوات الوكيل لنصرة المتوكّل
عليه.

وحتى لا نطيل على المتتبع لتجليات الاسم الوكيل نقول إنّ
الوكيل يكفي عبده المتوكّل عليه من كلّ معلوم ومجهول، وصدق الله
في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} 844 بلى الله كافٍ عبده في أيّ
وقت؛ فهو قد كفي آدم عليه الصلّاة والسّلام وذريّته من الخلفاء
الذين تحققت فيهم الخلافة وأرادوا الإصلاح في الأرض من إبليس

842-الإسراء 67-69

843 الذاريات، 41-42

844 الزمر 35.

ووعيده بأنّه سيحتكن ذريّة آدم إن استطاع؛ فيدمرهم ويهلكهم ويقودهم إلى الهلاك، وذلك لأنّ الله قد اختار آدم عليه الصلّاة والسّلام للخلافة، ومن توافرت فيه شروطها من ذريّته وأوّل ما كان من أمر ذلك الاختيار السجود لآدم طاعة لأمر الله وتكرّما للخليفة؛ فكان طاعة ومعصية، طاعة من المبولين على الطّاعة، ومعصية لمن حقّت عليه اللعنة؛ فهدد وتوعّد قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِرَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} {845}، ولكن الله الوكيل من تكفّل بآدم وبحقه في الخلافة لم يترك مكفوله؛ فصرف عنه الشرّ متمثّلا في إبليس ومن سار على نهجه، وأنذره بجند من جند الله، أنذره بالنار التي سيكون لكلّ معترض على الخلافة والخليفة نصيب وافر من عذابها فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} {846}.

فالغرور من الشيطان الذي يعدّ المغبون الملعون بسلب الخلافة حقه ومن يدفع طريد الهداية المتسرّب بالضلّال، المحتمي بالظلم المستنير بالظلام للفساد في الأرض التي أصلحها الله كرما منه لبني آدم فقال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا

845 الإسراء 61، 62

846 الإسراء 63، 64

تَفْضِيلًا {847 فضل الله بني آدم بالخلافة في الأرض على الجنّ
والملائكة الذين كانوا في حضرة السجود وفضلهم على الملعون الذي
طرده من رحمة الله غروره وصلفه، وكرمهم بأن تكفل ووكل أمرهم
ومنحهم شرف عبادته، وكفاهم من سلطان الشرّ والفساد فقال الله
تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ
وَكَيْلًا} 848.

فلا مجال للوصول بشرّ إلى أهل الخلافة لأنّه لا سلطان لأحد
عليهم، لأنّهم قد آثروا الحقّ على الباطل والعمار على الفساد والخير
على الشرّ وهؤلاء خلاصة العباد أخلصهم لنفسه، ووكل أمرهم
واستثناهم دون بني آدم؛ فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا
أَعُوذُ بِنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلِصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ
أَجْمَعِينَ} 849.

ومن عباد الله المخلصين الأنبياء والصالحين والأولياء ومن كانوا
في خفاء برّمة الله فلا يعلمهم إلا الله، مثلهم كمثل اللؤلؤ في
الأصداف لا يُعرفون والله يعرفهم.

وعباد الله المخلصون قد آمنوا بالذكر فذكروا وأخلصوا فأخلصوا
وانتصروا به؛ فانتصروا وغالبوا له فغلبوا به؛ فوكل الله أمرهم وكفاهم،
أمّا من تركوا وكالته وابتعدوا عن ذكره فكفروا وسوف يعلمون عاقبة
كفرهم، مع نفاذ إرادة الله في نصر من توكل عليه، وغلبة من اعتمد

847 الإسراء 70

848 الإسراء 65

849 الحجر 39-43

على أسبابه، ويوضح السياق القرآني هذا في قول الله تعالى في بيان حال المبعدين والمخلصين قال تعالى: {لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ} 850.

فالمبعدون يتمنون لو أنَّ لهم ذكر من الأولين الذين أخلصهم الله، ولكنهم لما أتاهم الذكر كفروا به وشككوا في آيات الله، وهم لا يخفون على الله الذي يعلم ما تخفي الصدور، وما تصدر وما يهمس خاطر وما يهمهم اللسان؛ فهو العليم البصير، وجزاء هؤلاء المبعدين نار جهنم فلا يجدون أمنا، لأنَّ الأمن للمؤمنين الذين آمنوا؛ فأمنوا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} 851.

والمخلصون آمنوا بالذكر ورسَل الله عليهم الصلوة والسلام؛ فكفاهم الله ونصرهم وأمدَّهم بجنده، وجنده منصورون، لأنَّ مددهم من العزيز الغالب.

ومَّا تقدّم نقول بفضل الله وتوفيقه إن اسم الله الوكيل له معان عدة منها:

الأول: المقيم على شؤون الخلق.

850 الصفات 168-172

851 فصلت 41، 42

الثاني: الكفيل برزق العباد.

الثالث: حفيظ لخلقه بتقدير أمر محياهم ومماتهم وبعثهم ونشورهم وحسابهم.

الرابع: الكافي الذي يكفي عباده هم الدنيا وما فيها، وهم الآخرة وما خفي منها بما لا يعلمه إلا هو.

الخامس: الربّ الصاحب المالك الذي لا يملك أمر خلقه أحد سواه.

والوكيل بالإضافة يأتي بمعنى (المتوكّل) الذي يأخذ بالأسباب متوكّلا على ربّه خالقه وخالقها، والمتوكّل في الجانب المشرق أو في الجانب الفاعل الإيجابي.

والمتواكل الكسول الذي غرّته الأمانى؛ فأخذ إلى الهوى، ومال عن طريق الحقّ؛ ففقد نصيبه في الخلافة، هذا المتخاذل في الجانب المظلم الفاسد السلبي.

وسنربط بين الاسم الوكيل وما ورد فيه من معان بين دفتي كتب اللغة والتراث وبين الطرح الذي ننطلق منه وهو تحديد العلاقة بين الاسم والخليفة، وبين الاسم ومن تنازل عن حقّه في الخلافة.

أوّلا:

في أسماء الله تعالى الوكيل ما ورد في كتب اللغة وهو:

- "المقيم الكفيل بأرزاق العباد وحقّيقته إنّه يستقلّ بأمر المؤكول إليه وفي التنزيل العزيز: {أَنْ لَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا} 852 قال

852 الإسراء 2.

الفراء: يقال: "ربًا" ويقال: "كافيا"853. ومن تجلي الله الوكيل إنَّه مقيم أي قائم على شؤون خلقه ومن مظاهر هذا التجلي الآتي:

1- إنَّه القائم على شؤون العباد في أحوالهم كافَّة برعايته لهم في كلِّ زمان ومكان.

2- هو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لأنَّه لو أخذته السِّنة أو النوم لما كان مقيما. ومن لا تأخذه سنة ولا نوم فهو المقيم، ومن تأخذه السِّنة والنوم فليس بمقيم سبحانه جلَّ جلاله.

3- والمقيم هو المدبِّر لأمر الخلق بالتساوي في وقت واحد.

4- والمقيم هو الذي يضع من يشاء على الطريق القويم الذي لا عوج فيه.

5- والمقيم هو القائم على كلِّ نفس بما كسبت مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَضُؤُوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}854.

الثاني: الوكيلُ الحافظ855.

الثالث: الوكيلُ في صفة الله تعالى الذي توكل بالقيام بجميع ما خَلَق856.

853 لسان العرب، ج 11، ص 734

854 الرعد 32-34

855 لسان العرب، ج 11، ص 734

الرابع: الوَكِيلُ الكفيل وَنِعْمَ الكَفِيلُ بأرزاقنا 857.

وفي قولهم: (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ): كافيْنَا اللهُ وَنِعْمَ الكافي
كقولك رازقنا اللهُ وَنِعْمَ الرازق الوَكِيلُ بمعنى الرَّبِّ 858.

وأول ما يلقانا من معان أنَّ الوكيل مقيم على شؤون الخلق، وهو
الوكيل المقيم لأنَّه: الملازم على فعل الشيء بانتظام دون خلل ولا
كلل ولا ملل.

ومن أمثلة الانتظام دون كلل أو ملل:

- سقوط المطر في مواسمه إلا إذا منعه اللهُ فهو جند من جنده
يُسْتَخْدَمُ رحمة وعذابا ثوبا وعقابا، قال تعالى: { اللهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ
رِزْقًا لَكُمْ} 859.

- تسخير الفلك التي تجري في البحر بأمره وبقدرته ولا يجريها
إلا جند من جنوده (الرياح)، فإذا وثب علينا من يقول: أن هناك
المحركات والنفط والطاقة النووية والشمسية فلا حاجة للرياح الآن،
نقول له إنَّ ما تقوله هو من جند اللهُ، وقد منحك العقل لتسخيره
فلا تدفع بنفسك إلى الهلاك كمن قال: {إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عِلْمٍ
عِنْدِي} 860؛ فسبحانه هو الذي سخر الفلك والأدوات التي

856 لسان العرب، ج 11، ص 734

857 لسان العرب، ج 11، ص 734

858 لسان العرب، ج 11، ص 734

859 إبراهيم 32.

860 القصص 78

تجربها في كلِّ زمان ومكان {وَسَحَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ يَدِيهِ} 861.

- تسخير الشَّمس والقمر بصفة مستمرة لا يعترِبها خلل أو اضطراب؛ فقال الله تعالى: {وَسَحَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَحَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَحَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} 862.

فلأنَّه الوكيل الذي إليه أمور الخلق؛ فقد خلق السماوات والأرض بالحقِّ لكي يستفيد منها الخليفة في تحقيق الخلافة، وهذه الاستفادة لا بدَّ لها من أدوات تساعد على تسييرها، لذا فقد حفظ ماء الحياة في السماوات وينزله بقدر موزون في الوقت الذي يراه مفيدا لخلقه دون تمييز، إلا إذا أراد من ذلك الماء أن يغيِّر وظيفته من النفع إلى الضَّرر لحكمة يعلمها هو عزَّ وجلَّ.

وحثَّى تعمَّ الفائدة سحَّر الفُلْكَ لنقل هذه الثِّمار من مكان إلى آخر، كما سحَّر الماء بنوعيه المالح والعذب لمهمة النقل: (وَسَحَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَحَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ) نعم تجري بأمره هو لا بأمرنا نحن، لأنَّه لو أراد أن يعطل حركة الفُلْكَ لأوقف الرِّيح التي تسيِّره ولأوقف الحركة التي أمرها بالمطلق بيده، سبحانه لا إله إلا هو مالك الأمر والملك.

والله خلق الأرض وما فيها لغرض تحقيق الخلافة، وقد تكفَّل بنعيم مقيم للذين يتوكَّلون عليه؛ فلا ينظرون إلى متاع زائل يمنعهم من أداء دورهم السامي، وهذا التَّعيم لا ينفد ولا يزول قد أعدَّه الله للذين على ربِّهم يتوكَّلون، والذين على ربِّهم يتوكَّلون هم المعتدون

861 إبراهيم 32.

862 إبراهيم، 32، 33

عليه في حركتهم وسكونهم، وفي صحوتهم ومنامهم، وفي حياتهم ومماتهم، وفي بعثهم يوم يبعثون، وينبئه الله المنوط بهم أمر الخلافة إلى أن متاع الحياة الدنيا لا قيمة له، لذا لم يعقبه بوصف مثل الغرور أو لقليل، لأنه أقل من أن يوصف في مقابل نعيم الله فيقول الله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} 863.

ولله الوكيل القدرة المطلقة على خلقه لأنه قائم وكيل على مصالحهم:

- فهو سبحانه الذي خلق السماوات والأرض.

- خلق الخلق في الأرض ونشرهم في عموم الأرض ولا يفعل ذلك إلا القائم على شؤون الخلق، المتصرف في أمورهم، الوكيل عليهم بهيئته على السماوات وما فيها، والأرض وما عليها، وما تحويه في باطنها.

- ما يصيب الإنسان من ضرر على الأرض إنما هو من صنع يديه، لا من النظام الذي وضعه القائم على الخلق الوكيل عليهم وصدق الله إذ يقول: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} 864.

⁸⁶³الشورى 36-39

⁸⁶⁴ 41 الروم

فتنقب الأوزون وارتفاع حرارة الأرض والأعاصير والجفاف والجدب وانتشار أمراض ما عرفت من قبل، وغير ذلك الكثير والكثير يمكن رده إلى ما كسبت الأيدي الشريرة الآثمة في تدخلها بالفساد في الأرض، وهذا الفساد هو محكّ السؤال الذي سألته الملائكة لله سبحانه وتعالى وهو سؤال لا شكّ للاستفسار لا للاستنكار قال تعالى: { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 865، فالله حين قال: (إذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة) فالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي به ختمت الرِّسالات، وفي رسالته أجمع بلاغ للناس وأوضح بيان، والخطاب فحواه تبليغ الثقلين والملائكة الكرام، بحقيقة الخلافة وهي جعل خليفة في الأرض في تنفيذ أحكامه من أمر بمعروف، ونهي عن منكر، وإصلاح في الأرض، والأخذ على يد كلِّ مفسد، وإن كان المفسد من ذرية الخليفة الأول آدم عليه الصلاة والسلام، وذلك لأنّ المفسد قد تنازل عن حقه في الخلافة، ببعده عن منهج الحقّ وتخليه عن الوكالة التي أنيطت به ليؤدّيها.

والهدف من الخلافة تنفيذ أحكام الله في الأرض، وبهذا يكون الوكيل بالإضافة أو المتوكّل على الله الوكيل المطلق، وبيان ذلك إنّهُ إذا أخذ منه حقّ أو قهر من ظالم بالاعتداء أو بالحيلة أو بشهادة الزور فماذا يصنع؟

يتوجّه إلى الله بالدُّعاء بأن ييسر له أخذ حقه، ثمّ يتوجّه للخليفة ليساعده لنيل حقه؛ فإن أعانه ذلك المسؤول فقد حقق الخلافة، أمّا إن أهمله ولم يعنه لأخذ حقه؛ فقد تنازل عن حقه في الخلافة، ومرد

كلامنا هذا إلى القول الفصل كلام الله تعالى، إذ يوضح تلك القضية مع نبي الله داود عليه الصلاة والسلام فيقول تعالى: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } 866.

يا داود (إنا جعلناك خليفة في الأرض) الخلافة هنا نيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف والمنوب عنه، وعلى هذا فيكون الوكيل المطلق الذي لا يغيب ولا يموت ولا يعجز عن فعل شيء، يكون وكيلا على غائب وميت وعاجز، وهذا الإطلاق لله، والإضافة للخليفة وعلى هذا الرأي الذي نركن إليه استخلف الله أولياءه في الأرض؛ فالخليفة ينفذ الحكم الإلهي وهو من كان متبعا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وسنته. والاستخلاف على الملك في الأرض والحكم فيما بين أهلها بما أمر الله وفق إرادته التي خلق الناس لها.

. إنَّ استعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالى: (وجعلكم خلائف الأرض) ولا يصل إليها إلا المتوكل على الله الآخذ بأسباب الخلافة.

وعلى ذلك فقدرة الله المطلقة تحيط بمن يتوكل عليه تشمله وتكفله وترعاه، ولا يستطيع أي خارج عن منهج الله أن يفر أو يخرج عن إرادته لا بالجدل أو بالفرار، وهنا نعود لما استشهدنا به من قول الله تعالى في المتاع الذي لا قيمة له والمتاع المقيم الدائم، لنستبين صفات من صفات المتوكلين على ربهم، فما مملك الناس في الدنيا

إلا متاع زائل، لأنَّ المتاع الحقيقي يكمن في طاعة الله في الدنيا والفوز برضاه في الآخرة، وهذا الفوز خير وأبقى، ولا ينال هذا التَّعِيم إلا المتوكِّلون على الله، قال تعالى: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} 867.

وهؤلاء المتوكِّلون من صفاتهم:

- (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ).

- (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ).

- (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ).

- (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ).

- (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ).

- (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ).

- (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ).

ولأنَّ هذه صفات المتوكِّل؛ فهو "يعلم أنَّ الله كافيٌ رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكَّل على غيره" 868. وهنا ننتقل إلى الجزئية التالية التي صدرنا بها البحث في قيمة الوكالة.

867 الشورى، 35-39.

868 لسان العرب، ج 11، ص 734

وعليه فالوكالة قيمة حميدة تستوجب وكيل يُحمد بالمطلق، ووكيل يُقدَّر على وكالته الطيبة الصادقة، ولأنَّ الدين الإسلام دين كفالة؛ فكانت الأبوة خير وكالة طبيعية، والأمومة خير وكالة طبيعية، وهكذا الأخوة من بعد الأبوة هي كفالة للأخوة حتى لا ينحرفون عما يجب الحفاظ عليه والاهتداء به.

ولهذا فالوكالة شرعية مما يجعلها حقَّ للقصر عند البالغين المحترمين العاقلين، من ذوي العلاقة والقرباة أو صلة الدم، ومن زاوية أخرى الوكالة واجب على العقلاء الكرام أدائها ورعايتها حقَّ رعاية. وهي مسؤولية جسيمة خلال فترة حملها من قبل الذين وجب عليهم حملها بمسؤولية، سواء أكانوا أخوة أم من ذوي القرى وفقاً لقاعدة الأحقَّ فالأحقَّ، أو أن تكون الوكالة وفق موثق وعقد مكتوب بين القادرين كلا وفق إمكانياته ومهاراته وخبرته وعلمه وتدبُّره.

ولذا فالوكيل هو من يتولَّى الرِّعاية والعناية لمن وُكِّل عليهم، أو لما وُكِّل عليه، ولهذا فالوكيل على المستوى المطلق هو الله وحده الوكيل الذي تكفَّل برزق العباد؛ فهو وكيل وكفيل وضامن لرزق من يتتقى في حركاته وسكناته وأنفاسه وخواطره ونيتته وسرّه وجهره؛ فيجعل مخرجاً للتقى من كلِّ ضيق وفرجاً من كلِّ كرب، ويسرا من كلِّ عسر، ويكفيه كفاية شمولية تبلغ به إلى ما أراد الله من تنفيذ أمر واجتناب نهي، ولأنَّ التوكَّل عمل وجهه يعقبه رزق وكفايه؛ فقد جعل الله لكلِّ شيء سبباً دفعاً لعباده المتوكِّلين عليه للأخذ بالأسباب؛ فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَخْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا {869}.

ومنهج الله شمل الزمان والمكان على العموم والإطلاق؛
فبالإضافة إلى السياق الأول لنزول الآية نقول:

إنَّ المتوَكِّلَ على الله هو الذي يتَّقِي الله في السرِّ والعلن ويكون
جزاء ذلك:

- (يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ومسألة الرِّزْقِ واسعة؛ فمن
الرِّزْقِ ما هو مادِّي، وما هو معنوي، والمادِّي، قال الله تعالى:
{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ
وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {870}،
فرزق الدنيا المادِّي بالعمل والسعي، ورزق الآخرة برحمة الله تعالى،
وهذا الرِّزْقُ يشبه رزق الدنيا في الاسم لا في الجوهر والحقيقة، قال
تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} {871}.

ودخول الجنة برحمة الله للذين آمنوا وكانوا على ربهم يتوكلون ومن
التوكل الأخذ بالأسباب، بالعمل الصالح من صلاة وصيام وإنفاق
في سبيله بالقول والفعل، وبذل النفس لإحقاق الحق وإزهاق الباطل
ونشر العدل، والسلام والمساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم

869 الطلاق 2-3

870 البقرة 25.

871 محمد، 12.

وأجناسهم وأديانهم، ولأنَّ المؤمن قد أخذ بأسباب التوكُّل فقد نال ما لم ينله المتواكل.

المتواكل: هو الذي غرّته الدنيا ونعيمها الزائل فقد أدخل إلى هواه واعتقد من وهمه وضلاله أنّ الله كما أنعم عليه في الدنيا سينعم عليه في الآخرة، وقد تناسى إنّه قد فشل في اختبار الخلافة وتنازل عن حقّه فيها، وهذا هو لبّ القضية التي خلق من أجلها الإنسان؛ فيقول ذلك المغرور كما أخبرنا الله جلّت قدرته في كتابه: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلًّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنُرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا} 872؛ فالذي كفر بآيات الله ومنها البعث، يعتقد إنّه سينال الآخرة بما ناله في الدنيا؛ فاغتر بماله وولده ولم يأخذ بأسباب النعيم الدائم؛ فضاع منه شرف الأخذ بأسباب الخلافة في الدنيا وشرف الفوز بثواب الله عنها في الآخرة، "وقد نزلت الآية في العاص بن وائل وكان لحبّاب بن الأرت عليه مالٌ فاقتضاه فقال: لا حتّى تكفر بمحمّد، قال: لا والله لا أكفر به حيا ولا ميتا ولا حين بُعثت، قال: فإذا بُعث جئني فيكون لي ثمةٌ مالٌ وولدٌ فأعطيك" 873؛ فهذا العاص قد اعتمد على ماله وولده ووكل أمره لهما، وهما ليسا له بل عليه، لأنّهما ابتلاء واختبار؛ فليعرف من أراد الخلافة هذا؛ فإنّ المال والولد سببان لشكر الله وتنفيذ منهجه، لا للكفر ومعاداة أوليائه وخلفائه الذين يصلحون في الأرض، معتمدين عليه آخذين بالأسباب ذاتها لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض، ومثل آخر ضرّبه الله في كتابه للمؤمن الذي يتوكّل على الله وينتصر

872 مريم، 77-80.

873 تفسير أبي السعود، ج 4، ص 328

به، والكافر الذي يعتمد على الهوى والغرور ولا ينتصر بالله لأنه لم يتَّخذه وكيلاً، قال الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَمَ تَظْلِمُ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا هَمْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} 874.

فرجل مغرور بماله قد أعطاه الله له للاختبار؛ فكفر بربه وظنَّ ظنَّ السوء بأنه لن يزول ناسيا قدرة الله عليه، وأنه خلقه من نطفة لا قيمة لها وسواه رجلا ليعرف طريق الهداية، ولكنه ضلَّ بما ليس له وبقوة ليست منه، وغرَّته أوهامه بأنه سينال عند الله ما ناله في الدنيا بالرغم من صلفه وعنته وكفره؛ فهذا حال من أحوال المتواكل المغرور بالقوة الفانية من مال وولد، أما المؤمن المتوكل على الله فقد أيقن أنَّ الله هو الرازق المانح الكفيل بأن ينعم في الآخرة، كما أنعم في الدنيا إن شكر الإنسان وأقرَّ بأنَّ المنعم المتفضل هو الله؛ فلا يكفر الخليفة بربه ويردَّ ما لديه من قوة إلى المصدر الأول لها، ولا يغرَّ ولا يفتخر ولا يتعالى، بل يزداد توكلًا على الله سبحانه وتعالى.

وما أشدَّ الفرق بين المؤمن والكافر، بين المتوكل والمتواكل، بين الذي على بينة من ربه وهدى ونور، وبين الذي على الضلال واتبع

سوء عمله مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} 875.

ولذا فالوكالة مسؤولية تستوجب الحرص والأمانة والثقة، والتضحية من أجل الآخرين أقارب كانوا أم أبعاد، وخير وكالة هي التي تكون في طاعة الله وفقا لما أمر به ونهى عنه.

إذن يجب على الوكيل أن يكون على مستوى المسؤولية حريصا على سلامة ما وُكِّلَ عليه، ووفقا للموثق أو العقد إن كان من أجل الاستثمار أن يستثمر فيما يفيد وينفع، وأن يكون في أوجهه الحلال المرغوبة والمقدّرة من الخالق والمخلوق الكريم.

فالوكيل الكريم هو الذي أخذ بأسباب الهداية وعمل للنّعيم المقيم وتوكل على الله فجزاه الله برحمته النعيم الذي لا يحول ولا يزول، وقد ضرب الله لذلك النعيم مثلا على سبيل التقريب لا على سبيل الوصف المماثل، ثمّ أردف بالتعجب من حال الكافر الذي سيخلد في النار ولا يشرب إلا الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء، فقال عزّ وجلّ: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} 876

ولذا فالوكيل الحقّ هو الذي يأخذ وكالته بالأسباب الحقّة التي تجعله من المستخلفين فيها إصلاحا وإعمارا وبناءً وفلاحا، وأنّ يسمو بروحه إلى قمم الفضائل الخيرة في مرضاة الله في الدارين، وهذا

875 محمّد، 14

876 - محمّد، 15

ما يسعى له الخليفة سموًا بالروح وسموًا بالجنس الإنساني من البهيمية الحيوانية إلى الروحانية كما جاء في قول الشاعر:

إني أسوق الروح إلى ملأ علا... غيري يسوق بهيمة الأنعام⁸⁷⁷.

فالخليفة هدفه السمو بالروح إلى المعاني السامية والأغراض النبيلة، ومما لا شك فيه أنّ من تلك المعاني السامية والأغراض النبيلة تحقيق الخلافة من تعمير وإصلاح، وبناء وتعليم وزراعة وكفاية لحقّوق من كرمهم الله وأراد أن يكونوا خلفاء، وهذا من الرزق المادّي الذي يعدّ أساسا من أسس السمو بالروح.

وغير الخليفة من الذين يتمتعون ويلهون متعة بهيمية ويلهون لهوا حيوانيًا يسوقون أجسادهم لمتع زائلة كما تساق البهائم من الأنعام.

والرزق المادّي في الدنيا غير مرفوض ولا يُنهى عن الأخذ بأسباب استخراجها، ولكن المهم في كيفية الانتفاع به واستخدامه وهذا دور الخليفة الذي يدعو إلى أخذ الأسباب، من توكل على الله، والعمل والكّد باستخراج ما في الأرض من خيرات.

ومن التوكل على الله الجمع بين الصبر والتوكل فيكون ضمان الرزق من الله قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ⁸⁷⁸.

⁸⁷⁷ ديوان الإمام فخر الدين البرّهاني، ص 76

⁸⁷⁸ العنكبوت، 59، 60

فقد ذكر الله الصبر والتوكّل وفي الأمرين استغراق للزّمن الماضي والحاضر والمستقبل؛ فالماضي لا ندركه ولا قدرة لنا على استرجاعه والعمل فيه ولا يؤمر الإنسان فيه بشيء؛ فبقي الحاضر ويصلح معه الصبر، وبقي المستقبل ويصلح معه الوكالة بما فيها من التوكيل، ومن هنا فالخليفة يصبر على ما يصيبه من الأذى في الحاضر، ويتوكّل على الله فيما يحتاج إليه في المستقبل، ولأجل ذلك علينا أن نتوقّف قليلا عند الزّمن الذي يحتوي في تقسيماته الماضي والحاضر والمستقبل لتبيّن الأمر، ولنتبيّن ذلك الأمر علينا بالتوقّف عند (الآن) التي هي المكوّن الرابط في كلّ زمان.

يقول ابن سينا: (الآن) هو (دائما وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله)879. فالآن كالعلامة على الزّمان ويشار به إلى الوقت الحاضر الذي يربط الزمن الماضي والمستقبل اللذين هما الآخرين علامتين على الزّمان، والزّمان متّصل غير منفصل، أمّا الوقت الذي هو المتكوّن من الماضي والحاضر والمستقبل فمتجزئ بأحداثه.

ولأنّ المستقبل هو الوقت المنتظر لقضاء زمن الوكالة؛ فهو الذي يحتوي على الآمال وهو المتطلّع إلى ما هو متوقّع استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمدّ المستقبل قوّته وتطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن وفقا للموثق العقدي للوكالة.

⁸⁷⁹ إبراهيم العاتي، الزّمان في الفكر الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، دار المنتخب

العربي، 1993م، ص 183.

ولذا لو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أماناً، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا من اجل سلامة الوكالة وحفظها وحفظ أصحابها من كل شرّ.

عليه إنّ ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضرا في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلا في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحا في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أم موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، ولهذا الحرص كل الحرص على ما يوكل الإنسان عليه ذلك لأنه سيجد كل شيئا محضرا أمامه يوم القيامة، مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} 880.

تؤكد هذه الآية على أنّ كل عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزمن المستقبل، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي، بل إنّه العمل الذي قد تمّ من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالحزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية، بل إنّها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرتنا خيرا لكي يكون لنا مستقبلٌ خيّر. وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تمسى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها

أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزّمان والحركة،
 {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَمِنْهُمْ مِمَّا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 881. تؤكد هذه الآية على أنّ كلّ شيء
 وجد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك
 عجزت عن إحصائه مع أنّه محصى من قبل الخالق عزّ وجلّ، ولهذا
 كلّ عمل قد حدث سيكون حاضرا في المستقبل لتتمّ المسألة
 ويتحقّق له الجزاء؛ فمن عمل خيرا فلنفسه ومن ضل فقد ضيّع كلّ
 شيء، وحتى لا يضيع كلّ شيء بأسباب ضياع ما وكلّ الإنسان
 عليه؛ فعليه بحفظ الأمانة وهي الوكالة التي سيكون مسؤول عليها
 مرتين: مرّة في الدنيا من قبل الذين يتعلّق بهم أمرها، ومرّة في الآخرة
 من قبل الوكيل الدائم جلّ جلاله.

وعليه من مستوجبات نجاح الخليفة في ممارسة حقوقه وأداء
 واجباته وحمل مسؤولياته أن يراعي الزّمن ولا يهدره فيما لا يرضي
 الوكيل، الذي به آمن وأولى أمره إليه، وهذا لا يعني أن يترك أمره
 للوكيل وهو على حالة من الاتكالية؛ فالوكيل قال أعملوا وانتم
 متوكلون فيما تعملون على الله الذي بيده الأمر والملك. {وَلِكُلِّ
 دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِعَافٍ لِّمَنَّا يَعْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْعَنِيُّ ذُو
 الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ
 مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا
 قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ
 عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} 882، وقال تعالى: {وَقُلْ
 اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمٍ

881 المجادلة 6.

882 الأنعام 132 . 135.

الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَخْرُوجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ
 إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {883، وقال تعالى:
 {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ
 يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
 أَحَدًا {884، وقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ
 بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُدُوبَ عِبَادِهِ حَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ
 حَبِيرًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا
 تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا
 سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ
 يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا
 وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا
 وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
 إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
 بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
 الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ
 لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا
 يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّعْنِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ
 رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
 أَرْوَاحِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ
 بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا

883 التوبة 105، 106.

884 الكهف 110.

وَمَقَامًا قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ
لِرِأْسَاءِ {885}.

والمتوكل على الله صبور، ولهذا فالصبر والتوكل صفتان لا
تجتمعان إلا مع العلم بالله وقدرته؛ فمن العلم بالله يعلم الخليفة إنَّه
تعالى الرازق ذو القدرة المطلقة على الرزق في كل مكان وكل وقت،
فيلزم الصبر والتوكل على الله، ولذا فالتاس من حيث التوكل قسمان:

- قسم قادر على الخروج وهو متوكل على ربه، يترك الأوطان
وفارق الأهل والإخوان طلبا للرزق بصبر وتوكل، قال تعالى: {وَإِنْ
عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ
وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} {886}، وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ
فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِم) {887}.

والإقامة برفق لأنه لا رزق بغلظة.

- وقسم خانع خاضع عاجز وهو يصبر بتوكل لا بتوكل؛ قال
تعالى: {وَكَايِن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رَزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ
السميع العليم} {888}.

وفي الجمع بين الصبر والتوكل (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون)
ذكر ما يساعد على التوكل وهو بيان حال الدواب، ويأتيها كل يوم

885 الفرقان 58 . 77.

886 النحل 126 . 128.

887 مسند أحمد، ج 3، ص 355

888 العنكبوت 60.

برزق جديد، والمطلوب منا أن نتخطى درجة الدواب؛ فنسعى صبرا وتوكّلا بالعمل على الله الوكيل.

والرزق يتطلّب الشكر والشكر فيه الزيادة فيضا من الله على الشاكر المتوكّل على الله سبحانه، قال تعالى: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} 889.

ويوضّح الله تعالى إنّ الرزق المعنوي أفضل من الرزق المادّي، والرزق المعنوي عند الله؛ فقد خلق الرزق المادّي للاختبار في دار الفناء، قال الله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} 890.

ولهذا أخبر تعالى أنّ المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأنّ الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسرّه، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحبّ، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبرّ والدين، وقيام بحقّ الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، وكلّ أعمال الخير والإصلاح في الأرض والإعمار فيها، وكلّ هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا، وخير أملا؛ فتوابعها يبقى، ويتضاعف، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة؛ فهذه التي ينبغي أن يتنافس عليها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهد، وضرب الله مثل الدنيا وحالها وذكر أنّ فيها نوعين:

889 سبأ، 15

890 الكهف، 46.

- نوع من زينتها، يتمتع به قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرتة وهو المال والبنون.

- ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام وهو (الباقيات الصالحات).

ولمقارنة المادي بالمعنوي يقول الله تعالى: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا} 891

فالله يزيد المهتدين بالإيمان به والتوكل عليه بما ينزل عليهم من الآيات والدلائل التي تؤدي إلى تمسك المؤمن بما انزل الله، والعمل بما أراد ليحقق الخلافة على الأرض، مع العلم واليقين ببقاء الأعمال والأقوال الصالحة التي يرجو بها الخليفة طاعة ربه (والباقيات الصالحات) لأنها بلا أدنى شك (خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ مراداً) في الدنيا وفي الآخرة.

ومن التوكل على الله تسليم الأمر إليه وحده، والاعتماد عليه في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة، لذا فنحن نعيش في نعمة الله الوكيل لأننا مسلمون له.

ومن التوكل في أبهى صورته ما جاء على لسان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم قال الله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ

نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {892}.

فإنَّ من يرغب (عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) أَبِي الأنبياء بعد ما عرف من فضله لأنَّه الداعي إلى التوحيد والتسليم لله والتوكُّل عليه (إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) ومن السفاهة الجهل بحقيقتها التي خلقت من أجلها؛ فالنفس لا تطمئن إلا بالرجوع إلى ربِّها ومن الرجوع: رجوع اختياري في الدنيا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ورجوع إجباري بدعوة الله لها بأن ترجع إليه { يَا أَيُّهَا النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي } {893}.

وهذه الدَّعوة الطَّيِّبة لا تتأتى إلا من خلال توجه الإنسان للهدف الذي خلقه الله من أجله وهو التسليم والتوكُّل عليه، لا بجهل قيمة نفسه وامتثالها بالبعد عن منهج الخلافة من تسليم وتوكُّل على الله، كما إنَّه لا أرشد ولا أكمل مِّن رَّغب في ملة سيدنا إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام الذي اختاره الله في الدنيا.

892 البقرة 127--133

893 الفجر 27-30

(وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) فَأَسْلَمَ لَهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، لِذَلِكَ قَدْ
أَثَابَهُ فِي الآخِرَةِ (وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) الَّذِينَ لَهُمْ أَعْلَى
الدَّرَجَاتِ بِتَوَكُّلِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ.

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ) وَهَذَا أَمْرُ اللَّهِ لِمَنْ يَرِيدُ الثَّوَابَ فِي الدُّنْيَا
وَالْفَوْزَ فِي الآخِرَةِ، وَالْجَوَابُ بِمَا قَالَهُ نَبِيُّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ الَّذِي قَالَ: امْتَثِلَا وَطَاعَةَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ
العَالَمِينَ) أَسَلَّمْتُ إِخْلَاصًا، أَسَلَّمْتُ تَوْحِيدًا، أَسَلَّمْتُ مَحَبَّةً،
أَسَلَّمْتُ إِنَابَةً، أَسَلَّمْتُ تَوَكُّلًا عَلَيْكَ يَا رَبِّ؛ فَأَنْتَ حَسْبِي وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ، ثُمَّ أَوْرَثَ ذَلِكَ الْيَقِينَ وَالتَّوَكُّلَ وَالتَّسْلِيمَ فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَوَصَّاهُمْ
بِالإِسْلَامِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي ذُرِّيَّتِهِ،
وَتَوَارَثَتْ فِيهِمْ، حَتَّى وَصَلَتْ لِنَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ فَوْصَى بِهَا بَنِيهِ،
وَتَكَرَّرَتْ الدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلَامِ بِتَرْكِ الأَمْرِ لِلَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالخُرُوجِ مِنْ
الْحَوْلِ وَالقُوَّةِ وَالْحَسْبِ وَالنَّسَبِ إِلَى حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ وَأَمْرِهِ وَحُكْمِهِ
لَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى صَاحِبُ الأَمْرِ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ
مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ 894، وَلَأَنَّهُ صَاحِبُ الأَمْرِ؛ فَهُوَ الْوَكِيلُ الَّذِي
يَلْجَأُ الْكُلَّ إِلَيْهِ، وَيَسْلَمُونَ أَمْرَهُمْ لَهُ، لِأَنَّ إِرَادَتَهُ أَنْ يَسْلَمَ لَهُ الْخَلْقُ؛
فَجَعَلَ دِينَهُ الإِسْلَامَ وَلَا خِلَافَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا حُجَّةَ إِلاَّ الْقَوْلُ
(أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ) وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ لِلْعَالَمِ بَانَ يَعُودُوا إِلَى الإِنْقِيَادِ لِلَّهِ
وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ وَمَا
اِخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ
أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ 895.

894 - الروم، 3

895 آل عمران، 19، 20.

ومن التوكّل على الله والتسليم له والانقياد لأمره واليقين بأنّ الله تعالى ما سكن في الليل، وتحرك في النهار، وهذا يدلّ على الاستغراق الزمّني والمكاني، وبما أنّ له أمر ما سكن؛ فله بالتّالي أمر المتحرك في الزّمان والمكان كما سبق أن أوضحنا، وحال المؤمن المتوكّل على الله يقول في عجب: هل آتخذ من دون الله ولياً وهو خالق السماوات والأرض؟ وهو يطعم الخلق جميعاً، الساكن والمتحرك، ولا يطعمه أحد فيحفظ الخلق لأنّه وكيل عليهم حافظ لهم، وهو جلّت قدرته لا حاجة له فيهم إلّا نفعهم، ونفعهم في عبادته، وهذا ما جاء في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} {896} ومن يعرف ذلك لا بدّ وأن يسلم لله ويعلم انقياده التّام له، ويتعد عن الشرك به، ولا يتخذ من دونه وكيلاً، تصديقا لقوله تعالى: {أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً} {897}، ويظهر ذلك التسليم في قول الله تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَعْبَرِ اللَّهُ أَخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْقُورُ الْمُبِينُ} {898}.

والمراد هو المنع من اتّخاذ غير الله تعالى ولياً ووكيلاً. لأنّه فاطر السماوات والأرض، وهو الذي يطعم ولا يطعم، ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتّخاذ غيره ولياً ووكيلاً. أمّا بيان إنّه فاطر السماوات

⁸⁹⁶ الذاريات، 56-58.

⁸⁹⁷ الإسراء 2

⁸⁹⁸ الأنعام، 13-16.

والأرض، فالأَنَّ ما سوى الواحد ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقع موجوداً إلا بإيجاد غيره؛ فنتج أَنَّ ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه؛ فثبت إِنَّه سبحانه هو الفاطر لكلِّ ما سواه من الموجودات، وأمَّا بيان إِنَّه يطعم ولا يطعم فهذا لأنَّ الإطعام عبارة عن إيصال المنافع، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع. ولما كان هو المبدئ لكلِّ ما سواه من المخلوقات، كان لا محالة هو المبدئ لإيصال جميع المنافع، ولما كان واجبا لذاته كان لا محالة غنياً ومتعالياً عن الانتفاع بشيءٍ آخر؛ فثبت بالدليل القاطع صحة أَنه تعالى فاطر السماوات والأرض، ولهذا امتنع في العقل اتخاذ غيره ولياً، لأنَّ ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده إلى الله الغني القوي، والله سبحانه وتعالى هو الغني لذاته الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ضربٌ من مخالفة العقل والمنطق.

فقوله تعالى: (قل أغير الله أتخذ ولياً) يمنع القرب من غير الله تعالى. وهذا يقتضي ممن أراد الخلافة تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى فلا يجعل في قلبه يقيناً إلا بالله، وقطع العلائق عن كلِّ ما سوى الله تعالى، ثمَّ قال تعالى: (قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) ذلك أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سابق أُمَّته في الإسلام لقوله {وَبَدَلِكُ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} 899.

والنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ الْمُتَوَكِّلِينَ الْمُسْلِمِينَ اللهُ أَمْرُهُ رَبُّهُ بقوله: {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبَدَلِكُ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} 900 وهذه الآية

899 الأنعام، 163

900 الأنعام 162.

الكريمة تدلُّ على إنَّه عليه الصَّلَاة والسَّلَام مؤدِّي العِبَادَة مع الإِخْلَاص، وأكَّد الله ذلك بقوله تبارك وتعالى: لَا شَرِيكَ لَهُ، وهذا من أقوى الدَّلَائِل على أَنَّ شَرْطَ صِحَّة الصَّلَاة أَنْ يُؤْتَى بِهَا مَقْرُونَةً بالإِخْلَاصِ، والإِخْلَاصِ على وجهين:

- الإِخْلَاصِ فِي الْحَيَاة بِأَنْ يَكُونَ الْمَهْدَفُ مِنْهَا طَاعَةُ اللَّهِ بِالْإِسْلَامِ لَهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَاسْتِنْفَاذُ الْعَمْرِ كُلِّهِ فِي جَعْلِ كَلِمَةِ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الْبَاطِلِ هِيَ السُّفْلَى وَلَا يَتَأْتَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

- الإِخْلَاصِ فِي الْمَمَاتِ بِالْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا وَالْقَلْبِ غَيْرِ مُتَعَلِّقٍ بِهَا وَقَدْ اسْتَفْرَغَهَا الْمُؤْمِنُ مِنْ قَلْبِهِ بِالْكَلِيَّةِ، وَمَلَأَ قَلْبَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَلَا يَتَوَجَّهُ إِلَّا لِلَّهِ فِي الصَّلَاةِ وَالْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ وَالنُّسْكِ وَالْفُرُوضِ وَالنَّوَافِلِ.

وَمِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ مَا وَرَدَ فِي حَشْدِ مِنَ الْآيَاتِ نَذَرَ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } 901، وَهِيَ دَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ لِلْجُوءِ إِلَى الْوَكِيلِ النَّاصِرِ وَهُوَ فَعَلَ أَمْرًا وَاجِبَ التَّنْفِيزِ يَا مَرِيدَ الْخِلَافَةِ هَلَا اتَّخَذْتَ الْمَنْهَجَ وَتَدَبَّرْتَ تَفَاصِيلَهُ الَّذِي لَا يَوْجَدُ فِيهِ اخْتِلَافٌ، لِأَنَّ هَذَا الْمَنْهَجَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.

وَلِأَنَّ الْوَكِيلَ الْمَطْلُوقَ، فَلَا تَوَكَّلَ إِلَّا عَلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِهِ يُذَلَّ حَيْثُ لَا اعْتِمَادَ إِلَّا عَلَى الْوَكِيلِ الْمَطْلُوقِ؛ فَالْبَشَرُ هُمْ فِي دَائِرَةِ النِّسْبَةِ، مُتَقَلِّبُونَ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِالْوَكِيلِ الْمَطْلُوقِ فَلَا يَسْلَمُ أَمْرُهُ لْغَيْرِهِ، وَلِذَا لَا وَكَالَهَ بِالْمَطْلُوقِ إِلَّا لِلْحَقِّ الْمَطْلُوقِ، وَالْوَكِيلُ هُوَ الْمَهْتَمُّ بِالْأَمْرِ دُونَ مِقَابِلِ الْحَاجَةِ، إِنَّهُ الْخَلَّاقُ الرَّزَّاقُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ.

- وَفِي التَّوَكُّلِ الْكُفَايَةُ لِأَنَّه الْكَافِي الَّذِي يَكْفِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ.

901 النساء، 81، 82..

- ومن التوكّل تدبّر القرآن لأنّه المنهج الأمثل للمتوكّل، لأنّه من لدن حكيم خبير، وليس من فعل بشر، أو من تلقين معلم، لذا فلا مجال لنقص فيه من خلاف وتعارض.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ أَهْلِهَا النَّاسَ وَيَأْتِ بِأَحْرَبِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} 902.

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وذلك لكونه غنيًا عزيزًا لا يجب العوز والحاجة في صفاته، وجميع المخلوقات تدل بم حاجتها إلى غناه، وتدل بهذه الحاجة إنّه الغني المطلق، ولهذا لا يجب التوكّل إلّا عليه (وكفّي بالله وكيلا) في تدبير أمور الخلق في كلّ الأمور فلا بدّ من أن التوكّل عليه لا على أحد غيره، وهذا ما يقوم به الخليفة المتخلّق بالاسم الوكيل فلا يعرف اعتمادا ولا استنادا إلّا عليه.

ويخبر تعالى عن ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرا وشرعا؛ فتصرّفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين من أهل الكتب السابقة ومن اللاحقين أمّة الإسلام بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال: (وَإِنْ تَكْفُرُوا) بأن تتركوا تقوى الله والعمل بكتابه والإسلام له والتوكّل عليه، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فإنّكم لا تضرّون بذلك إلّا أنفسكم، ولا تضرّون الله شيئا، ولا تنقصون من ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون

902 النساء، 131-134.

له خاضعون لأمره. قال تعالى: (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) فله الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء بالليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم؛ فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئاً، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون. وهذا ما ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيم يرويه عن رب العزة: "عَنْ أَبِي ذَرِّعِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَزَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَعْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَحِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوفِّيْكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ" 903.

ومن تمام غناه أنّ له الكمال المطلق إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له في كلّ صفة من صفاته الكمال المطلق فيها، ومن ذلك فهو الغني المطلق والوكيل المطلق، ومن تمام غناه إنّّه لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه لأنّه لا يتوكّل على أحد؛ فالكل فقير إليه ويتوكّلون عليه، لأنّهم يحتاجون إليه وهو لا يحتاج إلى أحد⁹⁰⁴.

وهو الوكيل على كلّ شيء، القائم على شؤون خلقه بتدبير أموره على وجه الكمال والتمام بما تقتضيه حكمته البالغة وعلمه المطلق، وقدرته النافذة لأنّه له جنود السماوات والأرض وذلك من كمال الوكالة؛ فإنّ الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، وامتلاك القوّة والقدرة على التنفيذ والتدبير، ولكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة بمنافع من يتوكّلون عليه؛ فلا ينقص من مصالحهم شيء، لأنّ الوكيل هو الله والله تعالى منزّه عن كلّ نقص.

ومن تمام التوكّل على الوكيل لجوء المكروب المضطر إليه فيكفله الوكيل ويحميه، ومن التوكّل على الله الانتصار به وله، ومن توكّل عليه حفظه ونصره وهذا ما حدث في بدر وحدث في مواطن كثيرة وسيحدث إن شاء الله في مواطن يحتاج إليها المتوكّلون عليه. قال الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّيِّبِ الْجُمُعَانَ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ

⁹⁰⁴ تفسير السعدي، ج 1، ص 207.

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ
لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ
بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا
أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {905.

ومن آيات الله يمكن أن نستخلص بعضا من صفات الوكيل
بالإضافة كما يقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا
لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {906.

- الإيمان بالله ربًا واحدا مالكا للملك وكيلا معينًا.

- الخوف من الله الذي سيحاسب الإنسان على ما قدّمت
يده، ويراقبه من الميلاد حتى الوفاة في مدة الاختبار والابتلاء؛
فيستشعر الخليفة هذا المعنى العظيم؛ فيخاف منه حبا فيه، لأنّه
سبحانه لا يستحقّ المعصية بعدما أوجد الإنسان وسخر له الأرض
وما فيها وما عليها، ليقوم الخلافة الإلهية عليها.

- التوكّل على الله في كلّ شيء لأنّه الحافظ القيوم الرازق القوي

المتين.

⁹⁰⁵ آل عمران، 166-173.

⁹⁰⁶ الأنفال، 4. 1.

- إقامة الصلّاة، فهي الصلّة بين الإنسان وربّه دون حجاب ودون واسطة؛ فيها ينتقل المرء من عالم الملك على عالم الملكوت، وتسمو روحه وتخلّق في أنوار لا حصر ولا وصف لها.

- الإنفاق من رزق الله الذي وكلهم عليه، ومن ذلك حسن التوظيف للمال وتوجيهه لمساعدة المستحقّ للمساعدة، وتعدّد جوانب الإنفاق حسب الحاجة، لأنّه بعدم الإنفاق يكون الهلاك للبخيل الممسك وللفقير المحتاج وصدق الله في قوله: { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } 907.

عن ابن عباس: "ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"، قال: ليس التهلكة أن يُقتل الرَّجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله" 908.

وسبيل الله في مصارف عديدة، ومن هنا فالبخل هلاك للنفس وللغير، للنفس بحرمانها من طيبات الله في الدنيا ومن نعيم الله في الآخرة؛ فمن يملك المال في مكان ما ويكنزه مع حاجة المكان لبناء مدرسة أو مستشفى أو مسجد أو مصنع أو مسكن ويقصر في ذلك بحجب المال ومنعه بكنزه أو بالانتفاع الشخصي به؛ فهو قد أهلك نفسه وغيره.

. وجزاء من يؤمن بالله ويخافه وينفق في سبيله ولا يبخل بالنفس والمال رزق من الله ومغفرة.

⁹⁰⁷ البقرة، 195.

⁹⁰⁸ تفسير الطبري - ج 3، ص 584

وفي مجال الإنفاق فقد جعل الله الغني وكيفا على المال بشرط عدم البخل على الفقراء لأنهم عيال الله أي عالته المسئولون منه، لذا فقد جعل الثواب الجزيل للمنفق في سبيل الله في صور الإنفاق المختلفة.

والوكيل بالإضافة الذي يعلم تمام العلم أن الرزق بيد الله؛ فلا يخشى بأس أحد أو ظلم أحد؛ فيأخذ في أسباب السعي للحصول على الرزق وهذا من صور التوكل التي عرفنا إيّاها الحبيب صلى الله عليه وسلم فقال: "لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"909.

لذا التوكل هو الأخذ بالأسباب" وقال الله تعالى: ﴿وتزودا فإنَّ حَيْرَ الرَّادِ التَّقْوَى﴾910، ولذا تؤخذ الأسباب بالتوكل على الله الوكيل المطلق جلّ جلاله، الذي آمن به المستخلفون في الأرض وأولوه أمرهم طاعة تامة لا شريك له، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

ولذا فمن التوكل المحمود عدم الاستعانة إلا بالله؛ فنحن نقول (إياك نعبد) فأنت الوكيل علينا، ولما كنت أنت الوكيل علينا فقد سلمنا لك أمرنا إليك و(إياك نستعين) عليك لا على غيرك مع الأخذ بالأسباب كما أمرتنا، فنلقي البذرة في الأرض بعد حرثها وتهيتها ونرويها بالماء ونتوكل عليك في إخراجها، وكذا في كل أمور حياتنا إخلاصا في العبادة وإفرادا في التوكل والاستعانة.

909 سنن ابن ماجه - ج 12، ص 199

910 البقرة 197

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ" 911.

وعن ابن عَبَّاسٍ، قَالَ: "كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} ". تزودوا فلا تؤذوا الناس بسؤالكم إياهم، واتقوا الإثم في أذاهم بذلك.

وفيه: إِنَّ التَّوَكَّلَ لَا يَكُونُ مَعَ السُّؤَالِ، وَإِنَّمَا التَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ دُونَ اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ فِي شَيْءٍ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) اِخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلْفِ وَالْخَلْفِ فِي حَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ، فَحَكَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلْفِ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا يَسْتَحَقُّ اسْمَ التَّوَكُّلِ إِلَّا مَنْ لَمْ يُخَالِطْ قَلْبَهُ خَوْفٌ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ سَبْعٍ أَوْ عَدُوٍّ حَتَّى يَبْزُكَ السَّعْيُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ثِقَةً بِضَمَانِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ رِزْقِهِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: حَدَّهُ الثِّقَّةُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالْإِثْقَانُ بَأَنَّ قَضَاءَهُ نَافِذٌ وَاتِّبَاعُ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّعْيِ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالتَّحَرُّزِ مِنَ الْعَدُوِّ كَمَا فَعَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: وَهَذَا الْمَذْهَبُ هُوَ إِخْتِيَارُ الطَّبْرِيِّ وَعَامَّةُ الْمُفْهَمَاءِ.

التوكل طاعة:

وفي هذا قال الله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} 912.

والتوكل على الله طاعة لله ولرسوله لأنَّ الله قد عرفنا في كتابه أن لكلِّ شيءٍ سببٌ؛ فلا ننصرف عن التوكل بالتواكل.

⁹¹¹ فتح الباري لابن حجر - ج 6، ص 382

⁹¹² الأنفال - 46

ونأخذ بأسباب النَّصر بإعداد الجيوش.

وبأسباب الشفاء بإعداد الدواء.

وبأسباب الطعام بشقِّ الأنهار وتعمير الأرض وزراعتها.

وبأسباب القوَّة في كافَّة أشكَّالها بإعداد الإنسان الخليفة.

ونستلهم قول الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا} 913.

فالتوكُّل على الله هداية، وعدم التوكُّل على الله ضلال، لأنَّه الخالق المالك الذي يملك النَّفع والضَّر، ولا يملك كشف الضَّر سواء، ولا يملك رحمة بخلقه سواء، لذا فإنَّ الله هو الكافي الذي لا كافي غيره وهو ملاذ وملجأ المتوكِّلين، ومن يتوكَّل على الله فالله كافيته وهذا قوله تعالى لنبيه وبشراه لكلِّ من يتخذه وكيلا، قال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} 914

وسنختم بحثنا في اسم الله الوكيل وعلاقته بمعنى الخلافة وأنَّ الخليفة هو من يتوكَّل عليه والاعتماد عليه مع الأخذ بأسباب النجاح وهذا ما تمثل في سيرة النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته بشكل عام وفي الهجرة بشكل خاص، مع أنَّنا نجد التوكُّل في أسمى

⁹¹³ الكهف 83-85

⁹¹⁴ الزمر 37-38

صوره في كل لحظة من ملامح حياته ومواقفه صلى الله عليه وسلم؛
ففي الهجرة صور الله لنا هذا التوكل في قوله تعالى في الحوار بين
الصديق والحبيب بقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ
اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 915.

فمعية الله في التوكل عليه والأخذ بأسبابه؛ فلا حزن لمن كان الله
معه، ولا هزيمة لمن كان الله ناصره، ولا فقر لمن كان الله رازقه،
والسكينة لمن يستأنس به، والكفاية لمن يكتفي به؛ فحسبنا الله ونعم
الوكيل.

والحمد لله رب العالمين